الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعـــــة الحاج لخضـر باتنـــة

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية وآدابها

الظواهر المعنوية والفنية

في ديوان(الدموع السوداء)

للشيخ الطاهر التليلي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي

تخصص : أدب جزائري

إعداد الطالبة:
بوجلخة فضيلة

إشراف الدكتور:
عبد السلام ضيف

أعضاء لجنة المناقشة

-د/عبد الرزاق بن السبع	رئيـــــــــسا	جامعة. باتنة
-:د/عبد السلام ضيف.	مشرفا ومقررا	جامعة باتنة
-: د/معمر حجيج	عضوا مناقشا	جامعة باتنة
-:د/ أحمد موساوي	عضوا مناقشا	جامعة ورقلة

السنة الجامعية :2008م/2009م

قال تعالى :

(قل رَبِّ أوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ التِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي
بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالحِينَ)

سورة النمل
الآية 19

الإهداء :

أهدي هذا العمل إلى والديّ وأسأل الله لهما الصحة والعافية

في الدنيا والآخرة على دعمهما ودعواتهـــــما .

وأهديه إلى زوجي الذي ساعدني ووقف

معي من بدايـــة المشـــــــوار.

إلى كل إخوتي وأخواتي

وإلى كل من مد لي يد العون من قريب أو من بعيد .

المقــــــــــــدمة

المقـــــدمة

التراث – ولا شك – هو الكنز الباقي عبر السنين يقف شاهداً على عظمة الأجداد ،وأقصد بالتراث كل ما تركه العلماء السابقون من كتابات وكتب خطوها بأيديهم أو نسخها النُّسَّاخ ، و ما كان من أفكار طرحوها ودرسوها حتى ترسخت في عقولهم ووجدانهم ،ثم انتقلت إلى عقول من لحقهم على امتداد قرون الحضارة العربية الإسلامية. فهذه الكتابات والمخطوطات هي سجل عصرهم ومرآة أحداثهم وأفكارهم وقيمهم ، ومن هنا فهي أحد أهم المصادر التي لا غنى عنها لكل باحث يبحث في أي جانب من جوانب الحياة العلمية أو الاجتماعية أو غيرهما .

هناك أسباب عديدة تبقي الكثير من تراثنا مجهولاً ، وإن كانت هناك محاولات في الأيام الأخيرة لفض غبار الزمن عن بعضه ، لاسيما المخطوط منه. ومن بين هذه المحاولات ، ما قمت به في هذا البحث ليكون واحداً من الأبحاث المقدمة فيه ، وهو بعنوان : "الظواهر المعنوية والفنية في ديوان (الدموع السوداء)للشيخ الطاهر التليلي ". في محاولة لتحريك أفكار وعقول الباحثين لدراسة مخطوطات هي الأندر والأقيم في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية. وحتى تتوجه أقلام وعقول الباحثين لدراسة القدر الأكبر من تراثنا المخطوط دراسة عقلانية علمية لا دراسة حماسية.

لقد عُرف عن الشيخ الطاهر التليلي اهتمامه بالجانب الديني لما له من مخطوطات كثيرة في مجال دراسة القرآن وتفسيره ،لكني أردت أن ألفت انتباه الباحثين إليه من زاوية أخرى ،وهو تمكنه من ناصية الشعر ، وديوانه (الدموع السوداء) الذي هو موضوع دراستي دليل على ذلك. فارتأيت أن أبرز ه كعَلم من أعلام الجزائر الذين أَثْروا الساحة الأدبية .

وحاولت تتبع الدراسات التي كتبت في أدبه فلم أجد إلا ترجمات بسيطة في بعض الكتب ،وعلى الرغم من سعادتي بحصولي على بعض تراث الشيخ مخطوطًا ومطبوعًا إلا أنني أحسست بالهم وعظم المسؤولية تجاهه ، خاصة وقد أهمله النقاد والدارسون إلا من آراء قليلة في كتب الترجمات أو في حفل تأبينه ، وهذا ما جعلني أنوء بحمل هذا البحث وحدي.

ولأن المنهج التكاملي من خير ما استقرت عليه مناهج الدراسات الأدبية فقد اعتمدته حسب طاقته ، وما رأيته مناسبًا لطبيعة الموضوع ، وللخصائص التي رأيتها بارزة فيه ، حيث استفدت من المنهج التاريخي في التعرف على حياة الشيخ وما يحيط بها ، واعتمدت على المنهج النفسي في دراسته التحليلية ، وركَّزت

على المنهج الفني ، وبخاصة في مواضع الدراسة الفنية ، كما انفتح البحث على المنهج البنيوي الذي يكشف التداخلات النصية التي تتحكم في بناء النص الحاضر ، عن طريق وضعه في السياق الثقافي الســـابق له أو المتزامن معه ، من خلال الاقتباس من القرآن الكريم أو من شعر التراث القديم أو الحديث . وقد سرت في هذا البحث وفق مخطط قسمت فيه البحث إلى ثلاثة فصول.

تطرقت في الفصل الأول لبيئة الشيخ التليلي ؛ فتناولت الإطار الجغرافي والسياسي والاجتماعي والثقافي للمنطقة وما فيها من حركة فكرية وأدبية ، ثم تحدثت عن حياته العلمية والعملية وما اكتـــنفها من أحداث أثرت فيه طبيعة وجبلة وثقافة ، ثم أوردت ثبتًا لمؤلفاته.

وفي الفصل الثاني تناولت موضوعات شعره في عنوانين رئيسيين ، تحدثت في العنوان الأول منها عن أغراضه الذاتية ، وفيه كل ما يخص ذات الشيخ من رثاء ، وغزل ، وشكوى ، وإخوانيات ، ومدح وفخر ، ووصف ، وحكمة وفلسفة . وكان العنوان الثاني في الغرض الموضوعي ، و تطرقت لأدب الأطفال ، والنقد الاجتماعي ، والدين .

وفي الفصل الثالث درست الديوان من الناحية الفنية ، حيث تناولت :

ـــ اللغة وركزت فيها على أهم الظواهر اللغوية الواردة في الديوان من اقتباس ، و تكرار ، وجـــزالة اللفظ وقوته وإيحائه.

ـــ الصورة الفنية وتطرقت فيها للصورة التشبيهية ، والاستعارية ، والكنائية ، والرمز ، وأخيرا الصورة الكلية.

ـــ الموسيقى بقسميها الداخلية والخارجية.

وذيلت البحث بخاتمة طرحت فيها أهم الملاحظات التي وجدتها في الديوان .

وكان زادي في مشواري هذا مجموعة من المصادر والمراجع أهمها :

كتاب (هذه حياتي) للشيخ الطاهر التليلي (مخطوط) ، وكتاب الشعر الجزائري الحديث للدكتور محمد ناصر ، ومؤلفات الدكتور أبو القاسم سعد الله منها (تاريخ الجزائر الثقافي) و(مجادلة الآخر)ومجلة (العلامة المصلح محمد الطاهر التليلي ، .قراءة في سيرته وفكره وآثاره)إعداد مجموعة من المختصين.

ورغم انعدام الدراسات التي تناولت شعر الشيخ الطاهر التليلي ، إلا أنني خضت هذا البحث ، وتمكنت من جمع ما أمكنني جمعه ، فكانت ثمرة جهدي ، ومبلغ غايتي هذه الرسالة المتواضعة التي تبقى مجرد اجتهاد قمت به ، ولا أدعي رغم ما بذلته من جهد أني وفيت الموضوع من كافة جوانبه ، ، وحسبي أن أكون قد استفرغت جهدي في تحقيق أهداف البحث ومحاولة إثرائه.

وختامًا الشكر لله سبحانه وتعالى أولا وأخيرا الذي منّ عليّ وأعانني على إنهاء الرسالة بهذه الصورة.

وأزجي بالغ الشكر والتقدير للأستاذ المشرف الدكتور : عبد السلام ضيف ، نظير توجيهاته القيمة ، وتشجيعه الدائم الذي أعطاني دفعا قويا لإكمال هذا البحث.

كما أشكر السيد عبد الرحيم سعد الله الذي أمدني بما أحتاج إليه من كتب .

والأستاذ عادل محلو الذي ساعدني في إنجاز الرسالة.

ولا أنسى في الأخير كلية الآداب والعلوم الإنسانية ممثلة بقسم اللغة العربية وآدابها ، الذي أتاح لي فرصة مواصلة البحث العلمي في جوٍّ علمي متميز.

الفصل الأول

- بيئة الشيخ التليلي .
- حياته العلمية و العملية .
- أخلاقه وأقوال العلماء فيه .
- آثاره.

إن الحديث عن شاعر غير معروف مثل محمد الطاهر التليلي ممتع ومثير ، لكن تجدر بنا الإشـــارة إلى الميدان المدروس (ولاية الوادي)لتحديد الإطار المكاني ،وكذا التعرف على الظروف السياسية والاجتماعية و الثقافية للمنطقة .

❖- بيئة الشيخ التليلي :

1- الإطار الجغرافي :

ولاية وادي سوف تقع في الجنوب الشرقي من الجزائر، يحدها من الشمال إقليم الزاب (بسكرة والزرائب) وتمتد حتى جبال الأوراس ، والنمامشة ، وإلى منطقة نقرين، ومن جهة الشرق الحدود التونسية عبر (نفطة ونفزاوة) وبلدة (نقرين)التابعة لولاية تبسة .ومن الجنوب الحدود الليبية عبر واحات (غدامس) ، ومن جهة الغرب (تقرت وتماسين) بمنطقة ورقلة .(1).

أما المساحة الإجمالية لوادي سوف تقدر بحوالي82.800كلم^2، وهذه الخصائص الجغرافية جعلت منطقة وادي سوف تتمتع بموقع إستراتيجي متميز ، حيث إنها تجاور دولتين : تونس وليبيا، كما أنها محاطة بخمس ولايات هي : بسكرة ، تبسة ، الجلفة (عبر بلدة المرارة)، ورقلة ، وخنشلة*، وهذا الموقع المتميز أكسب المنطقة أهمية تجارية وتاريخية .

2- الإطار السياسي :

الشعر في أية أمة يتأثر بالنواحي السياسية والاجتماعية والثقافية، وقد مرت الجزائر بفترة عصيبة أثناء الاستعمار الفرنسي، ولولا الثورة التحريرية الكبرى لظلت الجزائر تعيش تحت وطأة الاستعمار، وكما وقف ثوار السلاح يدافعون عن الجزائر وقف إلى جانبهم ثوار القلم الذين سخروا كتاباتهم للذود عن الشعب، فكان منهم الشعراء والناثرون، ومن بينهم الشيخ التليلي الذي ما فتئ يدافع عن الجزائر ويبث في أهلها روح التحرر والاستقلال أينما حل. منها قوله :

صغير الشعب هيـــا للمعالي ... وحيِّ المجد تحت ضيا الهلال
صغير الشعب قـــد آن الأوان ... لأن ترقى ويرقى بك الزمان
فكسرى أنت اليوم وذا الإيوان ... بلادك فلتعش أبدا وتحيـــا
فقف يا ابن الذين أراك منــهم ... على ساق العزيمة وانظرنهــم

---

1. ينظر إبراهيم العوامر: الصروف في تاريخ الصحراء وسوف.تعليق الجيلالي عوامر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .س1977. ص: 37.

* هناك مشروع طريق وطني يربط بين الوادي وبعض مدن الشرق ومنها خنشلة .

وصفح معجم التاريخ عنهـــم تجدهم حدقوا فوق الثريـــا
بلادك تبتغي منك الديونـــــا فحاذر أن تكون لها خؤونـــا
فما ترضى لغيرك أن تكونـــا وما ترضاك لو تلويها ليـــا(1)

ويمكن أن نجمل الظروف السياسية التي أثرت في الشيخ وهي :

- الحرب العالمية الأولى والثانية ،وما خلفتهما من دمار وضغط على الشعب الجزائري ككل .
- ظهور جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ،وفرحة الشيخ بها لتوافقها مع مبادئه الإصلاحية.
- مجازر الاستعمار ضد الشعب الجزائري.
- اندلاع الثورة التحريرية الكبرى وما فيها من حماسة واندفاع ووعي.
- استقلال الجزائر وفرحة الشعب الجزائري به.
- قانون الوئام المدني في سبتمبر 1999.الذي يحقق الأمن والاستقرار في إطار توفير حلول ملائمة للأشخاص للمتورطين في أعمال إرهابية(2) ، لأن الشيخ قد تأثر كثيرا بالأحداث التي سبقته وانعـــــزل في بيته.

3- الإطار الاجتماعي :

تعتبر الأسرة هي الخلية الأساسية للنسيج الاجتماعي ، وما يميز الأسرة السوفية القديمة كونها تتسع للآباء والأبناء والحفدة جميعا ، حيث يعيش الكل تحت سقف واحد مكون من عدة حجرات.وتظل الأسرة متماسكة على هذه الحال لمدة طويلة ،وتجتمع الأسر التي تشترك في اللقب ، وتتجاور في السكن والأملاك الفلاحية مشكلة(العرش) ، فتقدم الأسر صورا مشرقة للتكافل والتضامن الاجتماعي.(3)

ويقوم الأهالي بأعمال تناسب الطبيعة الجغرافية والبشرية للمنطقة ،وتلبي الحاجات والضرورات المعيشية للفرد والجماعة وهي :

أ – النشاط الزراعي: يقوم على غرس النخيل التي تعتبر الدعامة الأساسية للاقتصاد المحلي (4). وذلك باختيار المكان المناسب ، وحفره حتى الاقتراب من المياه الجوفية لكي يطمئن الفلاح على بلـــوغ جذور النخلة للمياه الباطنية ،ثم تأتي عملية إزاحة الرمال عن جوانبها ،وهذا ما يطلق عليه اسم غابة النخيل*.

---

1. الشيخ محمد الطاهر التليلي : ديوان الدموع السوداء .ج2.ص : 81.مخطوط.
2. قانون الوئام المدني 16سبتمبر 1999م.الصادر عن وثائق مجلس الأمة. ص : 192/183.
3. ينظرعلي غنابزية : مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحليةفي القرن 13هـ19م ..رسالة ماجستير جامعة الجزائر 2001.قسم التاريخ .ص : 06. ص : 131.
4. المرجع نفسه . ص : 61.

* . يطلق على غابة النخيل في اللهجة السوفية اسم (الغوط)أو(الهود).

كما عرفت المنطقة زراعة التبغ الذي اشتهرت به بعض المناطق منها قمار والرقيبة والمقرن ، وتصنف هذه الزراعة في المرتبة الثانية من الاقتصاد المحلي .

ب ــ **تربية المواشي** : يمتلك أهل منطقة سوف الكثير من أنواع الحيوانات التي ينتفعون منها كالجمال ، والماعز ، والضأن ، فيستخلصون منها الحليب ، والزبدة ، واللحم ، والصوف ، والشعر ، والوبر.

كما يهتمون بالخيل ، والبغال ، والحمير باعتبارها وسائل ضرورية مساعدة في مختلف الأعمال لاسيما الزراعة منها .

ج ــ **التجارة بنوعيها المحلية والخارجية** : يعتبر الموقع الجغرافي لسوف مميزا ، فهي متصلة بالحدود التونسية والليبية ، وخمس ولايات وطنية هي تبسة ، وبسكرة ، الجلفة (عن طريق المرارة) ، و ورقلة ، وخنشلة. وهذا ما سهل عملية التبادل التجاري مع الدول والولايات المجاورة. و عرفت المنطقة بالصناعة التقليدية منها الصناعات الجلدية و النسيج المتمثل في : الزرابي ، والقندورة ، والبرنوس...كما عُرفت بصناعة السعف وهو جريد النخل ، الذي تصنع منه أواني وأدوات كثيرة.

وقد أحكم الاستعمار الفرنسي و اليهود سيطرتهم على المنافذ الرئيسية للاقتصاد ، خاصة التمور والتبغ (1). ما جعل الفلاحين يمرون بظروف قاسية و يخسرون فيها ممتلكاتهم .ولم يكن وضع البقية بأحسن حال فقد صادر الاستعمار كل ممتلكاتهم ، وانتشر بذلك الفقر والبؤس والبطالة بين الناس .

و قام الاستعمار بضبط الحالة المدنية في محاولة منه لتقسيم المنطقة إلى عروش ، وشجع المشعوذين على المتاجرة بعقول الشعب البسيط ، وتطبيق سياسة فرق تسد التي يعتمدها المستعمر من أجل إحكام قبضته على المنطقة ،

و كان الدين الإسلامي محط نقمة وغضب من طرف المستعمر الفرنسي ، فلجأ إلى حيلة دنيئة ، وهي إنشاء معاهد خاصة لتكوين رجال دين يمتثلون لأوامرها ، ويطعنون الدين من الداخل ، كما اتهم الدين بالتخلف والبدع وركز على الزوايا وبعض الطرق المنحرفة التي استغلت بساطة هذا الشعب وأميته ، وراحت تضلله بأكاذيبها .

وقد عبَّر الأدب بشقيه ؛ النثر والشعر عن الظروف السائدة ـ آن ذاك ـ من فقر وجوع وجهل وتشريد فأخذت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على عاتقها تحسين الوضع و إرسال الطلبة في بعثات إلى المشرق العربي و تونس ليتزودوا بالعلم حتى إذا رجعوا شرعوا في علاج الأمراض الاجتماعية المتفشية في المجتمع الجزائري.

---

1. موسى بن موسى : الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها (1900ـ 1939)رسالة ماجستير إشراف د/أحمد صاري .جامعة قسنطينة. قسم التاريخ س2004ـ/2005.ص : 60.

ومضت جمعية العلماء في هذا الطريق حاملة على عاتقها رسالة النهوض بالشعب الجزائري والعمل على إحياء شخصيته ، وإصلاح عقيدته ، وربطه بكيانه القومي ، وتوثيق صلته بنهضة أمته العربية الإسلامية ، فكانت بذلك البرهان على أصالة الشعب ، والرد على المستعمرين الذين ظنوا أن أ هدافهم قد تحققت بفصل الشعب عن دينه وعروبته .(1)

ومن الأمراض الاجتماعية المتفشية في مجتمع وادي سوف ، الوضع الاجتماعي المزري لأغلب الأسر بالمنطقة ، نتيجة استغلال الاستعمار لأراضيهم ، وكان لهذا الوضع الاجتماعي انعكاساته من فقر وأوبئة راح ضحيتها الكثير خاصة مع بداية الخمسينيات .

كانت الأرض مسرحا لشقاء الإنسان ، وقد طوقته من كل جهة ، فلجأ الكثير من الشباب إلى الهجرة لتونس بغرض استكمال الدراسة والتعلم . والشعر خير مرآة لهذه الأوضاع التي تعتبر عن مأساة الشعب ، وقد تحدث الشيخ محمد الطاهر التليلي عن حياة الناس الفقيرة البائسة من خلال قوله :

معيشتهم ضنك على كل حالة	وأتعابهم لا تستقر على حصر
ولولا ثلاث هن آلات عيشهم	لمسهم موت من الجوع والضر
فخطارة تهوي وتصعد دائما	من البئر أو في البئر دائمة الخطر
وخشبة منوال لنسج ثيابهم	يحاك عليها خالص الصوف والوبر
وخشبة نخل توتي في العام أكلها	تُغل عليهم باللذيذ من التمر
وما فكروا يوما في تغيير حالهم	وتطوير أحوال المعيشة كالعصر (2)

4- الإطار الثقافي :

لقد كان بالجزائر مراكز ثقافية رفيعة ، ولم يكن ازدهار العلم والثقافة حديث العهد حين أُحتلت الجزائر في مطلع القرن التاسع عشر ، بل كان يضرب بجذوره إلى مئات السنين ، ففي القرنين الرابع عشر والخامس عشر ظهرت بالجزائر مراكز ثقافية رفيعة ، وأساتذة أعلام نبغوا في شتى العلوم ، كجامعة تلمسان ، التي يشع منها نور المعرفة والثقافة في شمال إفريقيا ، عندما كانت أوروبا تتخبط في ظلام الجهل والهمجية .

ولم تكن نسبة الأمية عام 1830سوى 14٪وبعد مائة وخمسة وعشرين عاما من الحكم الفرنسي ، أصبحت نسبة الأمية 92٪عام 1955. وعليه فقد امتلأت الطرقات بضحايا الجهل والأمية من الشباب

---

1. محمد بن سمينة : في الأدب الجزائري الحديث. النهضة الأدبية الحديثة في الجزائر ومؤثراتها ـ بدايتها ـ مراحلها . مطبعة الكاهنة . الجزائر س2003.ص : 19.
2. ديوان الدموع السوداء.ج1.ص : 80.

الذي اضطر إلى العمل ما بين المناجم والحقول، ومسح الأحذية(1) ، وهذا يدل على أن تعليم الأهالي كاد يكون مهملا من طرف الحكومة التي عمدت إلى تجريد الشعب من قوميته ؛ وذلك بالقضاء على ثقافته الوطنية بإلغاء المدارس والمعاهد العربية التي كانت إحدى حلقات العلم والثقافة ، ولم تقف سياسة التجهيل عند هذا الحد بل تطاولت يد المستعمر إلى المساجد التي كانت مقرا للعبادة والعلم ، فاستولت عليها ليتسنى لها القضاء على اللغة العربية ، وجعل اللغة الفرنسية هي لغة الدرس.ونتيجة لهذا التضييق الشديد على مدرسي العربية هاجر معظم الأساتذة من البلاد ولم يبق في المدارس إلا عدد محدود ، وقد تأثرت الثقافة بهذه الأحداث التي خلفها المستعمر فاضمحل الأدب المكتوب واللغة الرفيعة ، وهكذا فقد المثقفون الجزائريون تدريجيا اتصالهم بالتراث نتيجة لفقدان الكتب والمدارس بلغتهم (2)، وبذلك انحصر التعليم في الزوايا، وكان لهذا التعليم الفضل في الحفاظ على اللغة العربية، و مناهجه قديمة تعنى بتدريس النحو والصرف والفقه ، مما أضر بتقدم الأدب والشعر الذي أصبح يتناول موضوعات عتيقة، ولا يغوص في قضايا المجتمع، وبذلك أصبح الشعر يُروَّج بين الزوايا والطرق الصوفية . الأمر الذي جعله ينحصر في المجال الديني.

ولم يسلم هذا التعليم ـ الزوايا ـ من مطاردة السلطات الفرنسية التي أغلقت المدارس الأهلية والزوايا ، ونفت المدرسين والطلبة من هذه المعاهد منذ بداية الغزو حتى كادت تختفي الطبقة المثقفة في ميدان الأدب خاصة .(3)لقد شرعت فرنسا قوانين لاضطهاد اللغة العربية ، ففي 1880 أصبح التعليم الفرنسي إجباري على الأهالي الذين رفضوه ، والغرض من ذلك دمجهم ومسخ شخصيتهم الوطنية .

وفي سنة 1904 أصدرت فرنسا قانونا ينص (على عدم السماح لأي معلم مسلم أن يتولى إدارة مكتب لتعلم اللغة العربية بدون ترخيص يمنحه إياه قائد الفيلق العسكري، والتصريح لا يعطى إلا بضمانات).(4)

ومن هنا يظهر أن الاستعمار لم يأت إلى الجزائر لنشر (حضارة)كما يدعي، وإنما جاء ليسلب أفكار الشعب ويزور تاريخه، وبذلك لم يستطع الأدب الجزائري أن يطور ذاته، وشغل الناس عن الأدب والشعر مما أدى إلى ركود الحركة الأدبية مدة طويلة (5)وبلغ هذا الركود ذروته في النصف الثاني من القرن

---

1. عبد الكريم شبروا : التجربة الشعرية عند أبي القاسم سعد الله رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث.إشراف د/سعيد لراوي.جامعة باتنة س2006/2007. ص: 43.
2. أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية .دار الآداب . بيروت .ط س1967.ص: 73/75.
3. عبد الله الركيبي: الشعر الديني الجزائي الحديث . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر .ط1س1981.ص: 30/31.
4. أنور الجندي : الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا . مطابع الدار القومية . القاهرة . ط س1975.ص: 132.
5. أبو القاسم سعد الله : دراسات في الأدب الجزائري الحديث.دار الآداب .ط2.س1977.ص: 21/22.

التاسع عشر ،وفي الربع الأول من القرن العشرين إلى درجة أننا لا نكاد نعثر على اسم واحد في دنيا الأدب .(1).

بداية النهضة الثقافية وعواملها :

كان للاستعمار دوره الكبير في تأخير النهضة في جميع المجالات ، خاصة المجال الأدبي ، إلا أن بوادرها بدأت تلوح في الأفق مع منتصف العشرينيات من القرن العشرين ، حيث شهدت محاولات جادة للقضاء على التأخر والجمود ،والدعوة إلى التجديد في مختلف الميادين .

عوامل النهضة الثقافية في الوادي :

1ـ المدارس القرآنية :

كان لهذه المدارس منذ القديم دورها الكبير في تحفيظ القرآن الكريم وتربية النشء ، وانتشرت في كامل أنحاء القطر الجزائري ،منها وادي سوف ، فلا تخلو مدينة أو قرية منها ، وأغلبها تابع للمسجد ، فعادة ما يكون إمام المسجد أو ما يسمى بـ(الطالب) هو المسؤول عن التدريس ، ومن عادة أهل المنطقة أنه إذا بلغ أبناؤهم سن الخامسة يرسلونهم إلى هذه المدارس ليتعلموا الحروف وما تيسر من القرآن الذي يسمعونه ممن هم أكبر منهم .وأول ما يبدأ به التلميذ هو حفظ حروف الهجاء(أ.ب.ت..) فإذا حفظها عن ظهر قلب شرع في حفظها بالإعجام ؛بمعنى أنه يقول(ألف لا شيء عليها)و(الباء واحدة من الأسفل)وهكذا مع بقية الحروف ، ثم يحفظها بالشكل مثلا (ألف بالخفض إِ، بالنصب أَ ، بالرفع أُ ، بالوقف أْ)وهكذا حتى إذا أتم حفظ الحروف جميعا شرع في حفظ القرآن ابتداء من (الفاتحة)ثم (الناس) حتى يتم حفظ القرآن .

2 ـ المعاهد الإسلامية :

إضافة إلى كثرة المدارس القرآنية ، كان للمعاهد الإسلامية دورها الكبير في تثقيف الشعب الجزائري صغارا وكبارا ، وذلك من خلال نشر مبادئ الدين الإسلامي ، وتعليم اللغة العربية ، وأبرز هذه المعاهد بوادي سوف معهد الزاوية القادرية بعميش *الذي فتحه الشيخ الهاشمي الشريف ، وقدم إليه علماء كثر من قمار وتونس ، ثم تطور هذا المعهد في عهد ابنه عبد العزيز الشريف ، الذي واصل مسيرة والده في نشر الوعي الثقافي الإسلامي .

وأهم ما يميز نشاط هذه المعاهد وجود مجموعة من العلماء البارزين الذين كان لهم دور في نشاط الحركة العلمية بوادي سوف ، وقد تجسد هذا النشاط في ثلاثة معاهد علمية : معهد الوادي ، ومعهد قمار ، ومعهد

---

1. عبد الكريم شبرو : التجربة الشعرية عند أبي القاسم سعد الله . ص : 45.

*اسم قديم للقرى الواقعة جنوب مدينة الوادي ، وهي تعرف اليوم بالبياضة وما جاورها.

الزقم، وقد استطاعت هذه المعاهد الثلاث القيام بدور التعليم و التدريس والوعظ والإرشاد .

3ـ المدارس الفرنسية :

لقد أنشئت هذه المدارس لطمس الثقافة الإسلامية ، ومحو الدين، وبالتالي خلق جيل جديد لا يمت بصلة للدين وأهله، وأول مدرسة فتحت بوادي سوف كان مع بداية الموسم الدراسي لسنة1886م وأطلق عليها اسم (مدرسة الأهالي)، ثم أضاف المستعمر مدرسة ب(كوينين) أُفتتحت بعد ثماني سنوات من الأولى ، وأخرى بقمار حوالي سنة1903م.

- **الحركة الأدبية والفكرية بالوادي:**

كان للظروف السياسية والاجتماعية والثقافية آثارها على الحياة الفكرية والأدبية بالوادي ، وسنحاول التركيز هنا على الأدباء الذين برزوا في الساحة الأدبية ، مشكلين الحركة الأدبية المعاصرة التي سايرت ازدهار الطباعة والتوثيق خلال السنوات الأخيرة دون إغفال بعض أسماء الأدباء الذين أناروا سماء الحركة الأدبية في الجزائر ، وتركوا بصماتهم شاهدا على تفردهم ، ونذكر منهم على سبيل العد وليس الحصر :

ــ **محمد العيد آل خليفة :** شاعر جزائري معروف ولد سنة 1904بكوينين ولاية وادي سوف ، تحصل على شهادة (التحصيل) من جامع الزيتونة بتونس(1)، له شعر جميل عن الثورة الجزائرية ، والأحداث التي وقعت في عصره .

ــ **الحفناوي هالي :** (1911ـ1965) شاعر وكاتب وصحفي ، تخرج من جامع الزيتونة بشهادة (التحصيل)سنة1936، عمل بمعهد بن باديس بقسنطينة، وكاتبا إداريا بالجمعية ، وشارك في تأسيس مدرسة التهذيب بالعاصمة وعمل في إدارتها لعدة سنوات.(2)

ــ **الدكتور أبو القاسم سعد الله** : باحث ومؤرخ ، حفظ القرآن الكريم ، وتلقى مبادئ العلوم من لغة وفقه ودين ، وهو من رجال الفكر البارزين ، له سجل علمي حافل بالإنجازات من وظائف ، وترجمات ومؤلفات . نذكر منها :

- تاريخ الجزائر الثقافي في تسعة أجزاء .
- أفكار جامحة .
- ديوان الزمن الأخضر .
- دراسات في الأدب الجزائري الحديث.(3)

---

1. محمد الطاهر التليلي : مجموع مسائل تاريخية متفرقة تختص بسوف وأهلها في القديم والحديث ، وما يتعلق بصحراء سوف من قريب أو بعيد .ص: 96/95.مخطوط.
2. محمد بن سمينة: محمد العيد آل خليفة .المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر.د ط .س1989.ص: 07.
3. عبد الكريم شبرو : التجربة الشعرية عند أبي القاسم سعد الله . ص: 53/52.

وهو صاحب أول قصيدة في الشعر الحر ، وهي قصيدة (طريقي)المنشورة بجريدة البصائر، ومنها :

يا رفيقي

لا تلمني عن مروقي

إذ أنا اخترت طريقي

... وطريقي كالحياة

شائك الأهداف مجهول السمات .(1)

ـــ **محمد الصالح باوية** : طبيب جراح وشاعر له ديوان (أغنيات نضالية).

ـــ **أحمد حمدي** : أحمد حمدي من مواليد 1948 بالدبيلة ولاية الوادي.

أكاديمي وكاتب وشاعر جزائري، له تجربة رائدة في مجال الشكل الشعري المعاصر ، وهي قصائد نقية خالية من الحشو والتعقيد ، يمتاز شعره بالرقة والرهافة (2)، ظهر ذلك في دواوينه المعروفة : إنفجارات ـ قائمة المغضوب عليهم، وله في المسرح : حصن الأحرار ـ المقصلة اليومية. وفي مجال الدراسات والبحوث : واقع السينما في الجزائر ـ الثورة الجزائرية والإعلام .

ـــ **سليمان جوادي** : شعره لا يقل أهمية عن شعر أحمد حمدي بل يكمله، فلغته في شعره رهيفة الحس ،وصوره بديعة معبرة عن معاناة الشعب اليومية(3) ،ولعل حساسيته الموسيقية تعبر عن تفرده الذي لا يدانيه فيها أحد من أبناء جيله. له ديوان(يوميات متسكع محظوظ).

ـــ **عبد الحميد هيمة** : من رواد النقد الأدبي في الجزائر حاليا ، وهو أستاذ بمعهد الآداب بجامعة ورقلة ، يركز على دراسة نصوص الأدب العربي . من مؤلفاته (الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري) (علامات في الإبداع الجزائري).

ـ أقسام الحركة الأدبية والفكرية بالوادي:

أولا : الحركة الشعرية :

تطرقنا للشعر باعتباره أكثر الأجناس الأدبية انتشارا في وادي سوف، بحيث يفوق الشعراء عدد كتاب القصة و الرواية والمسرح مجتمعين ، وهو أمر طبيعي لأن الصحراء ارتبطت بالفنون القولية والتعبير الوجداني أكثر من السرد والقص، ويمكن تقسيم الحركة الشعرية بولاية الوادي إلى ثلاث مراحل هي :

1. د/أبو القاسم سعد الله : الزمن الأخضر .المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر. ط س1985.ص:144.
2. .د/حسن فتح الباب : شعر الشباب في الجزائر.المؤسسة الوطنية للكتاب .الجزائر .س 1987.ص:45.
3. المرجع نفسه.ص: 138.

1 ـ مرحلة الجذور :

لقد ظهرت أولى النصوص الشعرية الفصيحة الموثقة بداية من القرن 12هـ وامتدت حتى السبعينيات من القرن العشرين ، وقوامها أدباء هم في الغالب أئمة ومشايخ ينظمون الشعر في أغراض شتى منها الشعر التعليمي والمدح والرثاء.... نذكر منهم :

أ ــ خليفة بن حسن القماري :

ولد بقمار سنة 1123هـ /1711م وتوفي سنة 1207 /1792م له منظومات عديدة أشهرها :

ــ **جواهر الإكليل نظم مختصر الشيخ الخليل** : وهو كتاب في الفقه المالكي جاءت في 9818بيتا . يتميز أسلوبه بجودة النظم ، ودقة المعلومات . وطبع الكتاب بالمطبعة البارونية سنة1899م بمصر.

ــ **اللامية في نظم الأجرومية** : في النحو ، قال عنها التليلي في (كتاب مسائل تاريخية) : (مطربة عذبة على طراز الشاطبية يطرب لها الناشئ ويرقص لها المبتدئ لسلاسة نظمها وعذوبة موسيقاها...).يقول فيها :

فأربعة أنواع قسم مقـــــــدم   هي الاسم ذو الإفراد والجمع كالدلا
وثالثها جمع صحيح مؤنثـــا   و رابعها الفعل المضارع إن خــــلا
فرفع بضمة وانتصاب بفتحـة   وخفض بكسر والسكون لما خــــلا (1)

ــ **منظومة في حكم العمل بالجرة** : ووقع خلاف مع علماء الخنقة حولها ، وتضمنت ردا علميا عليهم.(2)

ب ــ الشيخ محمد الزبيري : تعرف عائلته باسم (البُرِّيَّـة)نسبة إلى أمه .ولد سنة 1296هـ/1874م بقمار وتوفي بها حوالي سنة1311هـ/1926م(3) نظم شعرا كثيرا من بينه مناظرة شعرية قصيرة مع الشيخ الخضر حسين الجزائري ، عندما قدم مدرسا بالزاوية التجانية بقمار ، وأصبح شيخا للأزهر فيما بعد .

يتميز شعره بالرقة خاصة عند المدح أو الرثاء . يقول في مدح الرسول @ :

أخفي الهوى وتذيعه أجفاني   والشوق من ألم الجفا أفنــاني
ومتى يؤمل راحة من تنقضي   أيامه في الصد والهجــــــران
تحييه ساعات التمني باللقــا   وتمنيه بأسا بغير ضمــــــان(4)

ج ــ الشيخ الطاهر العبيدي :

---

1. محمد الطاهر التليلي : مجموع مسائل تاريخية متفرقة تختص بسوف وأهلها في القديم والحديث .ص : 10.
2. عادل محلو : الحركة الأدبية بولاية الوادي .موضوع ألقي في تظاهرة الأسبوع الثقافي لولاية الوادي. جوان 2007. ص : 06.
3. أعلام سوف .إعداد مديرية دار الثقافة لولاية الوادي. شركة مزوار. ط1.س2006.ص : 32.
4. .سعد بن البشير العمامرة وأحمد بن الطاهر منصوري : أعلام من سوف في الفقه والثقافة و الأدب .جمعية الجماعة السوفية. .ص : 26.

ولد الشيخ خلال 1886 ، وتوفي سنة 1968م(1) ترك عددا من المنظومات والقصائد أهمها ثماني ، منها :

ــ جريان المداد في الاعتصام برجال السند : وهي 856بيتا في التصوف

ــ نظم رسالة القطب الدردير في البيان بأسهل بيان .

ــ بغية الأمل في نظم رسالة العوامل .

د ــ حمزة شنوف : ولد سنة 1909.بوادي سوف ، عندما بلغ سن الخامسة انتقل إلى بسكرة مع عائلته ، ثم إلى تونس ليكمل دراسته بجامع الزيتونة سنة1923. يقول في قصيدة (مناجاة الوادي) :

سقاك الغيث يا وادي الرمـــال وصانتك الأسنة و العــــوالي

تذكرني مرائي البحر ليـــــــلا بنور البدر من فوق الرمـــــال

فتبعث في الفؤاد هوى دفينــــا فيلهي النفس عن مرأى الجمال(2)

هـــ الشيخ محمد الطاهر التليلي :

هو شيخنا وموضوع بحثنا. ينظر التعريف في هذا الفصل.

هؤلاء الذين سبق ذكرهم هم نماذج فقط لبدايات الحركة الشعرية الفصيحة بولاية الوادي في القرن العشرين ، ولو تحدثنا عن كل الشعراء الذين نظموا شعرا في ذلك الوقت ، لما اتسع المقام ، ولما أوفيناهم حقهم . وقد كان النظم الشعري خليليا تقليديا يغلب علية الطابع التعليمي والمناسباتي .

2 ـ مرحلة التأسيس :

أ ــ عوامل التجديد :

كانت المرحلة السابقة تمهيدا لتطور الشعر الحديث في ولاية الوادي .وتمكن شعراء السبعينات من القرن الماضي من الانطلاق نحو التجديد على المستويين : الشكل والمضمون .ويعود ذلك لعدة أسباب منها :

ـ التحولات التاريخية التي مرت بها المنطقة ـ ككل أنحاء الجزائر ـ وأهمها الاستقلال الذي أعطى انطلاقة جديدة في نظم الشعر .

ـ الظروف الاجتماعية والثقافية الملائمة للتجديد منها انتشار التعليم .

ـ عودة المغتربين إلى بلادهم خاصة من تونس التي كانت زمن الاحتلال مركز إشعاع علمي وثقافي.

ب ــ شعراء مرحلة التأسيس :

ــ السعيد المثردي :

---

1. بن سالم بن الطيب بالهادف : سوف تاريخ وثقافة ..مطبعة الوليد .س2007 .ص : 63.

2..سعد بن البشير العمامرة وأحمد بن الطاهر منصوري :أعلام من سوف في الفقه والثقافة و الأدب. ص : 78.

ولد بتونس سنة 1954.هو من الشعراء البارزين الذين أسسوا للشعر الجديد بالوادي ، تتميز قصائده بالغنائية والتجانس الموسيقي ، له اهتمام بالقضايا الوطنية والعربية والإسلامية وانعكست في أشعاره .
يقول من قصيدة (هتاف القباب) :

يا سائلي عن مواجع بوحـــــي فبوح الكثيـــــب بها أوجع
فكم بح صوت الكثيب بصوتي وليت آذانهــــــــم تسمع(1)

وقد شارك السعيد المثردي في الملتقيات الشعرية وطنيا ودوليا ، وقاد لفترة طويلة خلال نهاية الثمانينات والتسعينات حلقة الشعر بالوادي ، حيث جمعت الشعراء الشباب آنذاك .فكان يوجههم باعتباره أقدم منهم في مجال الإبداع الشعري.

ـــ أبو بكر مَراد :

ولد سنة1952 ، له اهتمام بالقضايا المحلية و الوطنية والعالمية ، يتميز شعره بنظام التفعيلة أكثـــــــر من العمودي ،وقد نشر ديوانين هما (قصة الفارس المستقيل) سنة1994 ، و(أوراق الهزيمة)سنة2002.
كما أخرج أشرطة سمعية شعرية هي : (نهلة) (أشعار عاجلة)و (عاش الولد).
للشاعر أبو بكر مراد قصائد كثيرة تخاطب عواطف القراء ، من بينها قصيدته(التفكير بالنيابة)التي حاول من خلالها أن يدافع عن الناس ، يقول :

ثمل أنت بالشعب المخدر
يقتات أحلاما ويصبر
يجوع دهرا وينكر
ثمل أنت بالشعب المخدر(2)

ـــ السعيد حرير :

ولد سنة 1960 ، كتب البدايات الأولى لشعره بالمرحلة الثانوية ، يمتاز شعره بالنظام الخليلي ، له ديوان تحت الطبع بعنوان(همسات قبيل غروب الشمس).يقول في وادي سوف :

تأمل قبابي . أنا واد ســــوف مدينة سحر نمت كالهـــلال
مزجت اخضرارا فسائل نخيلي بصفرة رملي جميلا بــدالي (3)

ـــ صالح خطاب :

---

1. مجلة القباب : .العدد 6.س2007. ص : 74.
2. أبو بكر مراد : أوراق الهزيمة.دار الشهاب باتنة.ص : 18/17.
3. مجلة القباب : .العدد 6. ص : 73.

شخصية شعرية متميزة بالوادي ، له اطلاع واسع بالآداب الغربية ؛ فهو مترجم بارع ، وانعكس ذلك على شعره في طريق التصوير واللغة ،يقول في قصيدة (لن أقترف السفر) :

لا الجرح يحفل بالرحيل
ولا أنا أنسى فاقترفَ السفر
جرح تناثر في حشى أمسي
يسافر في دمي
ظلت تعانقه عقارب ساعتي
لتقيم عرسي... مأتمي ، ولم أزلْ
نظرات عشق في عيون أبي وأمي
وابتسامات غزل(1)

إن هؤلاء الشعراء قد تركوا بصماتهم في سماء القصيدة الحديثة في ولاية الوادي ، وفتحوا المجال أمام الكثير من الشعراء لإبراز مواهبهم الشعرية المعبرة عن آلامهم و آمالهم ، بطريقة بعيدة عن النمط التقليدي الخليلي .

مما يلاحظ على الشعراء سعيد المثردي وأبو بكر مَراد ،وصالح خطاب ،هو التأثير التونسي في اللغة والصورة ، فالشاعران الأولان قد ولدا وتلقيا تعليمهما الأول بتونس ، ولعل قرب المسافة والتواصل بين تونس ووادي سوف له تأثير في ذلك.

3 ـ مرحلة الانطلاق :

تعج الساحة الأدبية بالوادي بعدد كبير من الشعراء الذين برزوا في منتصف التسعينيات ، ونظموا في كل أنواع الشعر حتى قصيدة النثر. ويمكن أن نرجع انتشار النظم وتنوعه بين فئة الشباب إلى عدة أسباب منها :

ــ أن أكثر هؤلاء الشباب قد التحق بالجامعة خارج المنطقة للدراسة ، وتوجه جلهم لمعهد الأدب العربي ، أين تعرفوا على أنماط وكتابات جديدة في الشعر .

ــ رغبة هؤلاء الشباب في التميز عن شعراء مرحلة التأسيس ، بالنظم في أنماط جديدة تتسم بالمرجعية الجمالية.

هذه العوامل وغيرها جعلت هذه الفئة من الشعراء الشباب يتميزون ، رغم ازدحـــــام الساحة الأدبية بالشعراء الذين نظموا في أنواع كثيرة ، وعلى اختلاف أزمنتهم.

---

1. . عادل محلو : الحركة الأدبية بولاية الوادي.**ص: 12.**

- **اتجاهات شعراء مرحلة الانطلاق :**

أ ــ الاتجاه التقليدي :

وهو اتجاه يعنى باللغة والصورة والموضوعات ،وليس بالضرورة أن تكون القــــصيدة على النظـــام الخليلي ، فالمتأمل لهذه القصائد يجد نفسه أمام صروح القصيدة القديمة . وهذا ما نلاحظه عند الشاعر حسين لقرع في قصيدته (جمال النساء) :

إن الجمال لدى حــــواء يزداد … لو أنها بحجاب الشـــرع تنقاد

هو النجاة لها من كــــل حادثة … ومن ذئاب تعجُّ الحــــي أرصادٌ

ضاع الرجال فماذا عن نسائهم … لا لوم إن رقص في البيت أولاد (1)

ويقول الشاعر عبد اللاوي عبد الرحمان في قصيدة (ردني للذكرى) :

ردني للذكرى إن ضيعتـــــني … وارجع الماضي لعهد ضمني

أغرق البحر بعمر ودنــــــــي … غوره يغتاب موجا هزنــــــي

أفرغ الكأس التي حنضلتهــــا … وأعرها حُلْوَكَ ثم اسقنــــــي

أرسلَ الليل إلي بعدمـــــــــا … هجر الليل طويلا موطنـــــي(2)

ب ــ الاتجاه الوجداني :

نظم في هذا الاتجاه أغلب شعراء هذه المرحلة ، لكونه يهرب من الواقع المعاش ويجد في الأحلام موطنا له ، يطل من خلالها على أحداث العصر ، ومشاكله وآلامه ، فيعود ويرسمها بألوان الطبيعة من شجر ، ونجم ومياه ...

من بين هؤلاء الشعراء الذين برزوا ، نذكر الشاعر مصطفى صوالح محمد الذي يقول في إحدى قصائده :

يا ريشة الرمل كوني اليوم ملهمتي … حلِّي ربيعا فؤاد الشعر نـــاداك

يا نغمة الناي و الأنسام تسمعنـــي … يا رعشة الحرف في أفواه قتلاك(3)

وهناك شاعر آخر هو بلول محجوب ، الذي يقول في قصيدة نشرها بمجلة (القباب) :

تدمع الدمعة في داجي الليــــــالي … كم يقاسي الحُر في هذا البلــــد

أنت منفي على أية حــــــــــال … هل ورثت الهجر من جد لجــــد

استعن بالحرف من كيد الأعــادي … إنهم جاءوك من خلف فجــــد(4)

1.عادل محلو : الحركة الأدبية بولاية الوادي. ص : 14.

2. مجلة القباب.العدد 2.س2004.ص : 48.

3. قبل أن تنفد الكلمات (شعر) .ص : 100.

4.مجلة القباب .العدد 1.س2004.ص : 56.

وهناك أيضا غير هؤلاء الشعراء مثل صلاح الدين باوية ،يوسف بديدة ، البشير المثردي ، وأنيس عبد الحفيظ .

ج ـ الاتجاه الأدونيسي :

تأثر أصحابه بالتيار الأدنيسي الجديد ، ومن أبرز ممثليه : سليم حمدان وميداني بن عمر ، اللذان كتبا عددا لا بأس به من القصائد النثرية ، ونذكر من ذلك قصيدة (ويسقط الهرم الهلامي)لسليم حمدان :

تائه

والمدى قبلتان

أعطت الأرض لون النحيب

والأسى موجة كاذبة

ماذا لو عادت أثينا ...

بقبلتها الثانية

والسنون مغامرة لم تزل(1)

إلى جانب كتابة القصائد النثرية ، كتب أصحاب هذا الاتجاه عددا من القصائد العمودية بنظرتها الحداثية .

يقول ميداني بن عمر في قصيدة (حورية الربوة) :

تساكب همس النخل في أذن الربـــوه	أيا نخل هل خبَّرتها أن بي صبـــــوه؟
على صدرها العطشان طلقت شهقتي	وفي نهدها ودعت أهلي على غفـوه
وفتنا بحور العمر في ضوء شمعـــــة	أذابت فتيل العمر يا عمرنا عفـــــوا(2)

وأظهر الشاعر يوسف بديدة نقطة التحول والابتعاد عن الثوب القديم من خلال قصيدة (نرجسي) :

سأزرع وحدي

وأقطف وحدي

لأني قررت أن أستعيد

جمال جبيني

رميت إلى البحر ميراث جدي

فلا الشاش يُظهِر خصلات شَعري

ولا جبة الصوف تُبرِزُ قَدي(3)

1. قبل أن تنفد الكلمات (شعر).ص: 36.
2. المرجع نفسه .ص: 23.
3. المرجع نفسه .ص: 83.

د ــ الاتجاه الصوفي :

إن الدارس للاتجاهين الأدنيسي والصوفي لا يجد فرقا كبيرا بينهما ، فكلاهما يستخدم الرمز و يتعامـــل مع اللغة ويوظفها بطريقة متميزة، لكن الاختلاف في المعنى والهدف . وقد نظم في هذا الاتجـــــاه عدد من الشعراء ، من أبرزهم بشير ونيسي الذي ، يقول في نصه (وجه من الماء):

أعطني يدك يا حبيبي كي أمسح وجع القدر

أعطني يديك

إني أشتهي برزخا من لحم

توشحه فسيفساء الدم (1)

ثانيا : الحركة السردية و المسرحية بولاية الوادي :

ــ الفنون السردية :

إن الاهتمام بفن السرد سواء أكان قصة أو رواية يعد قليلا ، ويمكن أن نرصد مرحلتين لكتاب الفنون السردية :

أ ــ مرحلة التأسيس:

كان الأستاذ بشير خلف من الكتاب البارزين في هذه المرحلة ، منذ السبعينيات ، وقد أثرى الساحة الأدبية الجزائرية بعدّة مؤلفات في مختلف الاتجاهات الفنية التي تعرفها القصة العربية القصيرة، منها والعالمية ، كما أسهم بشكلٍ فعّالٍ في إنعاش الحياة الثقافية بمختلف المقالات ، وخاصة في منطقة الوادي ، وهو يرأس حاليا الجمعية الثقافية : " رابطة الفكر والإبداع "، وصدرت له مجموعة قصصية هي :

1..أخاديد على شريط الزمن .

2. القرص الأحمر.

3.الشموخ.

4.الدفْء المفقود.

5.ظلالٌ بلا أجساد التي صدرت له خلال شهر ماي 2007.

و تكشف كتاباته عن ممارسَته الإبداعية ، وما تحمله في طيّاتها من رؤى فنية ، وجمالية التشكيل القصصي . حيث تستمد موضوعها من وحي الاهتمامات المحورية للناس ، وتستخلص مفاتيحها ممّا يزخر به الواقع الجديد من تناقضات ، ويظهر انتصاره للنزعة المحافظة ، فينقد بدقة سلبيات حياتنا .

ولا يعني هذا أن التوجه نحو القيم المحافظة ، أدى إلى افتقار نصوصه لتقنيات الفن القصصي ، بل هي

---

1. قبل أن تنفد الكلمات (شعر).. ص: 76.

تعتمد على كل عناصر القصة خاصة الشخصيات والعقدة ، المعبرة بشكل واضح عن الواقع المعاش، ويستغل بشكل جيد كل طاقات اللغة دون تكلف.

ب ـــ مرحلة الانطلاق :

تشمل الكتاب الجدد الذين دخلوا مجال الكتابة القصصية خلال سنوات التسعينيات ، وعلى رأسهم عبد الرزاق بادي الذي أصدر مجموعة قصصية بعنوان (أزمنة الرحيل المر).

و أصدرت رابطة الفكر والإبداع، التي كما قلنا يترأسها الأستاذ بشير خلف ، مجموعة قصصية تسمى (أنين المدينة) ، برزت من خلالها أصوات سردية جديدة في القصة القصيرة منها : نعيم المثردي الذي تحصّل على جائزة وطنية في فن القصة عن نصّه "المئزر الأبيض". وهناك أيضا زكرياء نوار ،و سليم سعداني، وغيرهم .

وخلال مرحلة الانطلاق شهدت الوادي أول رواية عربية وهي (المقبرة البيضاء) للأستاذ أحمد زغب ، وهي أولى رواياته لكنها تحتوي على تقنيات فنية عالية ومسار سردي محكم .

كما يصدر الأستاذ يحي موسى نصين مسرحيين ، بعنوان(تحت سقف الشيطان) و (المكنسة) .

إن المشهد الأدبي في ولاية الوادي يتجه نحو انطلاقة أكثر ، ويتوجب على أبناء ولاية الوادي المبدعين المشاركة في الحياة الأدبية الوطنية بفعالية أكثر ، حتى يتعرف الشعب الجزائري على أعمالهم ولا تبقى مجرد مخطوطات تملأ الرفوف .

من أجل ذلك آثرنا تسليط الضوء من خلال هذا البحث المتواضع على شخصية من وادي سوف، تركت آثارا كثيرة يستفيد منها الدارسون في مجالات كثيرة ،وحتى لا تبقى آثاره مجرد كتابات يغطيها الغبار فيذهب عمله سدى ، ركزنا على شخصية الشيخ محمد الطاهر التليلي من خلال ديوانه الذي لا يزال مخطوطا (الدموع السوداء).

❖ **حياة الشيخ العلامة محمد الطاهر التليلي العلمية والعملية :**

بعدما تعرفنا على الأوضاع العامة التي أثرت في حياة الشيخ السياسية والاجتماعية والثقافية ، نتعرف الآن على الأوضاع الخاصة بالشيخ ؛ أي سيرته الذاتية .حيــــــــث قال الشيــــخ : (... وبعد فإن من واجبات العاقل أن يعَرِّف نفسه قبل غيره...).(1)ومن هذا المنطلق ألف الشيخ التليلي كتابه(هـذه حياتي)وقال في مقدمته : (...فعلى العاقل أن يسجل حياته بقلمه ما دام في فسحة الحياة فهـو أدرى بنفسه وأعلـم بدخيله)(2)ومن هذه الترجمة وغيرها نطل على حياة الشيخ .

أولا : اسمه ونسبه :

هو محمد الطاهر بن بلقاسم بن الأخضر بن عمر بن أحمد بن بلقاسم بن أحمد التليلي الفرياني(3) ، ولقد اشتهرت أسرة الشيخ بلقب(تليلي)وهو نسبة إلى أولاد تليل.الذين لهم في تونس بلـدة بهـذا الاسـم وقبيلة وزاوية.(4) ، وقد ذكر الشيخ أن جد الأسرة (تليل) يتصل عمود نسبه وأصل شجرته بالخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه(5).

ولد التليلي في بلدة قمــار ، بوادي سوف عند منتصف الليلـة السادسـة مـن شـهر ذي الحجـة أي قبـل عيـد الأضحى بأربعة أيام سنة 1328 هـ الموافق لسنة 1910 ميلادية.

ثانيا : تعلمه :

1ـ تعلمه في البلدة :

لقد نشأ الشيخ محمد الطاهر بين أحضان أسرة عريقة شريفة دينا ، ودنيا ، وكان أبوه بلقاسم يتمنى منذ صغره إذا تزوج وولد له ولد ذكر أن يسميه(الطاهر).

ونترك المجال للشيخ حتى يكمل مراحل نشأته ، فقال (فكنت أنا من بين أولاده الذين ولدوا قبلي ، ولقد كنت أتأرجح بين الحياة والموت في فترة الرضاع كلها ، فكنت أموت مرارا وأحيى مرارا ، إلى أن خرجت

2.1 محمد الطاهر التليلي : هذه حياتي. مخطوط . ص : 01.

3.هي نسبة إلى بلدة تونسية ، تقع في الجنوب التونسي قرب مدينة قفصة ، وقد ذكر الشيخ في ترجمته أن أسرته انحدرت إلى سوف من هذه البلدة ، والجد الذي وصل إلى وادي سوف من هذه العائلة هو أحمد التليلي .ينظر محمد الطاهر التليلي(هذه حياتي)ص : 02.

4.د/ أبو القاسم سعد الله (فقيد العلم والجزائر الشيخ محمد الطاهر التليلي(1910ـ2003)جريدة(الشروق)العدد950.(2003/12/16) ص : 15.

5. جاء في مجلة العرب .ج11و12.الجماديان سنة 2005.ص : 739.(أن الشيخ محمد الطاهر أصله عربي من نسل الخليفة أبي بكر الصديق)وهذا ما يخالف ما أثبتناه في الأصل ، وهو الصحيح استنادا إلى ما ذكره الشيخ في ترجمته لنفسه فيكون ما جاء في المجلة خطأ يقتضي التنبيه إليه .

من تلك الفترة بسلام، وقد قضيت مدة الرضاعة كلها ولم أستطع أن أتكلم بأي كلمة، بل لم أستطع الكلام ولم أقدر على إخراج الحروف من مخرجها مدة خمس سنوات كاملة، حتى ظُن أني أبكم وإن حييت حييت أبكما، وعند السنة الخامسة من العمر نطقت بكلمة هي زجر للقطة ـ أسب ـ وعندها كان سرور الجد والأم وبقية أفراد الأسرة عظيما جدا).(1)

و من عادة أهل المنطقة، أن الطفل إذا بلغ خمس سنوات يهيئه والده للدراسة في الكتاتيب، خاصة إذا ظهرت فيه عوامل النجابة، وهذا بالفعل ما وقع لشيخنا التليلي .

قال الشيخ : (... وكانت عادة بيتنا في قمار لا يختنون أطفالهم إلا في السنة الخامسة، والغالب أن يكون الختان في مفتتح تلك السنة، فكان ختاني سنة 1333هـ الموافق لسنة 1914م، وذلك في أواسط الصيف ، وبعد الشفاء من آلام الختان، والبرء من أدواء الصبيان، أدخلني والدي بإشارة جدي لأبي كتاب القرية المعروف بجامع الطلبة(2) وكان المؤدب فيه الشيخ المرحوم السيد أحمد بن حم الأخضر بن المحنط المتوفى حوالي سنة 1342هـ).(3)

وقد قضى التليلي في الكتاب سنة كاملة عرف فيها حروف الهجاء، وقرأ الحزب الأول من الأعلى إلى الناس قراءة لا حفظا، فيجب على الطفل أن لا يحفظ شيئا قبل تعلم استقامة السطر وإمساك اللوح والقلم وإتقان كتابة الحروف وكيفية وضعها، ولكن جده ـ رحمه الله ـ انتقد هذا النظام بل اعتبره(نظام يضيع معه عمر الصبي بقدر ما يخيب أمل والده فيه)(4)، وأمر بإخراج محمد الطاهر من الكتاب ليباشر تعليمه بنفسه على حسب ما يراه مناسبا .قال الشيخ(خرجت من الكتاب المذكور بأمر من جدي إذ لم ير فائدة في الاستمرار على هذه الطريقة المختارة عندها وأخذ هو على نفسه أن يباشر تعليمي مباشرة).(5)

ومن حسن حظ الفتى أن الجد كان من حفظة القرآن. وطلب من الفتى أن لا يمحو لوحه، ولا يخرج من سورة إلى أخرى إلا بعد الحفظ المتقن .

وهكذا حتى أتم الفتى حفظ نصف القرآن، فأمره جده بالعودة من جديد، وقال معللا : (يا بني إن نفسي لا تطمئن وقلبي لا يسكن وصدري لا ينشرح حتى أراك تجيد حفظ القرآن الكريم على أقل تقدير، فإذا أنت حفظت هذا النصف الذي تعبت فيه معك حفظا جيدا ومت أنا بعدها مت منشرح الصدر منثلج الفؤاد راضيا على نفسي مغتبطا بعملي معك وتعليمي إياك).(5) وحقق الفتى التليلي أمنية جده بحفظ نصف

---

1. محمد الطاهر التليلي : هذه حياتي. ص : 04.
2. مازال هذا المسجد يحمل اسم (مسجد الطلبة)حتى اليوم ، لكن أهل البلدة يطلقون عليه اسم (مسجد الغوار)نسبة لإمامه العيد غوري.
3. .4 محمد الطاهر التليلي : هذه حياتي. ص : 05..
5. المصدر نفسه. ص : 07.

القرآن حفظا جيدا، ثم أكمل الحفظ، و طلب منه في نفس الوقت حفظ المتون كمتن ابن عاشر في الفقه المالكي ومتن الأجرومية في النحو، وهكذا دام العمل حتى حفظ المتن الأول و الثاني، ولم تنته طموح الجد في تعليم الحفيد عند هذا الحد، فكلفه بقراءة متون الكتب الدراسية للمرحلة الابتدائية، وامتثل الفتى للأمر، لكن الجد لم يستطع مواصلة التعليم .قال الشيخ التليلي: (وعندها ـ بعد حفظ خمسة وأربعين حزبا من القرآن ـ عجز الجد كل العجز عن إ تمام ما كان يأمله من تأديبي وتعليمي مباشرة وعلى يده، فأرسلني إلى الشيخ الطيب بن الحاج علي بن الزا).(1)

ومن حسن حظ الفتى أن الإمام كان ملما بمبادئ علوم العربية، فاستفاد منه الشيخ كثيرا، وواصل معه حفظ القرآن، وبقي على هذه الحال سنة كاملة، ويحضر إلى جانب ذلك بعض دروس الشيخ محمد بن السائح اللقاني في النحو، وكذا دروس الشيخ العلامة عمار بن الأزعر، فتكونت لديه رغبة في تعلم علوم العربية، لهذا لازم دروس الشيح أحمد القا في النحو، لكن هذا الأخير رحل إلى تونس، ولم يبق في قمار إلا الشيخ عمار بن الأزعر ليدرسه، فلازمه حتى رحل الشيخ الطاهر التليلي إلى الزيتونة طالبا العلم و محققا أمنية جده..

وعندما توفي الجد واصل الشيخ التليلي تعلمه على يد شيوخ أهل البلدة، فتعلم مبادئ علوم العربية والدينية، وتابع دروس الشيخ عمار بن الأزعر(2) التي كان يلقيها في أشهر ثلاثة من كل سنة وهي رجب وشعبان ورمضان، وقرأ عليه الكثير من الكتب منها:

- شرح ميَّارة على متن بن عاشور في الفقه المالكي.
- كفاية الطالب الرباني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي .
- الجزء الأول من مختصر خليل في الفقه المالكي.
- شرح الرحبية في الفرائض.
- شرح الأجرومية، وقطر الندى، ومقدمة الإعراب في النحو.
- المقدمة الجزرية في التجويد.
- صحيح البخاري.

إضافة إلى كتب أخرى في التفسير والحديث والمنطق والأدب. قال الشيخ: (إلى هنا ينتهي بي عمر الكتاب والمحضرة وحياة العصا والمؤدب)(3) ... و هنا تبدأ نشأته العلمية وتلقي المعارف والعلوم.

2 ـ تعلمه في تونس

1. محمد الطاهر التليلي: هذه حياتي. ص: 08.
2. ولد عمار بن لزعر سنة 1316هـ . ينظر أنس يعقوب إبراهيم: أعلام من أرض النبوة.ط1.س1514هـ. ج 2.ص: 145/138.
3. محمد الطاهر التليلي: هذه حياتي. ص: 11.

عندما بلغ الشيخ التليلي سن السابعة عشر، رحل إلى تونس مع غيره من الشباب المتحمس للعلم والمعرفة والتحق بجامع الزيتونة1927. ومن نظامها أن يقرأ الطالب الكتب التي تعطى له كل سنة ،ثم يعيدها على شيوخه. لكن الشيخ لم يلتزم في سنتيه الأولى والثانية بالدروس التي كانت تلقى، لأنه قرأ أغلب كتبها على الشيخ عمار بن الأزعر، وقال واصفا حاله (... كنت في هذه السنة مطلق العنان غير متقيد بالرتبة ولا بالكتب ولا بالشيوخ ولا ملزم بطريقة خاصة وليس لي دفتر يوجب علي إتباع المقرر، فكنت أتخير أحسن الكتب وأفضل الشيوخ وأليق الأوقات، فكانت دراستي في تلك السنة كما أشاء وأريد وكما أحب وأختار).(1)

وهذا لا يعني أنه أضاع وقته في اللهو واللعب، بل أعاد قراءة الكتب التي قرأها على الشيخ عمار بن الأزعر، ليتقنها أكثر و زاد عليها كتبا أخرى منها :

- كتاب كفاية الطالب الرباني على رسالة ابن أبى زيد القيرواني
- كتاب شرح قطر الندى.
- كتاب عنوانه النجابة في الرسم والكتابة
- كتاب شرح الباجوري على كتاب التوحيد
- كتاب شرح المارغني على جوهرة التوحيد .
- كتاب الزنجاني في الصرف ،وقرأ أيضا شرح المجرادية في الجمل .
- كتاب شرح ميَّارة على متن ابن عاشر في الفقه
- قرأ القراءات رواية ودراية
- كتاب إيساغوجي في المنطق .

وهكذا ظل الشيخ طول السنة يتخير أحسن الكتب وأفضل الشيوخ وأليق الأوقات، وما إن انتهت هذه السنة حتى أصبح الشيخ كامل العدة وافر الأدوات، فكتب طالبا من النظارة العلمية للجامع، أن تجري له امتحانا لأنه أتم قراءة كتب السنتين الأولى والثانية فقبل طلبه.أجرى الشيخ الامتحان و نجح ،نال معها ملاحظة(حسن جدا)، ودونها في دفتره الذي انخرط به في سلك النظام الزيتوني للدراسة الدائمة .

وعندما انتقل الشيخ إلى السنة الثالثة وجد نفسه مقيدا بنظام محكم لا يستطيع الإفلات منه، فالشيوخ والكتب والتحضير والتمرين والحصص كلها تحت المراقبة الشديدة ،ولا يسع التلميذ ،إلا الالتزام التام، وهكذا حتى وصل الشيخ إلى السنة السابعة .لكن تلك السنة لم تحسب ، لأن الطلبـــــة اضربوا عن الدراسة بالجامع ،فسمي هذا العام بعام التجنيس. وقال ملخصا نتيجة هذا العام(لم تقع الامتحانات

1. محمد الطاهر التليلي : هذه حياتي. ص: 20/19.

وبالتالي لم تحسب لي تلك السنة من سني الدراسية اللازمة لي وطرحت من الحساب، فاستأنفت سنة أخرى وهي السنة المقبلة(1352 هـ - 1353)الموافق لـ : (1933 -1934)وبالضرورة كان فيها تغيير لأوقات الدروس وللشيوخ وللكتب والترتيب ولكل شيء).(1)

هذا ولم يقتصر الشيخ في طلبه للعلم على الدروس النظامية فحسب، بل كان يحضر حلقات العلم خارج الجامع ويقرأ كتبا على مشايخها أهمها :

- كتاب الجامع الصغير للسيوطي، وكانت حلقات شرح هذا الكتاب تقام بين العصـــــر والمغرب
- من كل رمضان.
- حضر الشيخ عدة دروس في التفسير.
- وقرأ قسما لا بأس به من كتاب الفروق للقرافي على الشيخ عبد السلام التونسي.
- حضر الشيخ عدة دروس في شرح الإحياء للغزالي .
- حضر دروسا في البلاغة .
- لازم الشيخ دروس مختصر خليل وشرح الرسالة بعد صلاة الصبح .
- حضر الشيخ دروسا في الفقه .
- قرأ دروس الإنشاء .

هذه أهم الدروس التي تلقاها الشيخ خارج الجامعة، ومع ذلك لم يكتف بدراسة العلوم الشرعية والأدبية ، فكان يحضر دروسا في الطب، ودروسا في مبادئ اللغة الفرنسية وغيرها .

وبهذه المرحلة الشاقة من حضور الدروس وقراءة الكتب المفيدة انتهت مسيرته العلمية في تونس.تحصل في الأخير على شهادة (التطويع). قال عند ترجمته لنفسه : (تلك هي حياتي الدراسية في تونس أمليتها عليك من دون أن أترك منها وفي كنانتها عودا إلا نثرته أمامك ونشرته بين يديك، اللهم إلا توافيه صغيرة ونتفا حقيرة تركتها تعمدا لتفاهتها أو سهوا لحقارتها) (2)

ثالثا: الشيوخ الذين تتلمذ على يدهم الشاعر :

لم يرحل الشيخ في طلب العلم إلا لتونس، وقد حمل منها كثيرا من العلوم الشرعية وعلوم الأدبية ،وذلك بعد أن حفظ القرآن الكريم على جده وعلى الشيخ الطيب بن الحاج علي، و الشيخ عمار بن الأزعر وغيرهم رحمهم الله.

---

1. 2. محمد الطاهر التليلي : هذه حياتي. ص: 25- 30.

قال الشيخ في آخر ترجمة لنفسه : (وهذه قائمة لأسماء بعض شيوخي الذين أخذت عنهم القرآن والعلم واستفدت منهم فوائد علمية سواء في قمار أو في تونس داخل جامع الزيتونة وتحت نظـــــامه أو خارج جامع الزيتونة وفي تونس ، ولم أقصد غير جمع الأسماء فقط في هذه القائمة من دون ذكر الفوائد أو وفياتهم أو ترتيبهم أو ذكر شيء من تاريخهم اللهم إلا في القليل النادر)(1) ونتطرق لأسماء الشيوخ الذين تتلمذ الشيخ الطاهر التليلي على يديهم ، بدءا بشيوخ قمار ثم تونس ، على النحو الأتي :

1ـ شيوخه في بلدة قمـــــــــار :

ــ الطيب بن الحاج علي بن الزا : هو الشيخ المؤدب الطيب بن الحاج علي بن محمد بن الزا ، شيخ قضى أكثر عمره في تعلم مبادئ القرآن ، ودرس على يد علماء كثر منهم الحاج أحمد هالي ، والشيخ محمد بن السائح اللقاني .توفي في جوان 1969.م.(2)

ــ أحمد بن حم الأخضر المحنط

ــ الأخضر بن عمر بن ميدة

وهؤلاء الثلاثة هم شيوخه في حفظ القرآن الكريم ، أما بقية العلوم الأخرى كالفقه واللغة فقد درسها على عدة مشايخ نذكر منهم :

ــ محمد البرية الزوبيري : هو الشيخ محمد بن أبي القاسم الزبيري المعروف بـ(سي محمد بن البرية)ولد سنة 1226هـ الموافق لـ 1874م درس على يد أحمد هالي وعلى يد الشيخ عمار بن لزعر . قضى أكثر عمره في تعليم القرآن الكريم .وتوفي سنة 1949م .(3)

ــ محمد اللقاني بن السايح ، محمد العزوزي بن الصادق الحوحو ، أحمد بن محمد القا ، عمار بن الأزعر وهؤلاء الثمانية هم أبرز شيوخه بقمار ، فمنهم تعلم وعليهم أخذ ، خاصة جده ميدة والشيخ عمار بن الأزعر.

2ـ **شيوخه بجامع الزيتونة** : وهم على قسمين :

أ ــ شيوخه في تجويد القرآن : ونذكر منهم :

ــ مختار المؤدب.

ــ محمد ألجديدي البترني الكتبي.

قرأ الشيخ التليلي على هؤلاء الشيوخ وغيرهم فن القراءات رواية ودراية ،

---

1. محمد الطاهر التليلي : هذه حياتي. ص : 82.
2. 3. محمد الطاهر التليلي : مجموع مسائل تاريخية متفرقة تختص بسوف وأهلها في القديم والحديث وما يتعلق بصحراء سوف من قريب أو بعيد .ص : 104- 99. مخطوط.

ب ــ شيوخه في العلوم الأخرى :

لم يول الشيخ اهتماما كبيرا بعلم القراءات، وإنما أخذ منه الضروري الذي لا يتم الواجب إلا به ،وركز اهتمامه الأكبر على العلوم الأخرى كالفقه والتاريخ والأدب، وعدد الشيوخ الذين أخذ عنهم هذه العلوم وهم 49أستاذا ، نذكر منهم :

ـ محمد البشير النيفر : من عائلة عريقة في العلم والتعليم بالزيتونة . ولد في جمادى الأولى 1306هـ، كان ينتمي للطريقة التجانية، وقد ارتقى في درجات العلم والتوظيف إلى أن صار مفتيا مالكيا وقاضيا ، وكان يقرئ الفقه والتفسير. توفي في أول رجب 1349هـ الموافق لـ أوت 1974م.(1)

ـ محمد الطاهر بن عاشور: هو محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور إمام ضليع في العلوم الشرعية واللغوية والأدبية ، ولد سنة 1296هـ ، تحصل على شهادة التطويع من جامع الزيتونة، ثم عين مدرِّسا به. توفي سنة 1393هـالموافق لـ أوت 1973م (2)

ــ محمد الزغواني ــ الشاذلي بن الضيف

ــ محمد العربي الدرعي ــ إبراهيم النيفر

هذه بعض أسماء شيوخه في جامع الزيتونة. أما خارج الجامع ، وقد كان الشيخ منضبطا في حضور المحاضرات والدروس وقراءة الكتب ثم يعيدها على شيوخه، ومنهم :

ــ الشيخ العربي الكبادي

ــ محمد بن عمار التوزري .

هؤلاء جميعا هم شيوخ محمد الطاهر التليلي الذين درس عنهم في مسقط رأسه بقمار، وجامع الزيتونة بتونس، كما ذكرهم في ترجمته.

ثالثا : ثقــافته :

إن المتأمل لحياة الشيخ من بدايتها يدرك تعدد معارفه وتنوعها، وتبرز ثقافته الدينية والأدبية والعلمية واضحة جلية.فمنذ صغره كان يحفظ القرآن عن جده وشيوخه، ويحضر دروس الأدب، وفي وقت فراغه بتونس يهتم بالعلوم الأخرى كالطب والفلك وغيرهما .

ــ عنايته بعلوم القرآن :

يعتبر الشيخ الطاهر التليلي من الأعلام المعاصرين الذين اهتموا بالدراسات القرآنية في الجزائر،

2.1.محمد الطاهر التليلي : مجموع مسائل تاريخية متفرقة تختص بسوف وأهلها في القديم والحديث وما يتعلق بصحراء سوف من قريب أو بعيد.104/103.- 101.

ويعود ذلك بالأساس إلى دراسته في جامع الزيتونة بتونس، واعتناقه مبادئ الإصلاح من زعماء جمعية العلماء المسلمين بقيادة الإمام عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي، وكذا تعمقه في دراسة القرآن والتاريخ الإسلامي.يقول الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله عن الشيخ التليلي(...فهو عارف بالتفاسير ومعاني القرآن الكريم، وأصول الفقه وفروعه والمذاهب الإسلامية، وعلم الكلام والحديث الشريف ، ومعرفته هذه ليست معرفة نقلية تقوم على الحفظ والذاكرة وحدهما كما كان حال علماء عصر التخلف، ولكنها معرفة عقلية أيضا .ذلك أن الشيخ لا يقلد في أمور كثيرة ، وهو يظهر من الاستقلال الفكري ما قد يوصله إلى درجة المجتهدين).(1)ومن خلال تتبعنا لمسيرة الشيخ التعليمية، يكون من الطبيعي الاهتمام بالقرآن وعلومه، فقد قضى حياته في خدمة العلم والتأليف، وتفرغ منذ تقاعده عن العمل الوظيفي سنة 1972للبحث ودراسة القرآن، فتارة تجده متعبدا تاليا لآيات القرآن بتدبر، وتارة أخرى يكون باذلا وسعه في التكرار والاستظهار، ومن غير هذا وذاك فهو منقب وباحث ودارس لمختلف المعارف القرآنية ، ويستعين بالدراسات المتخصصة القديمة والحديثة.

ـــ عنايته بالأدب :

كان الشيخ الطاهر التليلي منذ صغره مولعا بقراءة كتب الأدب ، وقد أشبع رغبته بالكتب التي قرأها في جامع الزيتونة عندما كان طالبا ، ولم يكتف عند هذا الحد بل كان يتبادل الكتب مع أصدقائه فترسل إليه رزما من البقاع المقدسة ، فينهل الشيخ من علمها الوفير.يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله (...فهو حافظ للمفردات اللغوية وراوية للشعر العربي في جميع عصوره).(2)

وقد ظهرت عنايته بالأدب من خلال تعليم التلاميذ الذين كان يدرسهم معجم غريب الألفاظ ، ونظمه لقواعد الإعراب حتى يسهل على التلاميذ حفظها. فالاهتمام بالنشء من أولويات الشيخ وسوف نتطرق إليه بالتفصيل في الجزء الثاني من البحث، ولم يتوقف عند هذا الحد بل له مؤلفات مخطوطة حول الألفاظ العامية في سوف وإيجاد مرادفات لها بالفصحى .

ويعتبر ديوان (الدموع السوداء)و الذي هو موضوع دراستنا، دليلا كافيا على اهتمام الشيخ التليلي بالأدب شعره ونثره، وتجدر الإشارة إلى أن المؤلفات الدينية للشيخ جلها منظومة، وهذا يبين توجهه الديني والأدبي.

ـــ تطلعه إلى العلوم الأخرى :

كان الشيخ التليلي من الرجال الموسوعيين الذين ابتلاهم الله بحب الاطلاع، قال الشيخ(وبعد فإن الله

---

1. 2.(فقيد العلم والجزائر) الشيخ محمد الطاهر التليلي 1910ـ 2003.ص: 15.
3. د/أبو القاسم سعد الله : أفكار جامحة. المؤسسة الوطنية للكتاب .ص: 204.

ابتلاني بحب الاطلاع والمطالعة واكتشاف المجهول والجري وراءه والتنقيب عليه)[1] حيث كان يحضر دروس الأستاذ عثمان العكاك صاحب التأليف التاريخي، فتكونت لديه رغبة قوية في ضبط المسائل التاريخية وتأريخ الأحداث .و تطرق الشيخ لعدة مسائل تاريخية تختص بسوف وأهلها في القديم والحديث، كتراجم بعض الأعلام وأصول وأنساب القبائل والعشائر السوفية ،وقد استفاد منه الدكتور أبو القاسم سعد الله عند تأليفه كتاب (تاريخ الجزائر الثقافي).[2]

كما اطلع الشيخ على علم الفلك ،و كتب فيه رسالة سماها (الدرر الملكية في الدراري الفلكية) ضمنها فوائد خاصة بعلم النجوم وكل ما يتعلق به، من معرفة الأوقات، والأيام، والشهور، والساعات ،وكل ما من شأنه أن يعين المسلم على أداء الواجبات، كما حذر الشيخ من استعمال هذا العلم ــ علم النجوم ـ لأغراض وأهداف غير نافعة قد تؤدي للكفر والتشكيك في الخالق ــ جل وعلا ــ. فكانت رسالة (الدرر المكية في الدراري الفلكية) على صغر حجمها جامعة لفوائد غزيرة تنبئ عن علم واسع للشيخ وسهولة وفهم مضمونها.

ومن العلوم التي بحث فيها الشيخ أيضا ،علم الطب فكان أيام طلبه للعلم بتونس يحضر دروس الطب التي يلقيها بعض الدكاترة يقول الشيخ :(... حضرت دروسا في الطب على الحكيم دنقزلي والحكيم محمود المطاري ...)[3].هكذا يبدو الشيخ منذ صغره مولعا بحب المطالعة والاطلاع .

إن اهتمام الشيخ بالكتاب والسنة جعله يحكم عقله ويشكر الله على هذه النعمة .حيث يقول :

مصباح عقلك فاحذر أن تحطمهُ ... بين العواصف فهو النـــــور تفقدهُ
نوِّر به حيث يرضـــــى الله مانحهُ ... واشكر له فهو في الظلمـــاء موقدهُ[4]

بعد هذه السيرة العطرة التي قادتنا للتعرف على علم من أعلام الجزائر، الذين بذلوا جهدهم تجاه أمتهم ودينهم ووطنهم بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة ،فكم من جاهل علموه ، وكم من ضال أرشدوه ،لقد كانوا حقا ربانيين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ولا يرجون من أحد جزاء ،وإنما سعادتهم في تبليغ الرسالة وأداء الأمانة، و أتموا أمنيتهم بالتعليم والتوجيه والإرشاد لا يبالون بالدنيا أقبلت أو أدبرت، وبالمعيشة رقت أو اخشوشنت. وإليك ملخص حياته كما نظمها في أبيات فقال:

حياتي كلها حصرت في عـــشر ... من الأحداث في قلـــــق وعسر
ولا أعني الصغائر في حيــــاتي ... فتلك كثيرة من دون حصــــــر

1 . محمد الطاهر التليلي: الدرر الملكية في الدراري الفلكية.مخطوط .ص: 01.

2 . أنظر د/ أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي. دار الغرب الإسلامي بيروت .ط1 س1998.ج 2- 5- 8.

3. محمد الطاهر التليلي : هذه حياتي. ص: 27.

4ديوان الدموع السوداء .ج1.ص: 57.

فمنها خمسة درت ومــــــرت	أتت أكلها من دون نكــــــــــر
ومنها خمسة كرت وفــــــرت	وخلفت الندامة بعد خســــــر
فخمستها التي درت فـــحفظي	لقرآن توسع فيه فكـــــــــري
وتطويعي وتعليمي وحـــــجي	ونيلي للتقاعد عند كبـــــــري
وخمستها التي كرت وفــــرت	وكرهت الحياة لنفــــــــس حر
زواجي دون مشورة لأهلـــــي	بأول زيجة وقعـــــــت في صغري
هروبي من مجاورتي وعـــــوني	لأهلي والتبـــــــــاعد دون عذر
وبنيان المساكن فـــــــوق داري	لمن لم يرض إيوائي وخيـــــري
وبيعي دون مسبغة لنـخلـــــي	بإجحاف وبخس بيـــــــــع غر
وأفضعها ذهاب الـــــرأي عني	ونسيـــــــــــاني لقرآن وذكر
فتلك وهذه يا صاح عـــــــشر	تفوق سواها في خير وشـــــــر
وقد ألقت أواخرها لحـــــــافا	على تلك التي وسمـــــــت بشر
لحافا أسودا ســـــــود الليـــالي	قضيت بطيه أيام عمــــــــري
فلا تسأل سوى هذه القـــــــوافي	على تلك الحوادث أي ســــــفر
ولا زيدا ولا عمرا وبكـــــــــرا	ولا من يدعي أخبار دهـــــــري
فلا الأسفار تحمل كل علـــــــم	ولا الأخبار مرجع كل أمـــــــــر
فذاك ملخص لحياة شخــــــص	قضى أيامه في غير يســــــــــر(1)

رابعا: نشاطاته:

تأثر الشيخ بالحركة الإصلاحية في قمار سنة 1931 على يد شيخه ومعلمه عمار بن الأزعر، وتزامن ذلك مع إنهاء الدراسة في الزيتونة، فتحددت يومئذ مرجعيته الفكرية والسياسية، ووجد أن خير وسيلة لتحقيق طموحه العلمي والإصلاحي هو التعليم .فتنقل عبر الولايات مدرسا ومعلما ومصلحا. بعد أن عجز عن ذلك في بلدته .وكانت تلك بداية المسيرة التي دامت نحو 37سنة دون انقطاع .وبدأ الشيخ بالتدريس في قرية(كمبيطة)ببجاية سنة1935ودامت عدة شهور، تعرض أثناء التدريس لمضايقات، انتهت بمغادرته والعودة إلى قمار.

ـ التدريس بمدرسة النجاح بقمار:

وهي فترة العطاء بالنسبة للشيخ التليلي، حيث تزامنت مع فترة شبابه، ورغبته واندفاعه لتقديم تجربة

---

1. ديوان الدموع السوداء .ج1.ص: 57.

رائدة في التعليم مسايرة للحركة الإصلاحية منذ الأربعينات حتى الاستقلال .

وقد أمسك الشيخ التليلي بزمام الإدارة فيها رغم الظروف السياسية الصعبة ، وكثرة الاعتقالات ، حتى أشاد بدوره زائر تونسي لقمار : (زار جنوب الجزائر سنة.1952...ثم زرنا المدرسة القرآنية التي يديرها المثقف الشيخ الطاهر التليلي المحرز على العالمية من الكلية الزيتونية العامرة ، وهو روح المدرسة وعمودها الفقري ، جمع إلى إدارتها التدريس بها وتخريج المثقفين والمثقفات ، وطالما راودته المدرسة الحكومية على إعطاء ساعة بالعربية ففضل مدرسته على مدرستهم...)(1)

وقد تولى الشيخ التليلي إدارة المدرسة في الفترة ما بين 1939ـ 1261 ، فجمع بين الطريقة التقليدية والطرق التربوية الحديثة التي تعلمها من مشايخه في جامع الزيتونة(2) ، ويجتهد الشيخ التليلي مع زملائه في تكييف مناهج جمعية العلماء المسلمين وفق الواقع التعليمي في المدرسة وقدرات التلاميذ ، وكان يساعدهم بانتقاء مفردات لغوية تعينهم على كتابة الإنشاء والتمارين الكتابية التعبيرية(3) ، كما كان يحثهم على المطالعة التي تكون شخصيتهم.قال في نظم بحور الشعر القديمة المعروفة :

بحور الشعر في القدماء تجـــري ... تُحد بستة من بعــــد عشر
طويل ووافر وبسيط رجـــــز ... مديد كامل وخفيـــف بحر
سريع مضارع هزج ورمـــــل ... ومنسرح ومقتضـــــب لأمر
ومجتث ومحدث والمتقـــــارب ... فتلك بحورنا ياصـــاح فادرِ(4)

وقد استعمل الشيخ بحر الرجز كثيرا في منظومته العلمية ، خاصة المتعلقة بالقرآن الكريم وهذا كعادة سلفه .وقال في نظم الجمل التي لها محل من الإعراب :

فجمل إن أولت بمفـــــــرد ... لها محل فاعرفنْها تهتـــــــد
عددها تسع كما سياتـــــــي ... نظمتها للحفظ في أبيـــات
كجملة الحال وجملة الخبـــــر ... وجملة الوصف كذاك تشتهر
وجملة المفعول و التابـــــع ما ... لها محل والجواب علــــــما
لفعل شرط جازم وما يضـــف ... إليها مثل حيث أنت لاتقـــف
وجملة المستثنى والمســــــد له ... كمن تولى بعد إلاَّ فانتبــــــه(5)

1.محمد صالح الجابري : النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900ـ1962الشركة الوطنية للنشر و التوزيع د ط. س1983.ص : 43.

2.علي غنابزية : الشيخ الطاهر التليلي رائد التعليم العصري في مدرسة النجاح بقمار ..موضوع ألقي في الندوة الفكرية الرابعة بعنوان : العلامة المصلح محمد الطاهر التليلي. ص : 120.

3. أنظر كتاب : محمد الطاهر التليلي : زهرات لغوية مقتطفة من كتاب الألفاظ الكتابية للهمذاني..مخطوط.

4.محمد الطاهر التليلي : رسالة المقتطفات النظومة من مؤلفاتي المعلومة.مخطوط س 2001.ص : 14.

5.المصدر نفسه . ص : 14.

ويظهر مما سبق توسع ثقافة الشيخ وتنوعها .

ـ إدارة المعهد الإسلامي بالوادي :

تولى الشيخ التليلي الإدارة والتدريس في المعهد الإسلامي بالزاوية القادرية بالوادي سنة1964ثم قدم استقالته بعد مدة وانخرط في سلك التعليم التابع لوزارة التربية.

ـ التدريس في مدارس الحكومية :

تنقل الشيخ بين عدة مدن هي العاصمة و عنابة و تقرت والوادي يدرس أبناءها مدة سبع سنوات ، وانتهت فترة العطاء العلمي سنة1972بالتقاعد المسبق، تفرغ الشيخ بعدها للتأليف والبحث والعبادة ، فاتحا بذلك حياة علمية جديدة .

خامسا : مواقفه الإصلاحية :

أ ـ في المجال الاجتماعي :

رغم الظروف السياسية و الاجتماعية السيئة في المنطقة بسبب ضغط المستعمر ومحاولته طمس معالم الشخصية الوطنية ، إلا أن الشيخ التليلي لم يفشل ولم يتوان في نشر ما تعلمه من ثقافة ودين وعلم وأدب. فقد كان يحدث نفسه يوم عودته من تونس وقائلا : (سأرجع إلى بلدي فأخدمها وأنشر فيها كل ما تعلمته وتلقيته من ثقافة ودين وعلم وأدب كما خدمها غيري وعمل لها سواي من الشيوخ والعلماء والمحدثين، وقلت ليس تعليمي إلا وسيلة إلى النهوض بالبلاد وإنبات النبات الحسن من الشباب الصالح المصلح والنخبة المختارة والزبدة والعصارة الذين بهم تسموا البلاد وعليهم تعتمد –بعد الله – وما أنا إلا ابن من أبنائها). (1)

وقد تحول حديث النفس إلى حقيقة في أرض الواقع ، فالشيخ قضى حياته في نشر العلم الصحيح ، مرغبا الناس في تحصيله، كما قدم عمره الطويل العامر بسعيه الدؤوب لمحاربة البدع والخرافات وكل ما يعوق تحرر الأمة ورقيها. و أبرز مواقفه الإصلاحية تكمن في نشاطه الإصلاحي التعليمي للناشئة بمدرسة النجاح في أواخر الثلاثينيات، حيث كان الشيخ التليلي مديرا لها ومدرسا فيها . وقد استطاع أن يحقق مواقف إصلاحية تاريخية منها :

- تربية الشيخ لتلاميذه في المدرسة على كريم الأخلاق وشرف الطباع وعلو الهمة .
- سعي الشيخ في تربية تلاميذ ه على التوحيد والتحذير من الشرك ودراسة الفقه والتاريخ

الإسلامي، وإحياء اللغة العربية ، و مواجهة الاستعمار بأفكاره الهدامة الرامية إلى تجهيل الشعب الجزائري

1. محمد الطاهر التليلي :هذه حياتي. ص: 31/30.

وهذا بالدعوة إلى العقيدة الصحيحة ، ومحاربة البدع والخرافات.

- إنتماء مدرسة النجاح إلى جمعية العلماء المسلمين ، و تطبيق منهجها في الإصلاح والسير وفق توجيهاتها ، ومن المعروف أن جمعية العلماء تعمل من أجل الإصلاح الديني و الاجتماعي ، للنهوض بالبلاد ثقافيا واجتماعيا.

ب ـ في المجال الديني :

ويمكن أن نجمع مواقفه الإصلاحية في :

1. سعيه الحثيث في الدعوة إلى الحق ونبذ الابتداع ،
2. حث المتعلمين ـ صغارا وكبارا ـ على حفظ القرآن الكريم.
3. سفره إلى قرية كمبيطة ببجاية للتدريس في مدارس جمعية العلماء بطلب من المراقب العام للجمعية وقتئذ وهو الشيخ محمد بن خير الدين ، أين تسلم شيخنا وظيفة الإمامة والخطابة بالمسجد الجامع ، وقد انتهج الشيخ في دروسه هناك منهج الإصلاح والتجديد لولا تدخل الاستعمار الذي أوقفه وسجنه.
4. توليه منصب الإمامة والخطابة بالمسجد الكبير ، حيث حل محل الشيخ عبد القادر الياجوري وذلك سنة 20 محرم 1357 هـ الموافق لـ : 18 ماري 1938 م ، وقد رتب الشيخ برنامجا علميا جامعا ، فجعل دروس التفسير ليلة الأحد وليلة الاثنين ، ودروس الأحاديث النبوية ليلة الثلاثاء والأربعاء ، ودروس الفقه ليلة الخميس والجمعة . أما الخطب فإنها تدور حول التصفية والتربية أو كما عبر عنها الشيخ .بقوله (التخلي والتحلي)[1] يعني بذلك التخلي عن العادات الجاهلية والتحلي بالسنة النبوية ، ومنهج التخلي والتحلي يعبر عن مواقفه الإصلاحية في هذا المجال .

سادسا : وفاته :

بعد حياة ملؤها الجد والنشاط في خدمة العلم ، تعلما وتعليما ودعوة إلى الخير ، حتى اعتلت صحته في سنواته الأخيرة ، فألزمته الفراش ، وفاضت روحه الطيبة مساء ليلة الأربعاء 18 رمضان1424هـ.الموافق 12نوفمبر 2003 ، رحمه الله.مخلفا وراءه سبعة أولاد : ابنين وخمس بنات.

---

1. محمد الطاهر التليلي : هذه حياتي. ص : 52.

❖ **أخلاقه وأقوال العلماء فيه :**

ـ أخلاقه :

لقد تعلق قلب الشيخ الطاهر التليلي بالقرآن الكريم ، وصفت نيته من شوائب الشرك وحب الظهور ، وانعكست في أخلاقه .وقد تحدث الشيخ محمد التيجاني زغودة (1)ـ رحمه الله ـــ عن كثير من أخلاق الشيخ العالية التي وهبها الله إياه ، في كلمة ألقاها بمناسبة الندوة الفكرية الرابعة : العلامة الشيخ عبد القادر الياجوري يومي 27/26 ديسمبر 2004 والتي خصصت لدراسة سيرة وفكر وأثار العلامة الشيخ محمد الطاهر التليلي بمناسبة الذكرى الأولى لوفاته ـ رحمه الله ـ .

لقد عُرف الشيخ محمد الطاهر التليلي بمزايا وأخلاق عالية ، و أعطاه الله ذاكرة أمينة ، وحافظة واعية وذكاء حادا ، وصورة نافذة ، وعقلا راجحا وجدية صارمة ، لا تعرف العجز ولا الخمول ، و ترسخت هذه الفضائل والعطايا الربانية في شخصه ، فكان يعتبر نفسه حامل أمانة وصاحب رسالة.

كان الشيخ صادقا مع نفسه ومع الناس ، حريصا على ما ينفعهم ويرفع شأنهم ، وخطاهم دينا ودنيا ، فصرف عمره الطويل العامر في نشر العلم الصحيح والحث على تحصيله ، حتى اتصف بعلو الهمة والصدق في القول والإخلاص في العمل والنفور من حب الظهور.

كان من صفات الشيخ الحميدة الثبات على المبدأ والعقيدة ،لا يساوم ولا يزايد في ذلك مهما كلفه الأمر ومهما ناله من أذى ، فهو يصبر ويحتسب ولا يشكو لأحد ، وإنما يبث آلامه وأحزانه لله وحده . وربما جاشت نفسه في بعض الأحيان عندما يشتد به الأذى ، فيلجأ إلى القلم يودعه بعض أشجانه وأحزانه في قوالب شعرية .

وكان من الفضائل المشهود له بها ، أنه لا يذكر أحدا بسوء في مجلسه وإن كان من ألد خصومه الكائدين له ، ومن فضائله الملموسة أنه لا يحب أن يكون لأحد عليه يد أو فضل ، وإن كان ذلك فهو يجازي عليه بما يكافئه من شكر وتقدير ، فيرسل الاعتراف من رصيد الشعر ، لأن الشيخ لا مال له سيظهر ذلك من خلال دراستنا لديوانه (الدموع السوداء).

ومن فضائل الشيخ الورع والزهد في متاع الدنيا وزينتها ومناصبها ، حتى أنه قد عرضت عليه مناصب عديدة سامية فرفضها وعلل ذلك بقوله(... جريا على عادتي في الهروب من الرسميات ، ومن الظهور في المجتمعات أو من بين الشخصيات) (2) .وكان من صفاته التي أنسها من عرفه حق المعرفة – نكران

1.ولد محمد التجاني زغودة بقمار سنة1917.

2. محمد الطاهر التليلي : هذه حياتي. ص: 52.

الذات، فهو مع علمه وفضله وتدينه وسلفيته ووطنيته الصادقة لا يتظاهر بذلك ولا يتبجح به بل لا يرى لنفسه فضلا على غيره.

ومن فضائله إدراكه العميق لقيمة الوقت وأهميته في حياة الإنسان، وحرصه على استغلاله فيما ينفع أو يفيد، حتى أنه كان يستثقل زائره القادم لمجرد الحديث والثرثرة ، ويرى ذلك الزائر جانيا ، قاتلا لوقته، مبعدا إياه عن التأليف أو التصنيف، أو المراجعة أو التنقيح ، أو الذكر أو التأمل، ومع ذلك فإنه يؤثر الصمت عن الكلام فيما لا يهمه ولا يعنيه، وجامع خصاله إخلاصه التام ونصحه لكتاب الله عز وجل وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ـ أقوال العلماء فيه :

عاش الشيخ منعزلا فلم يخالط الناس إلا أقرانه الذين ماتوا قبله، ولم يعرفوا عنه الجديد.كما أن الشيخ التليلي ومنذ تقاعده سنة 1972 م اعتزل في بيته، ولم تكن له حلقات علم يستفيد منها الجيل الجديد ، ولا نشر مؤلفاته فيعرفه البعيد . هذا ما جعل أقوال العلماء قليل إلا ما كتبه بعض محبيه ، الذين عرفوا قدره وقالوا فيه كلمة الحق التي يجب أن تقال.

يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله :(لو كان المرحوم الشيخ التليلي قد عاش في عصر بعيد عنا، عصر ازدهار الحضارة العباسية أو الأندلسية لكان ربما من كبار الموسوعيين الذين لا يُشق لهم غبار، فقد جمع الذكاء الخارق والذاكرة الحية والحافظة التي لا تعرف الكل ولا النسيان إلى آخر لحظة من حياته)(1).

وقال أيضا: (وإذا كنا نسمع ونقرأ أن بعض العلماء القدامى قد ألف موسوعات بلغت المجلدات الضخمة فظننا أن الشيخ التليلي كان في مقدوره أن يتفوق على بعضهم فيما أنجزوا من الأعمـــال ، مع ابتكار وتجديد لو توفر له ما توفر لهم من مكتبات و)(2)

وقال أيضا في تقديمه لكتاب منظومات في مسائل قرآنية من نظم الشيخ :(وقبل أن نذكر هذه التآليف نقول : أن الشيخ له اطلاع على الثقافة الدينية والمعرفة العربية ، غير أن هناك ميدانين قل من يبزه فيهما وهما المعرفة الدينية والمعرفة الأدبية. فهو عارف بالتفاسير ومعاني القرآن الكريم وأصول الفقه وفروعه والمذاهب الإسلامية وعلم الكلام (3) والحديث الشريف . ومعرفته هذه ليست معرفة نقلية تقوم على الحفظ والذاكرة وحدها كما كان حال عصر التخلف ، ولكنها معرفة عقلية أيضا ، ذلك أن الشيـــخ لا

1. الدكتور أبو القاسم سعد الله . تصدير الندوة الفكرية الرابعة تحت عنوان : العلامة المصلح محمد الطاهر التليلي.ص: 01.
2. المرجع نفسه .ص: 01..
3. يعني علم التوحيد والعقيدة ، أنظر : د/أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي . ج2.ص: 91.

يقلد في أمور كثيرة وهو يظهر الاستقلال الفكري ما قد يوصله إلى درجة المجتهدين رغم انه لا يدعي ذلك)(1).

ومن محبي الشيخ ـ أيضا ـ والذين عرفوه حق المعرفة الشيخ محمد التجاني زغودة ـ رحمه الله ـ يقول عن الشيخ : (هو الفقيه النبيه العالم الموسوعى الأستاذ الشيخ محمد الطاهر التليلي). (2)ويقول أيضا : (فقد أريد لي أن ألقي كلمة عن شيخ الجماعة شيخ الشيوخ وطود الرسوخ العلامة الموسوعي فقيدنا وفقيد التدقيق والتحقيق الشيخ محمد الطاهر التليلي تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته)(3)..

ومما قيل في رثاء الشيخ العلامة محمد الطاهر التليلي ،ما نظمه الشاعر الجزائري : أحمد الطيب معاش ، و سمى قصيدته بـ :(وداع ورثاء النضو العليل للعلامة محمد الطاهر التليلي) وإليك أبياتها :

لقد قصرت في حق التليـــلي	فلم أنصفه حتى بالقليـــــل
وقد ألغيتُ عقدا بين شعـــري	وبيني منذ سافر جلُّ جيلـــي
وكنت نذرت إهدائي رفاقـي	وأشياخي مديحي أو عويلـــي
وغادرنا المحاضر والمربـــــي	وجامع كل أوصاف الجليـــل
فلم أسمع بخطب أو مصـــاب	ولم أرسل من المنفى رسولـــي
فـ(طاهر) واد سوف كان فـذا	بعلم أو حديث أو أصول أصول
قضى دهرا يصارع ظلم دهـــر	وأهوال (المعمِّر) والمغـــــول
ونابُ الفقر ينهش منه عظـــما	ونصل الغدر يفتك بالعليـــــل
فهاجر كالرسول لجمع علـــم	برغم الآسرين أو البديـــــل
فتُوِّج بانتصار في اغـــــتراب	وفاز من المعارف بالجزيـــــل
وعاد لـ (سوفه)في سوق رمل	ليشري أو يبيع برغم قـــــيل
ولما لم ينل حظا بمـــــــال	تحول للمقفع والخليـــــــل
يصنف أو يصفف أو يصـــلي	ويخلو للنوافل والهليـــــــل
وقبل القرن ناطح كل قـــرن	وعاش مصارعا كل (الوعول)

1. د/أبو القاسم سعد الله : أفكار جامحة.ص:204.
2. محمد التجاني زغودة :الشيخ الطاهر التليلي كما عرفته .ألقي في الندوة الفكرية الرابعة بعنوان العلامة المصلح محمد الطاهر التليلي.ص:07.
3. المرجع نفسه . ص:07.

ولم يوقفه عن حلبات لكـــمٍ	سوى غزو الهزال والنُّحـــــــول
وحاور بعض أقطاب كبـــار	كسعد الله أو وفد نزيـــــــــل
أنجب للجزائر خير جيـــــل	وفاخر كل غيل بالشبـــــــول
وفي هذا الشتاء تغيب شمــس	ويصبو فرقد نحو الرحيـــــــل
ويترك مثل (جاحظه) جبـالا	من التصنيف والعلم الأصيـــــل
في قطب بعلم أو بشعـــــــر	سلامَ شعر من نِضو عليـــــــل
فقد فقدت جزائرنا عظيمـــا	صبورا في الشدائد والمهـــــول
إذا قصرتُ في حق لجهلــــي	بأصداء الرحيل أو العويـــــل
فجزء من حياتي في اغتــراب	وجزء من منامي أو مقيـــــــل
وأضناني التطبب و التـداوي	كأني والسقام بلا عقـــــــول
وتجمعنا مطامع سـوق طــب	فنصبح للتجارب كالحقـــــول
إذا هان العليـل أو (الكوبـايُ)	سيلحق النطاسي بالعميـــــــل !
وإن غاب الضـمير وغر مـال	تزول مناقب الماضي الطويـــــل
وعذرا يا إمامــي تاه مُهــري	وجنَّح طائري واهتاج غـــــولي
وعفوا يا مربــي بعض جيـلي	كـ (سعدٍ) أو سعيـــد أو خـليل(1)

1.قصيدة ألقاها الشاعر الجزائري أحمد الطيب معاش في تأبين الشيخ التليلي عند انعقاد الندوة الفكرية الرابعة تحت عنوان العلامة المصلح محمد الطاهر التليلي .وسماها (وداع ورثاء النضو العليل للعلامة محمد الطاهر التليلي).

❖آثاره :

ألف الشيخ التليلي مجموعة من الأعمال التي ما تزال معظمها في لحافها الأسود كما قال في الديوان (الدموع السوداء)حبيسة خزانته ،ولولا محاولات وحيل الدكتور أبو القاسم سعد الله لما تسنى لنا دراسة هذا الديوان ولما تعرفنا على سيرته الذاتية.وإليك أعمال الشيخ :

- **آثاره الخاصة بالقرآن الكريم :**

ـ المطبوع منها :

1 ـ المدخل في غريب القرآن :

هو أحد مؤلفات الشيخ المنظومة ، وفيه تتبع المفردات الغربية التي وردت في القرآن الكريم مرة واحدة ، دون أن يلتفت إلى صيغة الكلمة ،أو من شكلها ، أو وزنها. وجمعت هذه المنظومة (445 بيتا) من بحر الرجز ، واعتمد الشيخ في كتابة هذا النظم على (قاموس الألفاظ والأعلام القرآنية لمحمد إسماعيل إبراهيم ،ورتب نظمه على حروف المعجم بدء بما أوله همزة إلى ما أوله ياء ،حتى انتهى من تبيضيه في يوم 04ذي القعدة 1402 هـ .

2 ـ حجر المخلاة في مجالس المحاجاة :

وهو من مؤلفات الشيخ المنظومة و المطبوعة ،يتناول هذا النظم مسائل تتعلق بضبط القرآن ورسمه وهي كثيرا ما تطرح بين القراء و الطلبة المبتدئين ، وحرص الشيخ على نظمها لتكون للمبتدئين تبصرة وللشيوخ تذكرة ..وضمنها في 1307بيتا ، من بحر الرجز .

و اعتمد الشيخ التليلي في كتابة هذا النظم على ما طرح في مجالس المحاجاة ، وعلى بساط البحث والحجاج ، مع القراء والطلبة المتقنين .

3 ـ تلخيص الأرقام والأعداد لما وجد في القرآن من المواد :

هذا المؤلف هو آخر مؤلف مطبوع للشيخ التليلي ،وهو عبارة عن نظم لكلمات أوأعلام وردت في القرآن الكريم .ولما كان النظم جامعا للكلمات ، قسمه الشيخ إلى قسمين خصص الأول للكلمات والثاني للأعلام ، وقد جمع فيه (589) بيتا من بحر الرجز .

هذه هي مؤلفات الشيخ المطبوعة ، وقد جمعت في كتاب واحد بعنوان (منظومات في مسائل قرآنية) قدم لهذا الكتاب الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله ،والذي قال عن مؤلفات الشيخ عموما وعن هذه المنظومة خصوصا (الشيخ إذن مجموعته من الأعمال التي ما تزال حبيسة خزانته ما عدا هذا الذي نقدمه

إليك ، وقد كاد هذا العمل أيضا أن يبقى حبيسا لولا حيلة استعملناها معه نرجو أن يبررها قصدنا النبيل ، وهو إفادة القراء وإشاعة المعرفة بين الناس). (1)

ــ المخطوط :

وسنذكر مؤلفات الشيخ المحفوظة و التي تتعلق بالقرآن الكريم :

1 ــ مجموعة تشتمل على مسائل في رسم القرآن وضبطه .

2 ــ قواعد وكلمات في الثابت والمحذوف في القرآن الكريم.

3 ــ رسائل في رسم الألف في القرآن كما في المصحف.

4 ــ تجريد كتاب الحجة من كل دليل وحجة.

5 ـ التعليقات البيانية على منظومات مسائل قرآنية :

وهي تعليقات كتبها الشيخ التليلي يوضح فيها بإيجاز ما وقع في كتابه (منظومات في مسائل قرآنية) من غموض بعض الكلمات ،أو حل رموز حساب الجمل الذي عد به الأبيات،أو رمز به لتاريخ نظمها .

6 ــ قواعد البيان في الثابت والمحذوف في القرآن على رواية ورش .

- **آثاره في مختلف الفنون:**

كان الشيخ التليلي رجلا موسوعيا ، خط بيراعه المخطوطات في شتى الفنون والمجالات كاللغة والشعر والفقه والأصول وعلوم القرآن، وتعداها إلى علم الفلك والتاريخ ، ولما كانت كلها مخطوطة ، كان التقسيم باعتبار النظم والنثر.

ــ المؤلفات المنظومة:

1 ـ سلوة المهموم والمحتار في قراءة هذه الأشعار من مختلف الأقطار والأعصار:

هي مجموعة من الأبيات الشعرية لشعراء سابقين في مختلف العصور ،جمعها الشيخ تسلية لنفسه المتعبة، وتسكينا لقلبه الحيران – على حد تعبيره – و تصلح للتمثيل في مناسبات شتى ومواضيع مختلفة ، وهي هواية الشيخ منذ صغره وكثيرا ما كان ينشدها للتمثيل والاستشهاد .واشتمل المؤلَّف على إحدى وأربعين ومائة صفحة من الحجم الكبير. وانتهى من جمع مادة هذه السلوى سنة 1999

2 ـ منظومات تربوية للمدارس الابتدائية .تحوي أناشيد للتلاميذ الصغار ،والكثير من قصائدها وردت في الديوان..

1.د/أبو القاسم سعد الله : أفكار جامحة.ص:205.

3 ـ سلم الوصول إلى ورقات الأصول .

4 ـ نظم متن الاستعارات للسمرقندي .

وهي وريقات ست نظم فيها الشيخ ما نُثر في كتاب الاستعارات للسمرقندي ، نظمه على بحر بسيط ، وقد اشتمل على واحد وعشرين ومائة بيت ،

5 ـ ديوان الدموع السوداء : وهو موضوع بحثنا ، وسيتم تفصيله في الجزء الثاني من هذا البحث.

6 ـ المقتطفات المنظومة من مؤلفاتي المعلومة.

وهي رسالة اشتملت على سبع وأربعين صفحة من الحجم الكبير .ضمنها الشيخ التليلي بعض المقتطفات التي نظمها من الفوائد العلمية والمسائل الفقهية ، أو ما استفاده من المطالعات ،أو اعترضه عند المحادثات ،فجمع هذه الرسالة إلى جانب الفوائد العلمية ، ومجمل حياته الشخصية ، وهي تختلف عن رسالة مقتطفات من ديوان الدموع السوداء ،الآتي ذ كرها .

7 ــ مقتطفات من ديوان الدموع السوداء.

وهي تشبه السابقة لكن الشيخ لم يقصد جمعها في بادئ الأمر ، وإنما طلب منه بعض الشباب المثقف أن يقتطف لهم من ديوانه بعض القصائد المركزة والعامة لتوضع في المراكز الأدبية والأمكنة الثقافية .فأجاب الشيخ طلبهم شاكرا لهم حسن ظنهم به .،و اشتملت الرسالة على ثلاث وخمسين صفحة من الحجم الصغير،ضمنها ستا عشرين قصيدة.

ـ المؤلفات المنثورة :

1 ــ مجموعة من النكت العلمية ، والأخبار العالمية ، والحكم النثرية ، والقضايا التاريخية : وقد جاءت غير مرتبة في سبع وسبعين ومائة صفحة من الحجم الكبير والغرض من جمعها تسهيل حفظها أو نقلها أو الاستفادة منها.

2 ـ المسائل الفقهية ـ فتاوى ــ.

3 ـ رسالة النماذج الهامة لأمثلة المطابقة العامة :

وهذه الرسالة تحتوي على وفيات بعض الأعيان دون التقيد بالزمن ، والغرض منها المطابقة بين التاريخين الهجري والميلادي و تحديد سنة الوفاة.

4 ــ شواهد الكلمات العامية من اللغة العربية الفصحى :

وهو دفتر يبلغ أكثر من مئة صفحة ، في كل صفحة ثلاثة أعمدة : عمود للمصدر ، وعمود للكلمة ، وعمود لبيت الشاهد. وقد بلغ مجموع الكلمات والعبارات التي رجع بها إلى الأصل الفصيح واستشهد لها بالشواهد من أمهات التراث حوالي 1500 كلمة. وقد دون الدكتور أبو القاسم سعد الله في مجلــــة

العرب بعض الكلمات العامية التي نقلها عن الشيخ منها(1) :

الكلمة	الشاهد	المصدر
بذرق	فقعدت ثم دعوت لي بمبذرق متشمر يسعى بغير رداء	العقد الفريد، 7/8
لقمة طعام	ما بين لقمته الأولى إذا انحدرت وبين أخرى تليها قيد أُظفر	العقد الفريد، 12/8
هرّت الكلبة (نبحت للتحذير)	ولقد غدوت على التجار بمنْبج هرت عواذله هرير الأكلب	العقد الفريد، 56/8
ترهز	ورهز تذرف العينان منه وأخذ بالذوائب والقرون	العقد الفريد، 133/7
رنّق (نظر)	يا مقلة الرشإ الغرير وشقة القمر المنير ما رنقت عيناك لي بين الأكلة والستور	العقد الفريد، 266/6
التراب السافي(الناعم)	ولقد ذكرتك يا أميمة بعد ما نزل الدليل إلى التراب يسوفه	النظرات للمنفلوطي 100/2
يرقل (يعرج)	تعطيك مشيا وإرقالا ودأدأة إذا تسربلت الآكام بالآل	شواهد المغني للسيوطي 458/1
الْخطار (العناد)	عذرت البزل إن هي خاطرتني فما بالي وبال ابني لبون	شواهد المغني 459/1

5ـ بدائع الجنان واللسان في غريب الألفاظ ومسائل القرآن :

6ـ زهرات لغوية من الألفاظ الكتابية لعبد الرحمن الهمذاني :

وقد جمع فيها الشيخ التليلي بعض المفردات اللغوية من كتاب (الألفاظ الكتابية) لعبد الرحمن بن

1.مجلة العرب.ج11و12. س 40. الجماديان . 1426هـ يونيو /يوليو 2005المملكة العربية السعودية . ص: 750.

عيسى الهمذاني ، و اقتطف من كل باب من أبوابه ثلاثة ألفاظ أطلق عليها اسم زهرات ، وجعلـــــها في كراس صغير ، حتى يسهل تداوله والاستفادة منه . خاصة تلاميذ مدرسة النجاح . وجاءت هذه الرسالة في سبع وثلاثين صفحة من الحجم الكبير .

7 ـ رسالة في بعض الرموز الفلكية والفقهية :

وأصل هذه الرسالة مجموعة من الرموز المختلفة الواقعة في بعض العلوم ليحصر المسائل الواسعة ويسهل حفظها واستظهارها.وتحتوي على فنون مختلفة ، علمية وشرعية.فهي تتعلق بالقرآن والفقه ، وعلم الفلك.

8 ـ الدرة المعارة لقرّاء الاستعارة .

9 ـ تلخيص فقرات من كتاب الأضداد للتوزي .

10 ـ قصة الشيخ العجوز وزوجته :

وهي قصة خيالية ذكرها الشيخ في الديوان ، والمتأمل لهذه القصة يجدها ترجمة لحياته الشخصية بكل تفاصيلها .

11 ـ رسالة الدرر الملكية في الدراري الفلكية :

العنوان الذي وضعه الشيخ هو :(رسالة الدرر الملكية في الدراري الفلكية مجموعة من الفوائد الخاصة بعلم النجوم وما يتعلق بها من معرفة الأوقات والأيام والشهور والأعوام والساعات) وهي رسالة في علم الفلك . اشتملت على أربع وستين صفحة من الحجم الكبير،تفيد قارئها بمعرفة الأوقات والتغيرات ا لزمنية كمعرفة الأيام والشهور والأعوام.وقد فرغ من كتابتها يوم 22 جويلية 1981 م

12 ـ إتحاف القارئ بحياة خليفة بن حسن القماري :

وهي رسالة في أدب التراجم والسير ، تناول فيها الشيخ حياة علم من أعلام الجزائر ، وهو العلامة خليفة بن حسن بن مبارك بن سعد القماري السوفي الجزائري .

تطرق فيها لنسبه وولادته وشيوخه وتلامذته وذريته وتراثه العلمي ، وهي منظومة تحتوي على ما يقارب عشرة آلاف بيت .نظمها في بحر الرجز ، وجاء ت في ثماني عشرة صفحة من الحجم الكبير .

13 ـ حديث المسامر في صروف ابن عامر.

14 ـ رسالة الأذكار الشرعية :

وهي من أحسن مؤلفات الشيخ ، حيث عالج فيها ابتداع الأوراد والأذكار الزمانية والمكانية . تظم ستا وستين صفحة من الحجم الكبير وقد ألفها الشيخ سنة 1975.

15 ـ رسالة في الأمثال العامية :

يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله عن هذا المؤلف (هذا الدفتر يظم 35 صفحة من الحجم الكبير ، وقد رتبه الشيخ على حروف الهجاء ولم يكتب له مقدمة ويبدو أنه كان ينوي كتابة مقدمة له عندما ينتهي

من جمع الأمثال ، أما عدد الأمثال التي جمعها لكل حرف فيراوح بين الصفحة الواحدة في عمودين مثل حرف الجيم والحاء ، وبين الثماني صفحات ذات عمودين أيضا ، مثل حرف الألف ، وهناك حروف بصفحتين وعمودين مثل حرف الباء والتاء ومن الأمثلة التي أوردها لحرف الألف ، والباء والتاء قوله :

- إذا كان في راسك ما يْعَبي جمل أنافي راسي ما يْعَبي قافلة .
- إذا حبك القمر واش عندك في النجوم .
- باتْ بلا لحمْ تصبح بلا دين .
- باتْ على غيض ولا تبات على ندامة .
- تبديل السُّروج فيه راحة .
- تبَّع بوك ولا يغروك .

أما من صفحة 36 حتى الصفحة 46 من الدفتر ، ففيها نصوص نقلها الشيخ ـ كما قال ـ من اليوميات أو الرزنامة وجاء بنقول من ابن عروس ومن محمد المرزوقي الذي روى عن علي القفصي شاعر الملحون ، وأخيرا ذكر الشيخ بعض الأحاجي أو الحكايات العامية)[1]

16ـ مجموعة في تاريخ سوف منذ القديم :

يشتمل هذا المخطوط على تراجم بعض الأعلام وسيرهم ، أو تاريخ وفياتهم على الأقل ، كما ضمنه الشيخ الحديث عن عشائر سوف وقبائلها وأصلها وأنسابها ، و الشعر الملحون وغير ذلك من الفنون .وهو مخطوط غير واضح أو مرتب .

17 ـ هذه حياتـــــي :

هي رسالة جمع فيها الشيخ كل ما يتعلق بحياته الشخصية والعلمية ، وما اعترضه فيها من سرور أو شرور ،أو سار أو ضار ، ابتداء من ميلاده إلى تقاعده سنة 1972 م .وجاءت في واحد وتسعين صفحة من الحجم الصغير .كتبت بخط ابنته .

.تطرق فيها لبعض أعماله الأدبية ، وشيوخه الذين درسوه في قمار وتونس ، مع سرد الكتب التي قرأها عليهم .

قال الدكتور أبو القاسم سعد الله متحدثا عن مؤلفات الشيخ محمد الطاهر : (ألف الشيخ محمد الطاهر التليلي مجموعة من الأعمال لا يراها هو شيئا ذا بال ونراها نحن كثيرة الأهمية ...)[2]

وإليك الآن ما قاله الشيخ عن مؤلفاته :

1.مجلة العرب.ج11و12.ص : 743/744ـ بتصرف ـ.

2.د/ أبو القاسم سعد الله : أفكار جامحة.ص : 204.

مؤلفاتي جلها رســـــــائــل لقصر وبعضها مســــــائل
لقصـــر كذاك أو تقصيــــــر في البحث والمسموع والتعــبير
وربما مــرادُنا التلخـــــيص لما حواه البحث والتمحيـــص
إذ زبدة المَخِيــضِ في اختــصار لكاتب وسامع وقــــــاري
فاقنع بذا واغفر لكل من هذَى في ذا وذا وما تراه مــــن أذى
فليس حقا أنني مؤلــــــــف في كتبنا فصحح لا تـــــدار
والله يهدي كلّنا للرشـــــــد وفي كل أمر من عظيم القصـــد
ويغفر الأخطاء والذنــــوبا من الذي قدسه مكتـــــــوبا
إذ كلها مسْودَّة مسَــــــوَّدَهْ بقلـــم محطم مُــــــــــردَّدَهْ(1)

.

1. ديوان الدموع السوداء.ج2.ص: 102.

الفصل الثـاني

الظواهر المعنوية في الديوان:

ـ الأغراض الذاتيـــة
ـ الأغراض الموضوعية

:

ديوان الدموع السوداء يعد من أكبر أعمال الشيخ التليلي، وهو عبارة عن ترجمة وافية لحياته، يقول في كتابه(هذه حياتي): (وكأنني هنا أسجل المجموعة الشعرية التي سميتها مجازا " ديوانا"وهي مجموعة تحتوي على ما يقرب ثلاثة آلاف بيت وقد تزيد من النظم أو الشعر أكـــــــــثره

في الإصلاحات والإخوانيات والمدرسيات التي يصور مجموعها حياتي الخاصة في مجتمعي الصغير الأسرة والبلدة والمدرسة)(1). ويترجم ذلك قوله في الغلاف الخارجي للديوان:

إن كنت تطلـــب مـــني علمـــا بتاريخ حالي
وسيرتي في حيـــــاتي وبين قومــــــــي وآلي
فاقرأ ديوانـــــــــي هذا ففيه ظل خيالـــــــي

و يحتوي الجزء الأول من ديوان (الدموع السوداء)على أربع و سبعين ومائة صفحة ، وبه ثلاث ومائة قصيدة ، والجزء الثاني على أربع عشرة ومائة صفحة، وبه ثمانون قصيدة، وكلها من الحجم الكبير.

وللشيخ التليلي ابنة صغيرة هي التي تدون له. وقال الشيخ التليلي في خاتمة ديوانه هذه التوصيات:

- قد يكون في بعض الحروف تشابه أو تشاكل فيختلف من أجله المعنى أو يشكل فيجب التأمل قبل الإصلاح .

- قد يكون على الكلمة أو الجملة لطخة مداد أو أثر ماء فيجب التروي في إزالته أو تغطيته أو فهمه حتى لا يؤدي إلى الخلل فيه أو في معناه .

- قد يكون في بعض القصائد أو المقطوعات مبالغات اقتضاها الكلام، أو الشاعرية، أو القافية، أو غير ذلك من الموجبات الواجبة الضرورية، فيرجو صاحب هذه المبالغات من القارئ الكريم العفو والمسامحة، ويطلب منه أن يستغفر له ربه، وأن لا يؤاخَذ بما كتبت يداه أو بما سطره قلمه في دنياه مما لا يحبه الله ويرضاه .

وقد قسم الشيخ التليلي ديوانه إلى قسمين :

القسم الأول: اشتمل على القصائد والمقطوعات المرتبة على حسب ترتيب الحروف الهجـــائية، بدءا بالهمزة وانتهاء بالياء، وتميز هذا القسم بتطرقه لأغلب أبواب الشعر من فخر، وشكر، وسلوى وشكوى وعزاء، ورثاء، وإطراء، وهجاء وغيرها من الأبواب .

القسم الثاني: أما هذا الجزء فقصائده ومقطوعاته غير مرتبة هجائيا ، ولا ترتيبا اصطلاحيا، وهو يشترك

1 . محمد الطاهر التليلي : هذه حياتي ..ص: 79.

مع الأول في كونه استغرق أغلب أبواب الشعر أيضا .

وسوف نتناول في هذا الفصل الموضوعات التي تطرق إليها الشيخ في ديوانه الدموع السوداء، وهي موضوعات ترتبط ارتباطا وثيقا بشخصيته وبموقفه من الوجود . فهو إن كان شاعرا فهو معلم ومصلح وموجه وعالم دين، ومن شأن هذه الشخصية أن تنزع إلى أغراض شعرية بعينها تعبر من خلالها عن تجربتها الذاتية .

وشعر الشيخ يثبت أنه لم يعن من الشعر إلا بما يعبر عن تجربته ويفصح عن مشاعره وأحاسيسه ومن ثم فإن أغراضا شعرية معينة لا وجود لها في شعره كالمديح - إلا لقادة جمعية العلماء -، وكذلك لا نجد للهجاء والغزل و المجون ظلا في شعره لعدة أسباب منها دينية وعلمية، وهكـــــذا اقتصر شعـــــره علـى موضـوعات بعينهـا يجمعهـا كلـها أنهـا ذاتية، كالرثاء، والفخر، والغزل، والشكوى، والمراسـلات الاخوانية ، وبعضها الآخر يعبر عن موقفه من موضوعات عامة كالدين، وقضايا المجتمع وأدب الأطفال.
ومما يميز ديوان الشيخ التليلي أن الكثير من هذه الأغراض متداخلة في شعره بشكل واضح، خاصة غرض الشكوى والنصح والإرشاد والحكمة، وهو ينظم النظام العربي القديم التي يعتمد على تعدد الأغـــــراض في القصيدة الواحدة، مع وجود أغراض أخرى في قصائد منفردة .وسوف نقوم خلال هذا الفصل بفرزها لمجرد الدرس، وسنبدأ بعرض الأغراض الأكثر استخداما في الديوان .

أولا الأغراض الذاتية :

شعر الشكوى والعتاب :

يقوم غرض الشكوى والعتاب على تأزم العلاقة بين الأهل والخلان ، فإذا كثر العتاب كان سببا من أسباب القطيعة والجفاء ، وإذا قل كان مدعاة للألفة و الصحبة(1) ، و يمثل شعر الشكوى والعتاب في ديوان الشيخ التليلي ملمحا شخصيا بارزا ، و محور الكثير من القصائد يدور حول عتابه لأهله وأصدقائه ، ويشكو ظلم الزمان وقهره ، كما يشكو فقره وضعف حاله ، وهي صور فنية صادقة لمعاناته ، وتأرجح مشاعره بين الإيمان بالله ، والشك واليأس ، ورثاء الذات حينا آخر .

يعاتب الشيخ التليلي ابنه جمال الذي انتظره طويلا ليتحصل على الشهادة ، فقال :

قالوا مشيبك قد بدا   في بكرة العمر الأشب
قلت المشيب له هوى   ولكل بادرة سبب
حاولت إدراج العلى   في يافع طلب الأدب
فأذقته من كل ما   يحلو من العلم الضرب (2)

وعندما أراد الفتى مزيدا من العلم ، أرسله والده إلى فرنسا مع صبية البلد ليتعاونوا في الدراسة لكن الفتى :

فإذا الفتى ولدي المثقـ   ـف في الأزقة يرتقب
وإذا الفتاة من ابنة الإ   فرنج تكشف عن عجب (3)

فابتعد عن العلوم والدراسة ، واهتم باللعب واللهو :

وإذا المدارس عنده   دور الخرافة والكذب
وإذا المعارف ما تلقـ   ـف في المخامر واللعب
وإذا تذكر أرضه   وبدا له أن يقترب
ويقول قومي جامد   ون كأنهم قطع الخشب
متمسكون بدينهم   كي لا يمسهم اللهب (4)

ويبدي الشاعر حزنه قائلا :

أما أنا فلقد جنيـ   ـت من الشجيرة مر حب (5)

1.ابن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده .تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .دار الجيل .بيروت لبنان .ط5.س1981.ج2 .ص : 160.

5.4.3.2.. ديوان الدموع السوداء ج1.ص : 16.- 17- 18/17- 18.

وليس من عادة الشيخ التعبير المباشر عن حياته الأسرية ، خاصة علاقته بزوجته ، فهو عادة ينظمها بشكل قصص خيالية أو بطريقة المزح والترفيه ، ولكن في قصيدة (نفثة مصدور بين السطور) يظهر ضيقه وانزعاجه من زوجته الثانية ، وهي القصيدة الوحيدة في الديوان التي تعبر بشكل مباشر وصريح . لقد قلبت زوجته موازين البيت ، فنعتها بالأفعى قائلا :

دخلت بيتي كالعـــدو العاتي لتهـــــــدمي بنيانه المواتي

وتقذفي السموم في القـــــناة وتعبثي في البيـــــت بالأداة

مفعمة بالبغض والتـــــرات مملوءة بالحســـــــد والأذاة (1)

وشبهها باللئيم المخرب قائلا :

وهكذا اللئيم حيـــــن ياتي يخرب البيوت بالشـــتات (2)

وتحدث معاتبا بعض الإخوان على جفائهم :

أيا من لا أسميه احتـــــراما على رسل الصداقة والجـــوار

أسائل منك ذا لب خبـــــير على النبأ العظيـــم ولا أواري (3)

ويسأله سبب زيارته لقمار ، هل هو لحضور عرسه الثاني ؟ كما يسأله عن سبب الهجر ؟ويطلب منه أن يحكِّم عقله ، ويسمع للطرفين ، ثم يحكم بالعدل :

وقد حيرتني وأثرت ســـخطي وزدت نكاية في عـــين زار

أبيت وتعلم ما أقـــــاسي من الأوباش أوباش النجـــار

وما تلك الوساوس غير طـيف يريني وجهه عند افتكــــار

أثار غبارها مني إليــــــكم هواء الصمت عن عمل مثــار (4)

كما اشتكى الشيخ من الزمان وجفوته ومعاداته قائلا :

أسأت إلي في سر وجـــــهر وأغريت اللئام على احتـــقار

زعمت بأنني يا دهر جـــــان فعاقبت المسيء على اجـــترار (5)

و يخاطبه مخاطبة الإنسان ، يشكوه مرة ، ويهجوه أخرى :

وددنا لو نصحت ولم تعاقـــب قبيل النصح أو بعد اعتــــذار (6)

6.5.4.3.2.1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص:29.- 30- 67- 68- 67- 66.

ويعدد حسناته التي قام بها لكن الزمان عاقبه من أجلها ، فهو جلاد قاس :

ولم أذنب إليك ولا لأهـــــلي   سوى أني دعوت إلى فخـــــار (1)

ويشتكي إليه في قصيدة أخرى بالنيابة عن أهل البلدة قائلا :

يا دهر إني بالنيابة مشتــــــــك   أشكو إليك خصاصة وتضـــــررا
فانظر بعيـــــنك في ملامح أهلنا   تجد الدليل على الوجوه مصـــورا
فاقرب إليه وجس نبــض عروقه   تجد الحــــــياة وشيكة أن تصدرا (2)

والشيخ لم ينس هذا الظلم ، فكلما حاول الصعود إلى المجد والعلو ، وجد الدهر له بالمرصاد ، فالدهر ملك الفرس ، والناس المجوس ، لذلك أخذ ينصح الناس قائلا :

لا تصحب الدهر فهو كســرى   والناس من جنـــــــــده مجوس
بل لا تعاد الزمان يومـــــــا   وأنت في قبضة الرئـــــــــيس(3)

ثم أخذ يمدح ليلة الخميس التي جمعته مع أصدقائه المشايخ :

يا ليلة من بنات دهـــــــــر   غراء في حلية العـــــــــــروس
ياويحها لو درى أبوهــــــــا   أنها تحفة الجليـــــــــــــــس (4)

وعاب تملق العامة ونفاقها قائلا :

قال لي أنت أيها الشيخ شيخي   وملاذي وعمدتي والوكيــــــــل
أنت والله منطقي ولســــــاني   بين قومي وحجتي إذ أقـــــول (5)

وكانت ردة فعل الشيخ شديدة الوقع في النفس، لأنه لا يبالي بالمخالفة إذا كان ذلك لا يرضي ضميره :

أنت إبليس فالتمس غيري غرا   هم كثير عمي البصيرة حــــــول
ذل شعب من أهله أنت يا هــ   ذا وماتت فروعه والأصــــــول (6)

وقد تنقل الشيخ التليلي بين المدن الجزائرية بحثا عن الرزق ،منها عنابة وبسكرة وخنشلة . فعندما حل بعنابة لم يجد مسكنا يستأجره ،و بقي شهرا كاملا في نزل حفيان مسعود(7) . وأخذ يشكو الوحدة والحشرات قائلا :

1..4.3.2. ديوان الدموع السوداء : ج1.ص: 67 - 66- 149- 150/149

6.5.المصدر نفسه.ج 1 ص: 111.

7. محمد الطاهر التليلي :هذه حياتي .ص: 73.

أبيت في الفندق المشحون منـــفردا　　أصارع الهم والآلام تصرعـــــــني
لا من أنيس سوى الناموس يلسعني　　والبق بالفرش والبرغوث يقرضـــني
في وحشة من ظلام الليل ساهـــرة　　وربما جاءني الشيطان بالفـــــــتن (1)

ولأن خلل المحيط لا يدع مجالاً للاستقرار وللطمأنينة، ويظهر بعد ذلك التوتر النفسي والقلق والخوف مجتمعة، إذ يشير القلق إلى حالةٍ من عدم الطمأنينة وعدم الثقة بالمستقبل والخوف من المجهول. طلب المساعدة لاستئجار منزل حتى يستقر، وينصرف إلى تحضير الدروس بإتقان فقال:

فهل لكم يا سادتي بيت بأجـــرته　　أقر فيه بلا خوف ولا حـــــــــزن
آوي إليه بأولادي وأمـــــــــهم　　فأطمئن إلى ما شئت من زمـــــــــن
وعندها يستقر الفكر منصـــــرفا　　إلى الدروس فأمليها بلا شحـــــــن (2)

وعندما عاد الشيخ إلى قمار، فتح مسجد الطلبة ليدرس فيه النشء، وينشر العلم بين أهله، وكذلك معهدا لتعليم القرآن و العلوم الأخرى، والهدف من ذلك خلق نشء جديد متعلم فقال:

لبثت والله حســـــــبي　　أريد خيـــــــــر جهاد
رضيت منهم بقـــــوت　　إلى العيال كـــــــزاد (3)

لكن الرجال الذين لا يريدون للعلم أن ينشر وقفوا في وجهه، وأعلنوا الحرب عليه، فاضطهدوه ونكروه، والسبب في ذلك أنه ليس تابعا لهم:

ولم يكن غيـــــــر أني　　أبيت شـــر انقيـــــــاد
أبيت طاعـــة نــــــذل　　وعمدة في فســـــــــاد
فكــــــان ما كان مـــني　　ومنـــــــهم في عنــــــاد(4)

وقصد الشيخ من رواية القصة تحكيم العدل:

فتلك قصة قـــــــومي　　وقصتي في التعـــــــــادي
نشرتها بين نــــــــاس　　على بساط الحيـــــــــاد
ليحكموا أو يقولــــــوا　　مقالهم في انتقـــــــــاد (5)

و لزم الشيخ التليلي بيته عندما آذاه الناس، وأغلق بابه إلا على المقربين منه، فوجد في الكتابة متنفسا، وأخذ يشكو قائلا:

1..5.4.3.2.ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 138.- 139- 47- 46.- 47

بالأمس كنت من العيال مفلسا ومن الثراء مدثرا ومدرهما

فبسطت كل البسط كفي للذي سأل النوال وللقرابة مكرما

واليوم صرت من العيال بكثرة وفقدت فلسا قائتا أودرهما (1)

لقد كانت الحاجة هي التي أقعدت الشيخ حزينا مهموما ، فأخذ ينصح صبيته بالتقليل من الإنجاب، وهو في داخله شديد التألم قائلا :

ولكم أصابر بالتعلل صبـــيتي أن التكاثر قد يكون محـــرما

وأسوق من آي الزهادة جملة ومن الحديث مخصصا ومعلما

وإذا اللسان أقام بعض أدلــة قام الفؤاد إلى الدليل محطــما (2)

والحاجة نفسها هي التي أضعفت الشيخ وأنهكت قواه، وأفقدته كل ما يملك، فباع النخيل وكتبه من أجل إعالة أبنائه، فكتب و نبرة الحزن تقتله والدمع يخنقه :

بعتك اليوم واشتريتك أمس يا كتابي وأنت في الكل أنسي

بعتك اليوم والدموع جوار عند بيعك يا كتابي ببخـــس (3)

وهي قصيدة رثائية باكية على كتابه، و نشرت له القصيدة في مجلة (الثقافة الجزائرية)بعنوان(وداع كتاب)، وقال يهجو الفقر الذي كان سبب بيع الكتاب :

مسني الدهر وهو داء عــضال بعذاب ولا كشيطـــــان مس

بعتك اليوم يا فداء صـــــغار أسكت الدهر منهم كل حس (4)

ويطلب الشيخ التليلي عدم لومه من خلال قصيدة (الوحدة خير من جليس السوء)، لأنه مقيد بضوابط الزمان وغدره وقهره، وقد تعب من الصمت فنثره على بساط من الحزن والأسى قائلا :

يا لائمي تفـــــننا وعاذلي تحنـــــــنا

فلا تلم مقيـــــــدا وملجما مرســــــنا

لقد تعبت زمنـــــا داريت فيه الزَّمِنـــــا(5)

انقطع الشيخ عن العالم، وأغلق كل الأبواب عندما انعزل في بيته مستأنسا بوحدته، فكانت له الكتب وطنا، والدفتر بيتا، ولم يعد يعنيه رأي الناس بالمدح أو الذم :

---

1. 2. 3. 4. 5ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 113- 151/152- 152/153- 126.

ولذت بالبيـت الذي | نشـــأت فيه أزمنا
أغلقته من كـــل من | أتى يريـــد الفـتنا
مستأنســا بوحدتي | وقد نســـيت المحنا
متخذا من مكتـــبي | ومن كتـــابي وطنا (1)

وبقي طيلة حياته متأسفا على حال قمار، فظلمهم لا يفارق ذهنه، رغم علمه بأنه ليس وحده المضطهد، وإنما هو حال كل المصلحين الذين أرادوا الثورة ضد الظلم ، وأرادوا تنوير عقول الناس في الجزائر كلها ، فحاله من حال الإبراهيمي وابن باديس، وعبد القادر الياجوري، وعمار بن لزعر والحفناوي وغيرهم :

إلى كم يا قمار أعاني منـــك | ومن أهلـيك أشباه الصلال
سعيت وقد سعى قبلي أناس | لجمع الشمـــل في آت وحال
وزارك في القديم هداة خـير | فناب الهزء مـنك عن السؤال (2)

لكن نفس الشاعر طيبة، وحبه للبلاد كبير يفوق ظلمهم، فهو يسأل الله لهم الخير، وأن يبعد عنهم كل شر:

فيا رب الهداة أعن هـــداة | على الإصلاح في وادي الرمال
وأبعد عنهم من كان منهـم | يدس إليهم سم اختـــــلال (3)

وقد أثمر طول عمر الشيخ عن معرفة دقيقة بالناس ، وتكشفت له نواياهم فقال :

جربت قومي قديـــــما | أيقاظـــهم و النـــــياما
إن كنت في الضيق فــــروا | وألبســـوني اتهامـــــا
وناصبوني عـــــــداء | وقارعـــوني خـصامـــا
وكرهوا في أهلـــــــي | وبغضونـــــي انتقــــاما (4)

ويذكر من عنت الناس(أنهم كانوا يستفتونه فإن وافق رأيه ما يريدون احتجوا به وإن خالفهم شنعوا عليه وآذوه)(5) وهذا يوضح قوله :

وقالوا فـــــــيَّ وقالوا | مما يعـــــــــــد حراما
من غير ذنـــــب جنته | يداي فيهم صـــــــــداما (6)

---

1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 127.
3.2. 4.المصدر نفسه ج2.ص: 85- 85- 76.
5.د/ أبو القاسم سعد الله : مجادلة الآخر . دار الغرب الإسلامي .ط1 س2006.ص: 297.
6.ديوان الدموع السوداء ج2.ص: 76.

ورد على هجاء البعض بأسلوب لا يخلو من السخرية ،فكان بشكل حوار :

قالوا هجاك عصيـــــــفر   قلت الأخــــن بن الأخـــــن

قلت الذي في أنفــــــه   دود تدلـــى للذقــــــــن

قالوا نعــــــم ذاك الذي   في نطقــــــــــه خبث الخنن

قلت الذي فــــــي طوله   شبران أبـــــــــرص كاللبن (1)

والشاعر يلجأ إلى الشعر ليعبر به عما يريد :

بالشعر أشرح صدري المغمورا   أم بالشعور أوضح المستـــــورا

ومن الشعور بلاغة لو أدرجت   كفن الحروف لظلت المقبـــــورا (2)

ولا يجد إلا الله فيرفع كفيه بالدعاء أن يؤانسه ، ويأخذ بيده :

يا ربنا أنــــــت الولي   أنت الــــــــذي تختار لي

فاختر لي ما فيــــه الرضا   إلى انقضاء أجـــــــــلي

وآنس رب وحشــــتي   ووحدتي في منـــــــــزلي

فخذ إلاهي بيــــــدي   إلى الطريق الأمثـــــــل (3)

الوصف :

تحدث الشيخ التليلي عن أطوار حياته المختلفة، وبدأ من صغره ،يحكي عن الأحداث التي مر بها، فشبه حبوه بمشي الزواحف المعروفة في البلدة ، وهي قصيدة مشطورة، قال فيها :

غداة أدب دبيب الـــنمال   وكل الزواحـــــف حولي تجر

فمن عقربان إلى حيـــــة   وحولي تدب ظـــــروف القدر (4)

بدأ الطفل يكبر، ويتعلم الكلام، بينما والده منزعج من كثرة بكائه، فيفر الصغير إلى والدته التي تحضنه وتقبله وتبعده عن كل ما يضره و هنا تظهر قدرة الشاعر على دقة الوصف :

فتلهب خـــدي من لثمها   وتهرب بي من هـــــوام تضر (5)

وعندما مرض الصغير جن جنونها وتمنت لو تفتديه بروحها فقال :

ولو أنني عنـــدها أشتفي   فتفدي حيـــــاتي بنور البصر

3..2.1 ديوان الدموع السوداء ج1.ص:124- 90- 80.

5.4 .المصدر نفسه ج2.ص: 34

وتخلع إن تستـــــطع عمرها وليس لها خــلع ذاك العمر (1)

ولأن الخرافات والشعوذة قد سيطرت على عقول الناس عامة، كان لوالدته من ذلك نصيب، فأخذت تلقي عليه التمائم لتبعده عن الأذى وظلم القدر فقال :

وتلقي التمائم في زعمـــــها عليّ لآمن بطـــــــش القدر (2)

ومر الزمن وكبر الصبي، وأُخذت منه والدته، فشعر بوحدة وضيق شديدين، لكنه لم ييأس وواجه معترك الحياة ، فذاق صنوف العذاب من الناس بين مكر واحتيال فقال :

فأعثر بالمكر والاحتــــــيال من الناس في الجب أو في الحفر (3)

ووصف الشيخ نفسه عندما أصابه الزكام فقال في قصيدة (ليل الزكام) :

طال ليلـــــــــــي بالزكام وتغشـــــــــــــــاني السقام

لم أذق طعم المنـــــــــام بل تذوقت الحمــــــــــــــام

وطوت جسمي فهـــــــال أمرها مني العظـــــــــــــام (4)

وعندما مرض تذكر الموت والفناء ، فحمد الله على صفاء نفسه من الشرك فقال :

أموت وما في القلب مثقال ذرة من الشرك أو ما قد يؤول إلى الشرك

وأعلم أني لا محـــــــالة صائر مصير الناس للفناء وللفـــــــــك

ورحماه إن ألقت عليّ جناحها نجوت وإلا فالمصير إلى الهلــــــك (5)

ويصف الشيخ التليلي حياته التي مرت صورها أمامه قائلا :

حييت فمـــــــت بهذي الحياة وما المـــــــــوت إلا لحي عظات

لذاك جمعت نـــــــقاطاً تهم مبعثرة في بســـــــــــــاط الشتات

وسجلتها في سجل صــــــغير وعنونته بـ (سجل الحيــــــــــاة)(6)

ولما شب الشيخ ، أرسله جده للدراسة في تونس، وعندما وصلها ورأى جمالها، شكر الله على خروجه من سوف، وأخذ يصف أهلها وجوها وبيئتها فقال :

حمدت إلهي يوم من بنعـــــمة وأخرجني من سوف مـــن بلد العفر

2.1 ديوان الدموع السوداء . ج2.ص: 34.

3. المصدر نفسه. ج2. 35.

6.5.4.. المصدر نفسه ج1.ص: 117- 99/100- 31/32.

ترى أهلها فيها كأن وجوههـــم بها غبرة الأموات بالجـــوع والفقر
فمن نحسهم عند اختيار مقامهم حلولهم أرض التوحـــش والقـــفر
وليس لهم من مورد غير قطرة من البئر بعد الطي للبئـــــر والحفـــر
وأرياح نحس قد تهيج عليهـــم فتدخل في فرش وتدخـــل في قـــدر
زواحفها لا كالزواحف لسعــــها أليم يؤدي من تمس إلى القـــــــبر (1)

لكن الشيخ سئم من حياة الحضر في تونس واشتاق لبلدته ، فقرر العودة إلى قمار ، وفي طريقه أخذ يصف ما شاهد فقال :

ذهبت في التــــــو إلى القطار وقد جهلت نافـــــــــذ الأقدار
رجعت بعد فارحــــــا للبيت لحمل زادي في انتظار الـــــوقت
ثم رجعت بعد للمحطـــــــــة ثم ركبت حاملا للشنطـــــــــــة (2)

لكن من فرحته أخطأ في القطار ، واضطر إلى الانتقال لمدينة أخرى ، وتنقل بين القطار و السيارة حتى وصل إلى الوادي وكان الجو حارا ومقفرا ، فقال :

أصابنا من هـــــــــذه المسافة من النـــــــــزول والركوب آفة
فمرة ترانا في سقيـــــــــــفة ومرة كالطير حـــــــــــول جيفة
نزلنا بالغوط لخف الرحـــــل بنزع شيء من متاع الحـــــــمل
وهكذا مـــــــــن قرية لقرية بقدر ما دفعـــــــــــــته للكرية (3)

ومنذ عودته من تونس أحس بأن الدهر يضمر له الشرور ، فقال في قصيدة (احتضار الأمل المريض في البلد البغيض) :

فلقد أنبأني الدهر بـــــــذا منذ فارقـــــــــــت جهولا تونسا
فرحا بالقفر والفقر كـــــذا يحسن المغبون مـــــــــن حيث أسا
ويُسي حيث أتــــــى بالحسن (4)

ويصف الطرق التي علم بها أهل القرية القرآن وعلومه ، وأبعد عنهم الجهل والتخلف . لكنه تأكد أن العلم وحده لا ينفع ، وإنما يحتاج صاحبه إلى المال لاستكمال الفائدة. ورغم كون الشيخ يعمل ببدنه

---

1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص : 80/79.
3.2.المصدر نفسه ج2.ص : 17- 19
4.المصدر نفسه .ج1.ص : 133.

رافعا الرمل على ظهره(1) ، فهو لا يتوقف عن الوعظ والإرشاد وتقديم الدروس للناس، لكن بعضهم أضمر له الشر ، وساعده الدهر على ذلك ، فقرر الشيخ الخروج من البلدة قائلا :

لكن الدهر بعكســــي كلفُ صدني بالرغم مــن كل هدفْ

وتحداني بما لا أصـــــــفُ وابتلاني بالذي فيـــه التلفْ

فهجـــــرت رغم أنفي وطني

أطلب الشيء الذي في فعلــه لامني من لست أرضى عذلــه

وهمومي كلها من أجــــلـه فإذا شــــــاهد طرفي طفلـه

لم يذق طعم هنيء الوســــن (2)

وخرج الشيخ من البلدة يبحث عن عمل بين القرى، فوجد من فرحوا به وأعطوه سكنا في مكان عمله، لكن لم تطل فرحته ، فقد أوقفه الاستعمار الفرنسي . والقصيدة تجمع بين الوصف والشكوى العارمة التي أتعبته فلا فرق بينه وبين السجين عندما ينعدم الحظ ، أو بينه وبين الدهر ، فكلاهما صلب وقاس لا يلين .

لقد كان الشيخ التليلي طيلة حياته يتطلع إلى التحرر من القيود الاجتماعية التي تخنقه ، وأخذ يبـــحث عن الحرية التي أطلق عليها اسم (الشمس)فقال :

إني خرجت بليـــــــلة عمياء ليس لها بصـــــــــر

من بطن أعماق الــــدهـ ـــور إلى الوجود على قـــدر

قلبت طرفي في الـــــدجى وأجلت قلبي في الغيـــــوب

فلمحت في الأفق البــعيـ ـد بصيص نور في الرســـوب (3)

لكن هذه الشمس ما هي إلا وهم توارثه الأجداد ، ومع انتشار الجهل انقضت عليه الوحوش تنهشه ، لكنه قرر مواصلة المسير، ونشر العلم الذي تعلمه، لينير به ظلمة الكون، وقد تحقق له ذلك ، وظـــــن أن قيوده انكسرت ، وبدأ يعدد أهدافه وغاياته ، فإذا بالشمس قرص أسود زاد من عنائه ، وأحبط عزيمته ، فقرر الانزواء في بيته :

وحسبت يا شمس الإضـــ ـاءة أن قيدي لن يـــعود

وذكرت في نفسي الطمـــ ـوح لنيل غايات النفوس

لكنني لما لمحـــت على محيـ ـــاك الســــــــــــواد

---

1. محمد الطاهر التليلي : هذه حياتي .ص: 48.

3.2.ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 124- 61/60.

عفت الشموس بأســـرها ولبست إذ ذاك الحـــداد

وأمرت نفسي أن تـــــنا ـم على الكآبة والتكاد (1)

وهذا الانزواء ليس قصد الهروب، وإنما هو ابتعاد عن اللغو ، واتقاء للسهام التي لم يتوقـــــف الناس عن رميها به ، حتى استأنس العزلة ورضي بها ، فمن جاءه زائرا مسترشدا، رحب به ووجد عنده الجواب ، أما من جاءه مثرثرا ، صده دونما حياء، وعليه أن يتقبل ـ الزائرـ ذلك :

لذا ارتضيت وحـــــدتي وعزلتي ضـــمن الخبا

فمن أتاني زائـــــــــرا زورة خل مجتبـــــــى

أقل له في غبطـــــــــة يا مرحبا يا مرحبـــــا

ومن أتاني يبتـــــــــغي ثرثرة لا أربـــــــــــا

أقل له مصرحـــــــــا إليك عني هربـــــــا (2)

وكان نتيجة عزلته وبقائه في غرفته ، غلق الباب على كتبه ، فباتت حبيسة كأنها في لحاف أسود بعيدة عن أعين الناس، فأخذ يصفها قائلا :

رأيت بنات فكري في لحاف من الأوراق مســـود دكين

مجدرة الوجوه ملطخـــات كأن بثورها قطع الـــعجين

مجرحة الخدود مقرحـــات مدمعة المحاجر والجفـــون (3)

وعندما يسألون عن سبب الانعزال ، ترد الكتب قائلة :

فقلنا لقد ولـــدنا ناقصات وأهملنـــــــا أطباء الجنين

نشأنا هكذا لـــــسواد حظ بسجن البيت نقنـع بالأنين (4)

كما تبين خوفها من النقد قائلة :

فأحببنا التستر والتخـــــــفي وأخفينا الوجوه عن العيون

وليس لنا من الوصاف وصف يحببنا إلى الرجـــــل القرين

فلا تخطئ ظنونك ترجـــو منا أصيل النسل من ولد هجين (5)

ويصف الشيخ حاله في ساعات ضجر وقلق عند الكبر، فقد كره حديث الناس والكتب ، ومال إلى النوم

2.1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 62- 22/21.

5.4.3. المصدر نفسه ج2.ص: 78- 79/78- 79.

الثقيل فقال :

كرهت حديث الناس في آخر العمر وعفت حديث الكتب في باطن الأمر
وعفت حديث النفس من حيث أنه سراب تظن الماء في أرضـــــه يجري
فملت إلى النوم الثقيل لعـــــــلني أرى في حديث النوم شيئا مـــن الخير (1)

وعندما كبر الشيخ تزاحمت الأمراض على جسده ،فزادت سكونه واندثاره ،كتب يصف حاله :

جزت الثمانـــــــــين عاما وما بلغـــــــــت مراما
فقد دهتني الدواهــــــــي فألبستني السقـــــــاما
ففي الدماغ طنـــــــــين أحس منه اضطرامــــــا
وفي العيون غشـــــــــاء رد الضياء ظلامــــــــا (2)

وقال في قصيدة أخرى عندما أصابه القلق والتضجر لما آل إليه حاله ،حيث لا يسعه إلا تذكر الأيام السابقة ،فأخذ يفتخر واصفا نفسه قائلا :

وقد كنت أعقل قبل المشـــيب إذا ما قرأت فصـــــول الكتاب
وقد كان عقـــــــــلي فتيا نقيا كسَيف صقيل سريع الضــــراب
فها أنا اليوم عند المشـــــــيب أرى كل شيء بعين ارتيـــــاب (3)

والشاعر في هذه الأبيات يصف حاله في صغره ،ويقارنها بمشيبه الذي يملؤه الضعف والفتور. ويتمنى عودة الأيام الخوالي قائلا :

فيا ليت أمسي يعـــــــــود إلي فأشكو إليه صنـــوف العذاب (4)

وبعد أن وصف الشيخ شبابه ،يفتح عينيه على واقعه المثقل والمتعب :

فقلبي عليل وجســــمي نحيل وطرفي كحيــــــل بداء الذهاب (5)

وعندما عجز الشيخ لزم بيته وابتعد عن الناس إلا من جاءه يطلب تفسيرا أو جوابا ، يقول الشيخ :

لزمت للحال بيتـــــــــــي وقد حمــــــــدت المقاما
وربما أزعجـــــــــــتنـــي مسائـــــــــل تـــترامـــى

3.2.1. ديوان الدموع السوداء ج2.ص:25- 74/73- 79.
5.4. المصدر نفسه ج2.ص:80.

من سائل يرجو مـــــــــني جواب ما قـــــــد تعامى(1)

وفي آخر الجزء الأول من الديوان حصر الشيخ التليلي حياته في عشرة أحداث ، مقسمة إلى قسمين ؛ خمسة حسنة ، والأخرى خلفت وراءها الندامة و الخسر :

فخمستها التي درت فحفـظي لقرآن توسع فيه ذكـــري
وتطويعي وتعليمي وحجـــي ونيلي للتقاعد عند كــبري
وخمستها التي كرت وفـــرت وكرهت الحياة لنفس حـــر
زواجي دون مشورة لأهلـــي بأول زيجة وقعت في صغري
هروبي من مجاورتي وعـــوني لأهلي والتباعد دون عــذر
وبنياني المساكن فـــوق داري لمن لم يرض إيوائي وخيري
وبيعي دون مسغبة لــــنخلي بإجحاف وبخس بيع غــــر
وأفضعها ذهاب الرأي عـــني ونسياني لقرآن وذكـــــــر (2)

ثم أوجز في قصيدة أخرى مراحل عمره كلها ، من ولادته حتى عجزه وكبره ، وفي الأخير يسأل الله المغفرة والرضا يوم القيامة .

الرسائل الإخوانية :

تمثل أشعار الشيخ التليلي ورسائله الشعرية إلى أصدقائه وأقرانه صورة دقيقة وجلية عن علاقات القربى والصداقة وأخوة العلم والدين ، وهي انعكاس طبيعي لثقافات العصر. لذلك تأخذ جزءا كبيرا من الديوان .لكن الملفت للانتباه أن كثيرا من رسائله مجهولة المرسل إليه ، وهذا أسلوب الشيخ التليلي في الديوان ، فالعتاب والشكوى والرسائل جلها مجهولة المرسل إليه .وأصدقاء الشيخ التليلي منقسمون بين مكة المكرمة وتونس ، وهم يمثلون الأكثرية ، وهناك أيضا بسكرة ، وعنابة والجزائر وقمار ، وتنوعـــــت إخوانياته في أغراضها وموضوعاتها وفق الأحداث والظروف ؛ بين شكر وشكوى وعتاب ورجاء وتهان وعزاء ...وقد خلف الشيخ في هذا النوع من الكتابة ما يربو على الستين إخوانية ، وكان لإخوانه في مكة المكرمة نصيب الأسد .

كتب الشيخ التليلي لصديقه بلقاسم بن الساسي (3)أربع رسائل ، منها همزية ضمنها مائة و تسعة وثلاثين بيتا بعنوان (إلى أبناء العمومة) ، شملت عدة أغراض منها الشكر والعتاب والتوضيح ، واستهل القصيدة بالشوق والسلام الحار الممزوج بالعتاب قائلا :

1. ديوان الدموع السوداء ج2.ص: 75.
2.المصدر نفسه ج1.ص: 166/165.
3.الشيخ بلقاسم بن الساسي . ولد سنة 1889.ينظر محمد الطاهر التليلي : مجموع مسائل تاريخية متفرقة تختص بسوف وأهلها في القديم و الحديث.ص: 94.

عسى الأيام تجمعنا جمـــــيعا   بطيبة حول مائدة الهنـــاء
قطعتم حبل وصلتنا إليـــكم   بما أبديتموه من الجفـــــاء
فما بال المطيب من قديـــــم   تدنس عندها بالكبريــــاء (1)

ويلومه على التهاون في نقل أخبار بني الأعمام ، والاكتفاء بالتفاخر والتحدث عن غنى مكة وأهلها ، لكن لم يرسل منها إلا :

وتمرات الحجاز وكحـل عين   وكتان وداد أو قبـــــــاء
وأتربة البقيع وكل هـــــــذا   من البدعية الداء العيـــاء
وإن طلبوا فما طلبوا عزيـــزا   كقرداش وغربال النســاء (2)

وارتفعت نبرة العتاب على الذين يتركون بلادهم للظلم والجهل ، ويرحلون إلى مكة المكرمة دون تحديد شخص بعينه :

عجبت لعالم فطـــــــن نبيه   يعد من الفطاحــل في الدهاء
له علم ومقدرة وجــــــــاه   وصيت في النضال وفي الغناء
عجبت لعالم في مثل هـــــذا   يفر إلى المشارق في انـــــزواء (3)

ويعاتب صديقه (محمد سعد الوادي)على الكتب الكثيرة التي أرسلها إليه ، وأثقلت كاهله :

تقاطرت إلــــــينا   يحملها الضبـــــاب
رسائل وكـــــــتب   ألفها الصحـــــاب
تكررت هدايـــــا   من نحوكم عـــذاب
فهل لكم فكـــــاك   من أسرها يعـــــاب
وقد عتبت يــــوما   ولم يفد عتـــــاب(4)

والناس تذم الشيخ إن سكت أو شكر ، لكنه يملك نفسا أبية ، لا يقبل أن يعاب :

والطبع مني يـــــأبى   أن يســــــدل النقاب
أقول مـــــــا أراه   ولتقم الكـــــــلاب (5)

---

1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 02.
3.2.المصدر نفسه ج1.ص: 04.
5.4. المصدر نفسه .ج2.ص: 31- 32.

وكتب الشيخ التليلي رسالتين إلى (عبد القادر الزياني)بتونس يعاتبه فيها على الهجر ، وعدم الرد على رسائل الشيخ قائلا :

أيها الزيـــاني زيـــــنِّ مكتـــــــبي يوما برد
واكتـــب العــتب ودون إن يكن ذنـــب وجد
فمـــلام الشيـــــخ هين وعتاب الخـــــل ود (1)

والشيخ لم يفقد الأمل فأخذ يلتمس الصفح منه قائلا :

طالبا عفوا وصفــــحا من صديــــق معتمد
أفلا يلقى حميمـــــــا واسع الصدر حـــمد
كن عطوفا وابـــــن ماء موردا منـــــــــه أرد (2)

والشاعر شديد الغيرة على بلاده ، حريص على تطويرها والنهوض بها ، لكنه يجد الناس له بالمرصاد ، يعيبون تمسكه بالدين والدفاع عن الوطن ، فكتب رسالة لصديقه في السجن (3)، يشكوه ويعيب اهتمام الناس بالملهيات :

أنتم إذن نسوة في البيت قابعـــة ترجوا الرجال لدفع العار عن بلد
لا فرق بينكم يا قوم في صـــفة وبينهن سوى الأسمـــــــاء والبرد
مَن للحواضر أو مَن للنساء بها ومن لكم أنتم في ليلة الســـــــأد (4)

ويبين له مكانته في نفسه قائلا :

هم النجوم وأنت البدر بينـهـم وربما كنت ماء سائغا لصـــدي
أبا الرشيد تقبل منـــي تذكـــرة تحدد الوصل بين الكف والعضد
قوم سمعنا بأن الضيف سيدهم وأنهم سادة للـــــــسادة العمد
قداحهم بخصال الحمد فائـــزة أقداحهم بصفات الجود في مدد(5)

وقد نظم صاحب له من مكة المكرمة رسالة عتاب ، فرد الشيخ التليلي بعتاب مماثلة :

وبعد فاعلـــــم بأني بلغت منك الســـلام

2.1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 54- 55/54.

3. التقيت بالسيد عبد الرحيم سعد الله في بيته ـ وهو صديق قديم للشيخ التليلي ومهتم بآثاره ـ أخبرني أن الرسالة كتبها للشيخ عبد القادر الياجوري عندما كان في سجن بسكرة.

5.4. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 34/35- 36.

وفي القميـــص عتاب ملفلف بالســــــهام

يا لائمي لا تلمـــــني وعد عند المـــــــلام (1)

وأخذ يشكو الهموم وقسوة الدهر الذي أخذ ينتقم منه ، فضاع فكره ، واختلطت أقواله وأفعاله بين الصحيح والخطأ :

فلســـت والله أدري فمشيتي في الظـــــلام

فمن يلم بـــــعد هذا فهو الصديق المـــــلام (2)

كما كتب له أحد الأصدقاء من مكة رسالة أخرى ، ضمنها شكوى من جفوة الزمان وجفاء الإخوان ، فرد الشيخ التليلي على الرسالة بنفس البحر والروي ، وضمنها أبياتا من قصيدته قائلا :

لقد بعثـــــــت إلينا شعرا من النظـــم حرا

"إن سامك الناس غدرا وما راعوا لك قـــــدرا "

فقلت كلا تمهـــــــــل بل سامني الدهر ضــــدا (3)

وإلى مكة المكرمة كتب الشيخ التليلي لصديقه (محمد سعد الوادي) ردا على رسالة اشتملت مقطوعات شعرية ، و كان جواب الشيخ مشابها ، ويشكره في مقدمتها على الكتب التي أرسلها له(محمد سعد) ، ويشكوه من المرض والناس :

أنا أشكو من السقـــام وداء مزمن قد بــــدوت عليلا

ما أرى في الورود إلا اشتياكا لا أرى فـــوق وردتي إكليلا (4)

ونظم الرسالة في مقاطع ، يشكو طفولته المعذبة ، وشبابه ، حتى وصل إلى المشيب :

وعام الشيب يعدل كـل عام من السواء منقطع القــــرين

ولست بحاسب سني وعمري بميلادي ولكن بالأنيـــــن (5)

وكتب له رسالة أخرى يشكو الناس وظلم الدهر :

كلما قلت سوف أخفي همومي وحزوني عن الجميع نفاقـــا

لاحقتني الهموم في كـل أرض حيث كنت كانت الســـباقا

3.2.1 ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 69/70- 70- 72.

5.4. المصدر نفسه .ج2.ص: 40.

وأرى الحزن لا يفـــــارق ظلي كأن بيني وبين حزني وفاقـــا (1)

وأرسل (محمد سعد) رسالة علمية مطولة إلى الشيخ التليلي مطرزة بأبيات منثورة ، ورد الشيخ بمقطوعة يعارض ما جاء فيها ، ويذكِّره بأيام الصبا المتعبة :

لا تذكرن الصبا وأيام كنـت هنا فإنما كنت في هم وإكـــــدار

فإن جهلت الصبا وأيام كنت هنا فانظره في صبية في ملعب الدار (2)

أرسل الشيخ التليلي رسالة إلى صديق في مكة المكرمة ، وطلب منه أن يدعو له في البيت الحرام لأن دعاء الصالحين مستجاب ، ومسح على شكواه حزن مرير صادق ، قال :

كل ذهني وماتـــــــت الأفكار وتناهت من الدنـــــــا أعمار

عاد حلو الحديث في الـــذوق مر وجميل الكلام في الأذن عــــار

ويمني تقاصرت عن يـــــــراعي فهي رعديـــــــدة وفيها انبتار (3)

أظهرت الأبيات ضعف الشيخ وتعبه ، وزاد على ذلك عدم قدرته على الكتابة التي كانت سلواه الوحيدة بعد أن عزل نفسه في بيته :

تحية من غريب في مواطـــــــــنه به من الناس في أفكاره قـــــلق

يعيش في عزلة بالبيت تغــــمره تحوطه الكتب والأقلام والورق(4)

وتطرق للصحراء فأخذ يذمها قائلا :

فنجدي جفاف حصبه من جهنـم فما تربه مسك ولا العود عنبـــر

ولا روضه روض تعهده الحيـــا فكان له زهر أنيـــــــق ومنظر

بل الشمس تسقيه الحميم ولا ترى بصحرائه غير الرمـــــال تكسر (5)

ومن مظاهر توطد عرى الصداقة بين الشيخ وأصدقائه ، التي تبعث في نفسه الاطمئنان والراحة ، وإن كانت تصور ملامح التعب . مقطوعة أرسلها لصديق ضم إليها صورته سنة 1946 :

اقرأ ما شئت في ملامح رســـمي ما أنا فيه من حيـــــــاة القفار

فيناديك لا محالة رسمــــــــــي إنه الطاهر التليلي القمـــــاري

غير أن الظروف قد غيرتـــــــه فغدا وجهه حليك الغبـــــــار (6)

2.1. ديوان الدموع السوداء .ج2.ص: 43- 33.

4.3.المصدر نفسه.ج2.ص: 36.

5. المصدر نفسه .ج2.ص: 41/40.

6. المصدر نفسه ج1.ص: 89.

كما أرسل لصديقه صورة أخرى له مع أبيات شعرية قائلا :

عقدان من عمري الفاني قضيتهما والنصف بعدهما في جنة القـــاري
واليوم من جنة الفردوس أخرجني هم المعيشة مضطرا إلى النـــــــار(1)

وقد سادت الشكوى في قصيدة كتبها لصديق في تونس ، وكانت شكواه من أمور كثيرة مثل الزمان والناس وهموم الأولاد ، فقال :

لست أنس الأحباب ما دمت حيا يا صديقي ولو أســــــاؤا إليا
غير أن الظروف لم تتســـــامح فتخل اليراع يمشي ســــــويا
وجنود المشيب وهي عـــــدو هاجمت صحتي فلم تبق شيـــا (2)

وهكذا مسح الشاعر على شكواه حزنا مريرا ،و شكا آلامه إلى أحبائه وأهله ،وتنوعت رسائل الشكوى والعتاب بين الطول والقصر .

ونتقل إلى غرض آخر من رسائل الديوان وهي رسائل الاعتذار والتوضيح . فقد يقدم المـــــرء على أقوال وأفعال تكون مصدر إزعاج واندهاش للغير ، فيضطر للتوضيح أو الاعتذار ، وحياة الشيخ التليلي تعرضت للتحليل والنقد والتأويل في كثير من الأحيان ، وذلك بشهادة شعره وكتب الشيخ ست رسائل في الاعتذار والتوضيح ، منها رسالة كتبها لأبي القاسم بن الساسي في مكة المكرمة قال موضحا :

قرأنا في الرسالة ســـوء فهم فأحـــببت التفاهم عن تناء
فهمتم في رسالتــــــنا بأنا أهنا مــــــن أب أو أولياء (3)

وفحوى الرسالة أن الشيخ أراد أن يأخذ أباه للحج ،لكن الفقر أسكته ، فأخذ يشكي همومه مع التوضيح والاعتذار :

فلا والله لولا حفظ دينــــــي وحفظ مروءتي لعـلا ندائي
وأمكن أن أخالط كل خـــب وأملأ منه موفـــــورا إنائي
وأجمع بعدها زادا لحــــــج وأمكث في المدينـــة أو كساء
ولكن المروءة لم تطعـــــــني إذا حدثت نفسي فـــي الخلاء (4)

أما زواجه الثاني فهو موضوع يؤرق أصدقاءه . كتب إليهم موضحا أنه فرض قد قضاه ، ويطلب عدم

4.3.2.1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 89- 162- 07- 08.

معاتبته ، ويعتذر عن إهماله لهم طول هذه المدة ، وعدم إيفائهم حقهم :

وهل من الحـــــــق أني أنسى الذي قد جـــنيت
من غرسكم وســـــواق بها ومنها ارتويـــــــت (1)

ويلتمس الصفح والعفو إن اقترف ذنبا في حقهم :

الصـــــفح والعفو منكم إن كنــــت جرما جنيت
وإن يكــــــــن من جزاء فبالرضــــــــاء اكتفيت (2)

وعندما طلب منه أن يبدي رأيه حول كتاب اعتذر موضحا أن لكل إنسان رأيه الذي يدافع عنه :

لا رأي لي في مــــــثل ذا فسواي أعلم بالسؤول
هذا يقـــــــول وذا يقـــــ ـول وذا يقول وذا يقول
كل يؤيـــــــــد قولـــــــه بالرأي أو شتى النقول (3)

ومن رسالة كتبها إلى الشيخ (غدور) بمكة ،يستوضحه في الكتب التي فقدها ، ثم نظم رسالة أخرى يعتذر ويصحح ما جاء في الرسالة الأولى :

وبعد ذا أعلمـــــكم يا ناسي بأنني أخطأت في القـــياس
حيث ذكرت في الخطاب الثاني أن الذي فقدتـــــه في الآن
مجلد الجزأين أعني الخـــــامس ومعه في ذا القِمَطْرِ السادس
أعني ضعيف الجامع الصغير إذ قد سهوت عنه في التحبير
فلا التفات في الخطاب الثانــي وإنما لأول ذي شـــــــــان(4)

ويمتزج التوضيح بالشكر على باقي الكتب التي اختارها له ،وأنها حسب طلبه مثل (كشف الخفــــاء للعلجوني) (تنزيه الشريعة لابن عراق) (خزانة الأدب للبغدادي).

وعندما كبر الشيخ في العمر خانته يده ، وقلت الرسائل بينه وبين أصدقائه ، فكتب إلى (غدور)يصف حاله ويعتذر عن توقف الرسائل :

فإن أبطــــــــــأت في الرد على مكتوبـــــــك الهادي
فعجزي اليوم معـــــــروف وعذري واضح بـــــــادي

3.2.1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص:30- 31- 49.
4. المصدر نفسه ج2.ص:24.

وعفو منك غـــــــــدور أُرجِّي منه إمـــــــــدادي (1)

وفي سنة 1994 ازداد الشيخ في الكبر ،وافتك المرض نور عينه ، وارتعشت يداه ،مما زاد انزواءه وبعده عن الناس ،فكتب رسالة إلى (غدور حروز)و(محمد سعد الوادي) ، يتذكر فيها الماضي وتبادل الكتب والعلوم ، حتى فاضت عيناه بالبكاء :

يا جيرة البيـــــت ذي السنا وخيرة الأهـــــل والولاء

تحيتي سقتها إليـــــــكم بدمعها الفائـــــض الإناء(2)

ومع مرور الوقت ازداد البين بين الأصدقاء ، وتمزق حبل الوصال ، فكتب معتذرا عن انقطاع الرسائل :

أما أنا فاعتـــــــذاري أني أصبت في العـــين بالغشاء

وفي اليمين ارتعــــاش كف قد أفسد الخط بالتـــــواء

فهذا من بعض مــــا أراه من اعتذاري عن الوفــــاء

فإن يكن عذركم كعــــذري فقد أصبتم فذاك دائــــي (3)

وعندما نتطرق للروح الإيمانية العالية التي يتسم بها الشيخ نجد أنها أكسبته القدرة على التمييز بين الصحيح والخطأ ، وخلعت على الكثير من شعره سمة التوجيه والنصح ،فأينما رأى الخطأ حاول تصحيحه ،خاصة إذا كان الأمر يتعلق بنبذ البدع والخرافات التي اعتنقها الناس من الزوايا ،وكذلك بيوت الشعوذة التي كانت منتشرة ، ولها الأثر البالغ في نفوس الناس خاصة الكبار .يقول الشيخ التليلي ناصحا أحد الشيوخ بالتباع الحق ونبذ الابتداع :

لتدنس بالمطـــــــامع وجه علم فيـــــــك لامع

فهي خال في المجامــــع خال عار لا يزيـــــــن

يا إمام القوم دينـــــك قد أضرته يميـــــنك (4)

ويستعين الشيخ التليلي بالحكمة ليوضح له مكانته ، وحاجة الناس إليه :

ما هلاك النــــاس إلا من مليـــك قـــد تعـلـى

أو صـــوفي قد تخـــلى أو عليـــم لا يديـــن (5)

وأبرز دور العالم في إصلاح الناس ، وإلقاء الدروس والمواعظ ، وإنارة عقول الناس وليست تلك

---

1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 58.

3.2.المصدر نفسه ج2.ص: 82- 83.

5.4. المصدر نفسه ج1.ص: 137/136.- 137.

الأفكار التي اعتنقها الناس من المدجلين والمشعوذين :

لا دعاوي أو فـــــداوي أو حـــــروز أو تداوي

لا ولا دفـــــك داوي بين أبناء اللعـــــين (1)

ويتمنى الشاعر لو أن العمر يرجع فيعيش حياته ، ويسرح جفونه فيها كما يريد ، وينسى الهموم والأحزان بين جداول المياه وفي الرياض البهية والأمطار ، ولأن الزمان لا يعود ينصح أحد الطلبة الأصدقاء قائلا :

سرِّح جفونك يا فتـــــى في روضة الحســـن البهي

وكساها من نبت الربــــا مطر تعزز بالولـــــي

فانف الهموم بنزهــــة بين الجداول والقنـــــي (2)

لا يتردد الشيخ في استشارة أصدقائه إذا صعب عليه الأمر ، حتى يكون موقفه صحيحا ، فكتب يستشير صاحبه ، فطلب منه السفر :

عجزت وربـي أن أحاول حيلة بها تسكت الأرواح من جانب الغرب

فقلتم ركـوب الجو أنفع حيلة إلى نجلنا عبد الحميد مع الـــــركب (3)

لكنه قد يحتاج إلى النصح وهو النصوح ، وقد عرفها عندما جرب ، لذلك أراد لصاحبه أن يستفيد منها ، فطارت إلى مكة نصيحته :

خلِّ قلب الحب في أم القـرى فارغا إلا لهـــــا مطلبا (4)

و اشتكى (غدور حروز) للشيخ التليلي من حوادث الزمان ، وهو يعلم أنه أيضا قد تأذى في حياته ، وكانت رسالة الرد التي كتبها الشيخ التليلي ممزوجة بين المدح والنصح ، ويتمنى أن يجمعهما الله في دار الخلود ، لذلك ينصحه أن ينسى الألم والماضي ، وينتظر الغد المبتسم :

وأن الإله سيجـــــمعنا بدار الخلـود ودار النـــعم

وثَم نلاقي جميـــع الرفاق وطير الســرور يغني النغــم

ألا كلنا في انتـظار الرحـيـ ـل إلى خيــر دار ورب رحيم

تعزَّ أخي وانس ما قد مضى وكن في انتظـــار الغد المبتسم (5)

3.2.1 ديوان الدموع السوداء .ج1.ص: 138- 160- 26.

5.4.المصدر نفسه .ج2.ص: 35- 59.

و أعقبها بالسلام والشكر على الكتب التي أرسلها له محمد سعد الوادي منها كتاب (نظم قطرب)(وابن تيمية)(دلائل التوحيد الأربعين)وغيرها من الكتب ، وقد وصلته في ثلاث رزم :

فتلك التي قد بعثتـــــم بها　　　من الكتب جاءت ثـــلاث رزم

فهذي الرسالة قد سجـــلت　　　هدايا كريم مديم الديـــــــم (1)

استمد الشيخ التليلي النصح والإرشاد والتوجيه من تجاربه الخاصة التي خاضها مع الناس والزمان، فمن رسالة بعثها لصديق قديم، تقدم به العمر، وجد أنه يستحق وسام المدح قبل النصح فقال :

فجالستَ الشيوخ وأنت شيخ　　　ولابست الشبـــــاب ولم تراع

فحدث عن حصور أو هصور　　　تمتع أو تمنع ما استطـــــــاعا

ولا تخش العثار وكن هنـــيئا　　　فإن الجهد علمك الصّراعــــــا (2)

لم ينس الشيخ أصدقاءه الذين ساعدوه وأمدوه بالكتب ،ورد على رسالة عتاب بلغته من صديق، ولم يبرح فيها غرفة الطبيب فالمرض داء ، وعتابه أقراص دواء ، يقول :

بلغ الدواء بحـــــــبه وبمائه　　　وتكســـــــــرت أقراصه بإنائه

وانساح من ماء الزجاجة جله　　　لكن في الباقي كـــــــمال شفائه

وكذا الرسالة بلغتني لـــومكم　　　متقمصا في طيها بكســـــــــائه (3)

ومن نص رسالة أخرى كتبها الشيخ لصديقه العروسي بعنابة يشكره على هدية الزواج :

حوت من البـَــر صنع كف　　　من أعرف النـــــاس باللبـــوس

وجلده من قماش قطـــــــن　　　كأنه الخمر في الـــــــــكؤوس(4)

وعندما أهدى الدكتور أبو القاسم سعد الله للشيخ التليلي نسخة من كتابه(تاريخ الجزائر الثقافي بجزأيه، بعث له الشيخ شاكرا ومعبرا عن إعجابه بالكتابين فقال :

لقد أهديت لي صفــرا جليلا　　　في تاريــــــخ الثقافة للجـــــزائر

نظرت إليه من بعد وقـــرب　　　فقلت البحر تستره الدفاتـــــــــر

وعهدي بالسباحة من قديـم　　　فخضت عبابه والبحر ثائـــــــــر

وقلت أغوص ألتقط اللآلـي　　　فبحر الشيخ معروف الجواهـــــر (5)

---

1. ديوان الدموع السوداء . ج2.ص: 60.

5.4.3.2.المصدر نفسه ج1.ص: 142- 154- 155/154- 151- 84.

والعلاقة بين الشيخ والدكتور وطيدة ، تثقلها مؤلفات الدكتور المرصوفة في مكتبة الشيخ :

فليســـت هذه أولى المزايـــا   من الشيـــخ الجليل ولا البشائر

فكم نورت مكتـــبتي بكتب   تؤلفها وكــــــم لك من مآثر (1)

بعث الشيخ خمس عشرة رسالة شكر لأصدقائه وخلانه في مختلف المناطق ، وتتسم إخوانيات الشيخ بالجدية وتبادل المعارف والعلوم والكتب ، فمن رسالة بعثها لأحد أصدقائه يقول فيها :

تحـــية زكيـــــــــة   طيبة لطيـــــــب

في ضمنها رسائـــــل   أربعة من كتـــبي

أولها مـــــــسائل   تشرفت بالنســـب

والثاني في المحذوف من   قرآننا المحـــــبب

وثالث قصـــــــيدة   مرآة عمر متعـــب

ورابع (مقتطـــفات)   من ديوان مختبـــي (2)

ويثني على صفاته الحميدة ، ومساعدته للناس :

فمن تكـــــن صفـاته   كوصفكم لم يتعب (3)

وأرسل له صديق من مكة ـ لم يذكر اسمه ـ مجموعة من الكتب سنة1978. عدها خمسة عشر كتابا فقال :

وردت إلي من فاضــــــل   خل وفي للمحـــامد جامل

أهدى إلي من المكاتب خيرها   كتبا تعد ذخيرة للعـــــامل (4)

وذكر في الأخير اسم صاحبه وهو (غدورحروز) ، وأخذ يشكره على الهدية ، التي تختلف عما يحضره أهل البلدة ، عند قدومهم من الحج :

تلك الهدية لا قماش يرتدى   أو ماء زمزم أو بخور الفائل

لله أنتم يا ابن وادينا الـــذي   أمطرتمونا بالغزير الوابـــل (5)

وقال أيضا من رسالة أخرى للدكتور سعد الله يشكره على هديته

يا مهدي لي جـــــواهرا   ثميـــــنة من ذخــــرك

أهديـــــت لي مؤلـــفا   ألفتـــــه في كــــبرك

5.4.3.2.1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 85- 22/23- 23- 109- 110.

مــن كتـــــــب عديـــدة في نشـــــركم وشعــرك

أحســــنت صنعا ســيدي أدخلتــــــني في قصرك (1)

وبتعدد صداقات الشاعر تكثر المنافع ، ويكثر معها تبادل الكتب ، فمن رسالة شكر كتبها الشيخ التليلي لصديقه (محمد سعد الوادي)يشكره فيها على الكتب التي أرسلها إليه ، حيث يقول :

أهـــدى إلي هديـــــة من خير أنواع الكتــب (2)

كما أرسل له صديق من مكة مجموعة من الكتب ، فكتب الشيخ التليلي رسالة شكر ، وذكر الكتب المهداة بالترتيب فقال :

منها هدايا لا هدايا الجــــاوي بل كتب مفيدة المطـــــــاوي

جزيــت يا مهديه خيــــر ناوي خير الجميع و الدعا المســـــاوي (3)

وكذلك بعث الشيخ رسالة لـ (غدور) يشكره فيها على الكتب والكساء فقال :

كاف الكتاب لروحنا ولجسمنا كاف الكســــاء مطهرا مسرودا

هذا السخاء وما سمعنـــا بمثله لسواكم في عصرنـــــا معهودا (4)

وبعث الشيخ التليلي لـ (محمد سعد الوادي)رسالة مستعجلة مبتورة ،شكره فيها على الهدية التي أرسلها قائلا :

هديــــــة ثميـنة إلى أخيه التُّكـــــــله

فكتبكم يا سيدي قد وصلت مزمـــلة (5)

وهذه الكتب منها (عقد اللآلي)(أصول الفقه ثلاثة أجزاء)(التوبة المستعجلة وغيرها ،كما أرسل الشيخ له (بريدة)وتمنى أن تعجبه ،وإلا فعليه أن يرميها في أقرب سلة ،فقال :

فهــــذه بريــــدة نسجـــــتها مهلـهلة

فإن قبلــتم لبســها فبردتي مفضـــــــلة

وإن أبيتم ســادتـــي فبيتها في المزبـــــلة (6)

وتمنى الشاعر لو أن حياته كانت مختلفة ، وأنه لم يعان ، لكان آمنا في حياته ، فكتب لصديقه قائلا

2.1. ديوان الدموع السوداء ج2.ص: 86- 30.

3.المصدر نفسه ج1.ص: 161.

6.5.4.المصدر نفسه ج2.ص: 60.- 65- 66.

من قصيدة مشطورة :

يا ليـــــتني فيها جذع　　　　أخب فيــــها وأضــع
أختــــار منها ما أشاء　　　　وما أحــــب من متــع
ولي زمـــــــان آمن　　　　من شغـــــب ومن فزع (1)

فلو كان حاله كذلك لاهتم بالكتب المرسلة إليه ،لينتفع منها . وفي الأخير يشكره على الكتب التي أرسلها فقال :

جزاكــــم رب الورى　　　　بكل خــــــير يصطنع
ثم الســـــــلام ختمه　　　　من التليلي يُـــــستمَع(2)

وقال شاكرا أخر :

أسكتنا أفحمتنا أعــــــجزتنا　　　　يا مهدي الشيء النفيس لك الهنا
من ذا يعــارض واديا في سيره　　　　أو من يقاوم سيله إن دنـــــدنــا (3)

ويؤكد الشيخ أن الكتب المهداة إليه من مكة خاصة ،هي أثمن الهدايا التي يـؤتى بهـا مـن الحـج ، فـلا هـي كحل عين ولا قماش ولا ماء زمزم و ردد ها الشيخ أكثر من مرة ،وهو بذلك يعيب أهل البلـدة الـذين لا ينتفعون من علم مكة .

إن الرسائل التي تبادلها الشيخ التليلي مع أصدقائه ، تحمل منفعة مادية في تبادل الكتب والعلـوم ، رغـم بعد المسافة بينهم . فهو يرسل ، وترسل إليه المؤلفات. ولاستكمال الفائدة يلجأ إلى اسـتعارة الكتـب مـن أشخاص آخرين كلما احتاج إلى ذلك . من مثـل رسـالة كتبهـا لتلميـذه القـديم ، يطلـب إعارتـه ملخـص كتاب الأغاني . استهل القصيدة بالمدح قائلا :

أ إبراهيــم يا كنز الأمـــاني　　　　وغاية قاصد وثمار جـــــان (4)

وطلب أن يستعير الكتاب مدة شهر ، ووعد بأن يحافظ عليه فقائل :

رجوتك لا تخـيب لي رجاء　　　　وخل الشكر ينشـــــره لساني
فمثلك خص مثلي في احتياج　　　　ومثلي خص مثلك بالـــتهاني (5)

لقد غادر الشيخ العالم المزدحم بهدوء، واستقر قي بيته منعزلا ، طمرته الرمال المتراكمة، وانقطعت صلته ـ

3.2.1. ديوان الدموع السوداء ج2.ص: 57.- 58- 42.
5.4.المصدر نفسه ج1.ص: 130.

0إلا عن قليل ـ فإذا برسالة تصله من صديق قديم هو (محمد الطاهر فضلا)(1)، و كانت دهشة الشيخ كبيرة بقدر فرحته ، والقصيدة تنبئ على ذلك وهي بشكل حوار فقال :

ما اســـم هذا الخل خلي قـــال (طه فضـــــلا)

قلـــــت لي أهـداه حقا قال حقـــــــا للولا

قلت هل يــــدري مكاني ومكـــــــاني في الخلا (2)

ومن رسالة بعثها الشيخ لأصدقائه يشكرهم فيها على الكتب القيمة التي وصلته منهم .أخذ يتذكر أحباءه وأيام الاجتماع لتدريس القرآن الكريم ، فاستهل القصيدة بالمدح قائلا :

يتامى العقد في الأخلاق حسنا وحبات الجمان من السيخاب

ومجمعـــــهم إذا اجتمعوا بناد لذكر الله مجتـــــمع الثواب

رياض جنانهم أزكى وأذكـــى من الروضات طيبا كالملاب (3)

وننتقل إلى غرض التهاني فعندما تحصل صديقه ورفيق دربه الشيخ الحفناوي على شهادة التحصيل من تونس سنة 1936م . فرح الشيخ التليلي كثيرا و كتب يهنئه :

أهلا بنـــور ســاطع أهـــــلا بنـــجم لامع

أهلا بمن نـــال العلا وجليـــــل علم نافع

اليوم نحفـــــل بالنهـ ـوض وبالرقـــي الجامع

هذا الذي تـــرك البلا ـد لنيل عــــلم رافع (4)

وينصحه بضرورة العمل لما فيه خير للناس، بعد أن سيطرت الخرافات، وتمكنت من عقول الناس وقلوبهم، ولا شك أن الاستعمار قام بدوره في تخريب الأذهان، ومحاولة طمس معالم الشخصية الوطنية، ودور الشيخ الحفناوي والشيخ التليلي تنبيه الناس وتوجيههم :

فاحرص على العلم الذي حصـــــلته في(الجّامع)

أن لا تدنـــــس وجهه بسفاســـــف ومطامع

إني لأعجـــب من جهـ ـول عرضـــة للصافع (5)

ويتعجب من المشعوذين الذين يدعون العلم :

1.محمد الطاهر فضلاء من مواليد 1918 بقرية تنبدار (سطيف)كاتب و مسرحي .

3.2.ديوان الدموع السوداء ج2.ص:54- 61.

المصدر نفسه .ج1.ص:140.- 141.

متلفع بردا العـــــــليـ ـم مبـــــرقع ب"الشارع"

ما العلم في تلك الوريـ ـقة من لفـــــيف وادع

حسب الوريقة أنـــــها عنـــــــــوان نهج شارع (1)

وعندما زار قمار الإمام التليلي شيخ زاوية سيدي أحمد التليلي في فريانة، كتب الشيخ التليلي رسالة تحية، ضمنها ترحيبا وفخرا بأصله العربي :

لدوحه ثالــث الخلفاء تعـــزى أصول الجد يشملها احــترام

له الشرف الـــرفيع لدى قريش وفي الوسطى مكانته تقـــام (2)

وأثنى على دوره في نشر الوعي و العلم في الناس :

فتدريس وتقديس وذكـــــــر ورياض المعـــــارف والنظام

بتقوى الله لا خوف البرايــــا تخر له الغطارفــــــة العظام (3)

وكتب الشيخ في غرض الشوق، وهو نتيجة طبيعية لافتراقه عن إخوانه وخلانه، والتزامه البيت، ما جعله يكتب رسائل تفيض شوقا وحنينا.فمن رسالة كتبها لصديقه أبي القاسم بن الساسي بالمدينة المنورة ، لم يحتمل الشيخ طول المسافة فبعث الرسالة مع أمواج البحر ولجج الفضاء، وأخذ يحكي ويبث أشواقه قائلا :

سلام يمتطـــــي أمواج ماء وقد يسري على لجج الفضاء

سلام كله شـــــوق وتوق إلى أفيـــــــــاء طيبة والبناء

بعثتُ به مغلغلـــــة رسولا إلى الشيــخ الملفلف في الكساء (4)

و يشكو انكسار جناحه الذي أقعده بعيدا عنهم، ومنع رحيله إليهم :

ولكن الجناح وُقـــــيتَ شرا كسير غيرُ مأمول الشــــفاء

وجسمي إن يكن عنكم بعيدا بأرض الرمل أو أرض الوبـاء

فقلبي عندكم في كـــل حين يحدثكـــــــم أحاديث الوفاء (5)

وخصه برسالة أخرى فيها شوق وحنين للقائه، وفرحة عارمة بالرد :

هبت رسالتـــكم صبا فكأنها حملت إلى غرب الديار بشامها

---

1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 141.

3.2.المصدر نفسه ج2.ص: 67- 68.

المصدر نفسه ج1.ص: 01- 02/01.

فتضوعت بعبيرها أرجـــاؤها وعلا السكوت من السرور كلامها

فلكم بها أحييتنا ولكـــم بكم أسكبت بالبعد النفوس رجامهـــا (1)

وإن كان بعد المكان قد فرقهم، فإن في المنام إمكانية لجمع الخلان.ولا يجد الشيخ إلا صديقه ليبثه أحزانه :

فوددت أن خيالكم قد زارنـــي في ليلة ذقـــــــت الهني منامها

فأبثه شكوى الفهامة علــــــه يحكي الحقيقة حافـــــظا أحكامها (2)

ثم يذكره بأذى الناس عندما كان في البلدة ، وشبههم بالعقارب وشبه البيت بالظلام قائلا :

فالدار ليــــل والأنام عقارب والنعل مـــــا رضيت لنا أقدامها (3)

واشتاق الشيخ لصديق له في السجن فكتب له رسالة امتزج فيها الشوق بالفخر والشكوى ، وإن كانت هذه الرسالة لم تصله ، حيث قال :

عاب العواذل واللوام معتقدي فيكم وفي حبـــكم هددت بالرصد

دامت لهم نية أني فتنت بكـــم ونيتي أنهم صنـــــــف من النقد (4)

ويشبهه بالبدر قائلا :

لئن تباعدت عن أهل وعن وطن فما تباعدت عن شـــبل وعن أسد

هم النجوم وأنــــت البدر بينهم وربما كنت ماء سائغا لـــــــصدي (5)

أما حياة الصبا، فالشاعر لم ينسها أبدا، خاصة أيام الدراسة في تونس فكلما ذكرها تذرف عيناه دموعا على رحيلها، فمن رسالة بعثها إلى صديق بتونس، يتذكر أيام الطلب بجامع الزيتونة في جو حزين قائلا :

أين أيــــامي الطــلية أين أعوامــــــي الهنية

تركت بالقــلب نـارا أكلت كل شظـــــية

غير أنـــي بدمـــوع الذكريات الأوليـــــة

أطفئ الجمـر وأمضـــي للعصور الذهــــــبية (6)

لكن دموعه هي التي تطفئ نار الحرقة، وتزرع فيه البهجة والفرح.ويتذكر أيام الدراسة واجتماع الأصدقاء ،ولعبهم وإنشادهم للأغاني الوطنية في جو شبابي يوحي بالسعادة :

نطرب السـع ولكـــن بالأغاني الوطــــــنية

2.1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 122.

6.5.4.3.المصدر نفسه ج1.ص: 123- 33- 36- 155.

نترك الـــدرس ونلهو   باحتفالات زهيـــــة

حفلنا حفـــل ملـــي   بالنكات الأدبيـــــة (1)

ومن رسالة أخرى كتبها لصديق في تونس، افتتحها محييا إخوان الصفاء(أصدقاءه)وأشياخه وخلانه، وبث فيها شوقه لتونس وجامع الزيتونة، فهو يتذكرها دائما لأنه عاش فيها أحلى أيامه، ومن شدة شوقه يقول:

فقلبي لا يلـــذ له حديـث   سوى في تونـس ذات الدلال

فتونس آنست قلبي وفكري   وأنستني العشـيرة والأهـالي

فحبها تخـــلل في فـؤادي   وحل مع العقـيدة في الخيـال (2)

ويبين أن ما أسر قلبه جامع الزيتونة وليس البلد (تونس):

(فما حب الديار شغفن قلبي)   ولكن حـــب آيات الجلال (3)

ويتذكر الدروس التي كان يتلقاها على يد مشايخه من نحو وصرف وبلاغة وجبر وتاريخ وإنشاء... ولشدة فرحته بالدروس يقول أن من فاته دروس الجامع فقد مضى عمره هدرا :

فطوبى للمجاور في حـماه   يقضي العمر في الربع الخصيب

فعمر المرء يذهب دون نـفع   إذا ما فاته درس الأديـــب (4)

ويبلغ في الأخير سلامه لجامع الزيتونة :

وللمعمور جامعـــنا سلام   وللخضراء من غصـــن رطيب

وداعا جامع الزيتـــون مني   وأشياخي وكل فتى حـــبيب (5)

ويزداد شوق الشيخ لأصحابه حتى يجافيه النوم ليلا، فيبلغ سلامه مع الفجر، ويصف حاله :

ويا ساعة بعد الوداع وقفتها   وحيدا كأني الميت في ظلمة القـبر

أيرضيك أن القلب يغلي كآبة   وأن دموع العين فاض بها حجري (6)

ويقبل الرسالة التي يبعثها إليه، لعلها تلامس كفه أو ثغره :

وأقبل مكتوبي إليـــه لعله   يلامسه بالكـــف منه أو الثغر

وأطويه طيّ ثم أنشر طيـــه   وألثمه أخرى لـــدى الطيِّ والنشر (7)

1.ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 156.

3.2. المصدر نفسه ج1.ص: 107.

5.4. المصدر نفسه ج1.ص: 19.

7.6 المصدر نفسه ج1.ص: 78/79- 79.

وننتقل مع الشيخ إلى غرض آخر من الرسائل الإخوانية ، وهي الرسائل الإخبارية ، فأصدقاء الشيخ جلهم خارج الوطن ، بين مكة ، والمدينة ، وتونس ، فكان يرسل لهم رسائل يخبرهم عن أحواله ، وينقل التطورات الاجتماعية والسياسية في قمار والجزائر عامة ، خاصة أثناء الاحتلال الفرنسي للجزائر. فمن رسالة كتبها إلى صديق و قريب له في تونس سنة1934 يخبره أن لا أصدقاء له منذ قدومه من تونس ، لذلك انعزل في منزله ، وأخذ يهيئ نفسه للزواج قائلا :

أما أنا فليـــــس لي رفيق　　　في هذه البـــــلاد أو صديق

فحالتي في مســكني اعتزال　　　من كتب ألفهـــــا الرجال

وقد بنيت للزفـــاف مسكنا　　　به المسرة قريبا والهنـــــا (1)

وفي سنة 1941كتب الشيخ التليلي رسالة مطولة إلى أبي القاسم بن الساسي ، ضمنها العديــــــــد من الأغراض ، وقد أخبره عن أحوال البلدة ، والتغيرات التي وقعت ، و ازدهار النشاط التجاري فكتب قائلا :

أقاموا بالمدارس ســوق علم　　　فمن بيـــع يلذ ومن شــراء (2)

وازدهر النشاط العلمي في قمار وباقي القرى المجاورة ، حيث افتتحت المدارس ، وبدأ الكبار يتدارسون بعد العشاء الفقه والتفسير ، ويدرس الشباب في النهار ، كما سافر الكثير إلى تونس من أجل الدراسة :

بمدرسة النــجاح بدت قمــار　　　وأقمار المعــــارف في جلاء

تعلم ما تــزايد كل عــــام　　　على مائة موفرة الـــــذكاء

ودرس للعــجائز كـل يــوم　　　يقوم به المشايخ في العشــــاء (3)

وفي جعبة الشيخ نبأ آخر يخص الفلاحين ، فقد اجتمعوا وشكلوا نقابة تحميهم وتدافع عنهم ، لكنها فشلت بسبب حسد النفوس :

خباء نقابة تحمي حمــــاهم　　　وتدفع عنهـــم كل اعتداء

ولكن والتأسف ملء قلــبي　　　سيعصف غمــرها داء الرياء(4)

وتستقر الرسالة الثانية عند هالي الحفناوي سنة1945 ، وهي سنة غضب الشعب الجزائري ، كما هي غضب العالم بأكمله خلال الحرب العالمية الثانية ، ولم يسلم لسان كبير أو صغير من الحديث عنهــــا ،

---

1. ديوان الدموع السوداء ج2.ص : 29.

3.2. المصدر نفسه ج1.ص : 06.

4. المصدر نفسه ج1.ص : 07.

وهي رد على رسالة كتبها له الحفناوي ، فأبدى إعجابه بأسلوب الرسالة قائلا :

أما النظيم فإنه الجـــــــــوزاء في حســــن وبعد (1)

وفتح باب الحرب العالمية الثانية على مصراعيه ، يذكر أسماء قادتها غاضبا :

يكفيك هتـــــلر شر حر ـب ذقتها أســـــدا وفهد (2)

وقد جعل الشيخ هذه الحرب انتقاما لمقتل المسلمين في حروبهم ضد الروم :

يا مــحرقا للـــمسلميـــن بأرضهم لقـــديم حقد

مت خائنا فـــي أرضكم برصاص أحفـــــاد وولد (3)

وفي سنة 1946 كتب الشيخ التليلي رسالة إخبارية ثانية لصديقه أبي القاسم بن الساسي، جمع فيها أخبار الجزائر عامة و قمار خاصة، وذكر أصدقاءه بأسمائهم، وتحدث عن أخبارهم، وبدأ القصيدة بالشوق للقائهم، و بعدها نقل الخبر تلو الآخر ، منها خروج النواب من السجن، واشتراكهم في الانتخابات ، لكنهم تعمدوا تأخير خروج(مصالي)من السجن خوف نجاحه :

وخلف المصالي عن التسريح قبل انتخاب خشية التصريح

ثم المصالي بغية النصيـــــح إن فـــــاز في انتخابه الربيح

ونحن ريش في مهب الريح(4)

كما اتجه الكثير من الشباب إلى العلم والدراسة، وعزموا الرحيل إلى تونس لاستكمال الدراسة .ويخبره عن أصدقائه الذين كانوا معه مثل الياجوري الذي استقر بغليزان معلما، والطيب لقماري، استقر بالعاصمة مع أسرته، والحفناوي هالي وجد في بسكرة المقام. أما خارج الجزائر فقد استقر عمار بن لزعر في المدينة المنورة .

وننتقل إلى غرض آخر في الرسائل وهو الرثاء الذي كان الشاعر يحزن فيه كثيرا على رحيل المحبـــــوب من أهله وأصدقائه، حتى ينهك قلبه :

كم نال قلبي من فراق أحـــبتي سهم أصــــاب وطعنة بسنان

إن المصائب جمة وأجلهـــــا فقد الحبيـــــب وفرقة الخلان (5)

وبلغه نبأ وفاة صديقه عبد القادر الزياني ، فقال :

4.3.2.1 .ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 40- 41- 42/41- 04.

5. المصدر نفسه ج2.ص: 53.

واليوم أقرأ في رسالة صادق موت الصديق صديقنا الزياني
فتـألم القلب الجريح لموت فبدت دموع القلب في الأجفان (1)

واعتمد الشيخ على المديح، وإظهار محامد الميت، وهي سمة بارزة في رثاء الشيخ التليلي التي اكتسبها من الرثاء العربي القديم :

يا خادم العلم الشـريف سنيه نم هانئا في جنة الرضـــــوان
يا صاحب الخلق الكريم مزملا ومدثرا بالجود والإحـــــسان (2)

ونظم قصيدة عزاء للدكتور أبو القاسم سعد الله عند سماعه نبأ وفاة والدته :

عزائي إليك أخي في المصـاب مصاب عزيز عـــلاه التراب
عزائي إليك وإني شريـــــك فلي من مصابك سهم أصاب (3)

ويذكره بأن البكاء لا يجدي نفعا ، وإنما ينبغي الدعاء لها :

فليس البكاء وليس العويـل بمجد لديها غداة الحســـــاب
أخي أنت من بعدها قيـــــم ورب لبيت عراه اكتئـــــاب
فراع البنين وراع البنـــــات يصد السباع وطرد الكـــلاب (4)

وننتقل من الرسائل الإخوانية بأغراضها المختلفة إلى غرض آخر لا يقل أهمية في الديوان وهو الفخر والمدح .

الفخر والمدح :

الفخر هو باب واسع من أبواب شعر العربي، يعبر عن ميل الشاعر للعزة والأنفة ، ويقصد به (تعداد الصفات وتحسين السيئات)(5)، ومما يلاحظ في الديوان أن الشيخ التليلي لم يعتمد على فخره بنفسه، وإنما قصر الفخر على غيره مثل زعماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.خاصة الشيخ عبد الحميد بن باديس، فعند زيارته لوادي سوف سنة : 1931 قال الشيخ مفتخرا :

هبي يا قرية الرمـــال هبي واجبات اللقـــا إلى خير ناد
هبي يا قرية الرمـــال وحي أسد العلم والهـدى والتحدي
هبي يا قرية الرمـــال ولبي سادة ذادة وقـــــــادة رشد (6)

ثم يشيد بأعمالهم وذودهم عن الدين :

2.1. ديوان الدموع السوداء ج2.ص: 53.
4.3. المصدر نفسه ج2.ص: 83- 84.
5.حنا الفاخوري : الفخر والحماسة .دار المعارف.ط5.س1992.ص: 05.
6. ديوان الدموع السوداء .ج1.ص: 37.

علّموا هذه الشعوب كرســل بيد أن الرســول بالوحي يهدي
كبحوا من جماح بعض أناس قد تعدوا بجهـــــــلهم كل حد
فانظر الكون حادثا وقديمـــا هل ترى الجائرين في لوح حمد (1)

يتفق الشيخ مع مبادئ جمعية العلماء المسلمين ، فيدعمهم بنصحه قائلا :

إيه جمعية العلمـــــــاء سيري وانشري بيننا صحائـــــف ود
وامسحي الأرض بالثقافة مسحا واتبعي الغور إن مررت بــنجد
وارفعي راية الجزائـــــــــر إنا قد سئمنا السباب من كل فــرد (2)

كما نظم قصيدة استقبال لبعض زعماء الجزائر :

أهلا بكم من قائـــــد أو مرشد أهلا بكم من فاتح مجـــــــدد
أهلا بكم فخر الجزائــــر كلها رغم الحقود ورغم أنف الحسد
شرفتم الوادي وتربــــة أرضه فحللتم باليمن أعذب مــورد (3)

ويستمر في تعداد مآثرهم قائلا :

يا من بكم فخرت شعوب جمة وفخرتم بالشعب شعب أصـيد
يا من بكم خفق اللواء مرفــرفا فوق الجزائر بالهلال الأسعــد
يا من بكم رفعت رؤوس طــالما ركعت لطاغ مستبد أبعـــــد (4)

كما نظم قصيدة عندما علم بزيارة وفد جمعية العلماء بقيادة الشيخ الإبراهيمي سنة 1962لوادي سوف ، لكن الزيارة ألغيت وألغي معها إلقاء القصيدة ، والشاعر بدا فيها شديد التحمس لاستقبال الوفد ، يقول :

وطن الرمال دس المجـرة وافخرا أو ما ترى طير السعــادة بشرا
أو ما ترى هذي الجموع تقاطرت تسعى لتسمع لحنه لما انــبرى
وصفت له سوف فــحلق قاصدا أدواحها ليبث فيها الجوهـــرا (5)

وقد امتدح قادتها ، وأعمالهم الجليلة ، ودورهم في نشر الوعي بين أفراد الشعب الجزائري ، ووقوفهم في وجه المستعمر :

ما هاب يوما قــــــوة من قاهر أبدا ولا ولت يـــداه القهقرى (6)

2.1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 38.
6.5.4.3.المصدر نفسه .ج1.ص: 43- 45- 86- 87.

حماسة الشاعر أخذها من فرحته بقدوم الوفد ، وقد طلب من الناس الخروج للاستقبال :

يا أهل ذا البلد الموقر وقـــــــفة تحيي لكم ميت الفضائل والقرى

فتشاركوا الأخيار في نهضاتهـــا وتعاونوا في البر بـــــــــراً أكبرا (1)

وهـو في فخـره صـادق كـل الصـدق ، لأنه يتحـدث عـن واقـع جديـد ، وروح إيمانيـة صـادقة بنصـرة هـؤلاء الأبطال الذين نفضوا غبار الذل والجهل.ولاشك في أن صدقه وراء تلـك الحيويـة الـتي تميـز فخره ، وذلـك لأنه يصور واقعا لا وهما من أوهام الخيال.

وانتقل الشيخ إلى الفخر بفتى الصحراء وأجداده ، فوجد مجالات الفخر واسعة أمامه :

فتى الصحراء يا ابن بني هـــلال وليد العـــــرب في ارض الرمال

يذكرك الأوائل من جـــــدود فتذكر ســـــــادة في كل حال

أتوا كالشمس يتبعها ضيـــــاء إلى أرض الجزائــــــر والشمال (2)

وهكذا يستحق أجداده الفخار دون البشر ، وتشهد أعمالهم على ذلك ، فهم خلقوا للمجد :

حموا بالقضب مصحفهم زمانا فرفرف فوقه علم الهـــــــلال

قد مزجوا دماءهم بتـــــــرب عليه اليوم تخطر في اختيــــــال

جدودك يا ابن أرضهم أنــــاس حموا عز الأمانة بالنصـــــــال (3)

وأراد أن يخلع شجاعة قومه وأجداده على أبناء البلدة ، فأخذ يحثهم على الإقتداء بهم :

فلا تك يا فتى الصحـــــراء كلا وكن مثل الجدود ولا تبـــــــال

وسدد مثلما فعلوا سهامـــــا إلى الأعداء مرهفة النبــــــــال

تعالوا وانفضوا عنكم غبـــارا تعالوا وانفضوا نوم الخبــــــال

نصحتك يا فتى الصحراء فاسمع نصيحة والد ودع التقــــــالي (4)

والشاعر من خلال القصيدة جنح إلى الفخر العربي القديم ، الذي يخلد مآثر الأجداد ومفاخرهم ، والهدف منه ليس مجرد الفخر وإنما بث العزيمة في الشباب الجديد من عصره ، ليخلفوا تراثا وعلما ومجدا كما فعل الأولون .

وذكر الشيخ التليلي مجموعة من علماء قمار ، وافتخر بأعمالهم لتكون مصباحا ينير صورهم الفوتوغرافية

4.3.2.1 ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 88- 101- 102/101- 103/102.

التي أُخذت لهم بالعاصمة الجزائرية سنة1946 :

خمسة من شباب أهل الصحاري هم بدور لأرضـــها و الدراري

هاك أسماءهم وهـــم عن يمين التليلي والهالي والأنـــــصار

واليجوري بعده وعـــــــلي بن سعد وقية عن يســـــــار

هم لزيتونة العلـــــــوم ثمـار وهم في الثمار خير ثمــــــــار

وإن يكن شتت الزمان دمـــاهم فلقد ضم ظلهم في إطــــــار (1)

أما الفخر بالنفس فهو قليل عند الشيخ ، ويستخرج من ثنايا القصائد فمن قصيدة (الجزاء من جنس العمل)يقول :

أما أنا فالـــــبدر فـي كبد السماء علا وكن (2)

وقوله أيضا في رد على رسالة بعثها لمحمد بن سعد الوادي :

إن كنت من نسل الأولى نسَلوا العلا فانا ومثلي من ردي الناسـل

أو كنت من نســــل الذين تقدموا بمعالم ومنائر للســـــابل

فأنا الذي أطفأت كـــــــل منارة بيدي ورجلي واللسان القاتل

أو كنت من آباء صدق أســـرجوا للفتح صهوة كل مهر صاهـل

فأنا الذي أجررت رمحي في الـوغى وكسرت رمحي طعمة للصآئل

لا فخر بالعظم الرمـــــــيم إذا أنـا كنت الرميم ولم أكن بالنائـل (3)

الـغزل :

تناول الشيخ موضوع الغزل مرة واحدة في احتشام حين تغزل بزوجته المتوفاة ، ولفه في ظلمة الليل كما تلفها ظلمة القبر، إذ لا يرى إلا من ثقب المنام غيرَ مصدقٍ ، وقد طلبت من قدور(صديقه) أن يعتني بالشيخ :

بربك لغز لبعـــــــلي وشيخي بأنك للعهــــــــد قد تلكز

ولست أرى روحها عــــــندكم بل إبليس في زيه يـــــلمز

فروح القرينة ليست بـــــــذاك ولكنه الطهر والجرمـــــــز (4)

ثم يسميها باسمها(أم الخير)في أكثر من موقع من القصيدة ، ويرد على عتابها ، ويتبادل معها أطراف

2.1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 90- 125.

3. المصدر نفسه .ج2.ص: 41.

4.المصدر نفسه. ج1.ص: 94.

الحديث :

أذلك من أم خير تخـــــــــال وأنت بمكـــــــــــة لا تفرز

فروح القرينة بل ذاتهـــــــــا يلازمني أينما أجمـــــــــــز

يحدثني بخلاف الـــــــــــذي يحدث روح لكم أحمـــــــز

وينثر فوق بساط الـــــــــوداد نثار المحبة أو يطــــــــــــرز

كلانا يقص ويفضي بمـــــــــا يكن من الوجد لا يوجـــــز(1)

المزح والقصص :

لقد عاش الشيخ التليلي ضغوطات كثيرة في ميادين عدة، أثرت على فكره وعمله، فكانت أعماله تتسم بالجدية المطلقة، وكانت له رغبة لا حدود لها في إصلاح أهل قريته، وبث العلم فيهم، ومحاولة حل مشاكلهم، فكان من الطبيعي أن يلجأ إلى الهزل والمزاح لينفس عن كربه، ويسلي نفسه، وإن كانت لا تخلو من نصح وإرشاد، حيث نأخذ منها مغزى يستفيد منه الكبار .ونبدأ بقصة اجتماعية لشيخ أراد الزواج، وهي على شكل مسرحية عمودها الحوار :

طرق الشيخ خاطبا باب جـــمع من نساء أقمـــــن حفلة عرس

قائلا من تريد منكن زوجـــــــا فتضاحكن من غبـــــاوة هرس (2)

وتتوالى الإجابات الساخرة من فئات متباينة من النساء، بدء بالصغيرة، والمرأة النصف، يقول :

عنسي ولا الشيخ العجوز الهارم ولو أنه الشيخ الوقـــــور العالم (3)

وينقل رأي أنواع النساء، حيث ترد المرأة العقيم :

الولد مفقود فما احتباسي والرزق موجـــــــود بلا مساس(4)

ويستمر حتى يصل إلى قمة الهرم وهي العجوز ، ثم ترد رهط من الفتيات بسخرية :

لا الدين نبغـــي ولا الحياء نراعي فلنا من الملاهـــي كل الدواعي

لا بيوت الـــزواج نرضاها سجنا نحن طير إلى الـــــــورود سواع

في البساتين كـــــــــل نوع ولون من شميم ولذة ومتـــــــــاع (5)

وقد أكمل الشيخ بقية القصيدة في الجزء الأول من الديوان على حرف الدال ، والقصيدة عنوانها(بعد

---

1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 94.

4.3.2. المصدر نفسه .ج2.ص: 14.

5.المصدر نفسه ج2.ص: 15.

الاستماع قلت بالتياع)، فبعد الحوار الذي جرى بين النسوة يرد الشيخ الخاطب، ويعلل سبب رغبته في الزواج، قائلا :

قلت بعد استمـــــاع كل جواب من نساء أســــــأن ظنا وردا

ليس من يدلي للــــزواج حبالا همه كله العسيلـــــــــة قصدا

قد يكون الزواج تعمـــــير بيت بصغار تقيـــــــك حرا وبردا

إنما البيت الوحيد ضريـــــــــح ميتا فيه ضـــــاق ذرعا ولحدا (1)

ويبين أن الأبناء كل مهتم بشؤونه ، فيقول :

أبنات وللبنات اشتغـــــــــال ببعول يدرن بيتـــــا وولدا

أم بنوه وللبنـــــــــين شؤون لم تذر للآباء حبـــــا وودا

لا تسلني عن الحفيد فإنــــــي لم أر في الوليد للخيـــــــر ردا (2)

يبقى الشاعر في نفس الموضوع، ويعالجه من زاوية أخرى، لقد تزوج الشيخ، وأبدى رأيه قائلا في قصيدة (نعمة الزواج ونقمته بالنسبة للزوج)وهي من ثماني وأربعين بيتا :

قالوا الزواج هنـــــــاء ونصـــــف ديـــن ملكته

قلت الزواج عنـــــــاء وكل شــــــيء أضعته (3)

يبدو أن الشيخ متشائم من زواجه، فقال :

كل النســـــاء أفاعي في سنهـــــا السم ناقع

في وهدة أو يفـــــاع الموت لابد واقـــــــع

تزوجتني ضئيلـــــــة من رقش تلك الأفـــاعي

بالرغم من كل حيلـــة ومن إبا وامتنـــــــاع (4)

ويعطي أخيرا رأيه في الزواج قائلا :

هذا الزواج خــــــبرته وغوره قد سبرتـــــــه

ذرعته وشبرتـــــــــه فكان ما قد زبرتـــــــه

أنا الخبير فسلـــــــني عن الزواج وســـــــره

فظاهر منه نعمـــــــة يراها من لم يجــــــرب

وباطن فيه نقـــــــمة يذوقـــــــــها من تقرب (5)

2.1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 52- 53.

4.3.المصدر نفسه .ج1.ص: 11.

5. المصدر نفسه.ج1.ص: 13.

يغير الشيخ الموضوع إلى غرض نقيض وهو الرثاء، ففي مداعبة بينه وبين أحد أصدقائه الذين كان يدرس معهم أيام الشباب، يطلب منه صديقه أن يرثيه بقصيدة، لأنه يفترض قد مات قبله، فيقول الشيخ التليلي :

يا قريبا أراه منــــــي بعــيدا وبعـــــــــيدا أراه مني قريبا
كم قضينا السنين نطلب علما يوم كان الشــباب غضا رطيبا(1)

ثم يذكر صداقتهما قائلا :

ما علمناك في الزمـــــــالة إلا رجلا صالحا وشهمــــا لبيبا
يا رفيق الحياة مذ غبـت عني صرت والله في الحياة غريـــبا
لست أنساك ما حييـت حنانا كيف ينس الحبيب يوما حبيبـا (2)

وقال بيتين يختار منهما واحدا يوضع على قبره :

هذا قبر المطوي قبر علــــــي يرجو من زائريه دعـــوة خير
قبر المطوي في هذا الثــــرى يرتجي فيه دعاء الزائريــــــــن (3)

الــرثاء :

الرثاء هو غرض قديم في الشعر العربي ، ويتفق مع المدح في كونهما يعتمدان على ذكر الخصال الحسنة ، لكن الشاعر (يبكي ويلحّن بكاءه على قيثارة شعره تلحينا مشجيا كله آلام وحسرات)(4)تتميز المراثي الأربع التي قالها الشيخ التليلي بالحزن العميق نظرا لالتباس رثائه بحالته النفسية السيئة، فكما كان صادقا في نصحه وإرشاده، كان صادقا في مراثيه التي خص بها آله وأصحابه، معبرا فيها عن مشاعر أسى حقيقية ومخلصة .

فقد رثى أمه وأباه وأصدقاءه، وكان الرثاء بالنسبة إليه مديحا للميت، كما أنه موت مع الراحل المحبوب، وبكاء عليه. فعندما رزئ بوفاة والده ، صور وقع المصاب فقال :

جل المصاب فجلت الأوصاب وتمزقت في جسمنـــا أعصاب
وتراخت الأعضاء سكرى حيرة وتثاقلت فكأنهـــا أنصـــاب
وتبدل الحلو اللذيذ مذاقــــه في الحلق حتى قلت هذا الصاب (5)

وتمنى أن يفديه بنفسه، ويتبادلا مكانيهما :

لو كان يفدى ميت لفديــته بالروح لكن القضــا غلاب

1.2.ديوان الدموع السوداء .ج2.ص: 62.

3. المصدر نفسه ج2.ص: .63

4.شوقي ضيف : الرثاء.دار المعارف .ط4س 1987.ص: 05.

5 ديوان الدموع السوداء : ج1.ص: 20.

لو كان يجدي ميت في قبـــره نوح عليه لكان لي إطنـــاب(1)

وذهب عند رثائه لأمه شأوا بعيدا في التفجع الممزوج بالندم على عدم إيفائها لحقوقها فقال :

قضيت أمي وبيت الموت قد زرت وما قضيت من الحاجات أو نلــت

قضيت والدتي حسرى فوا أسفي لم أقض حقك في الدنيا وما عبت (2)

إن موت الشيخ التليلي مع الفقيد الحبيب ظاهرة تتكرر في شعره، ولم نجد تصويرا يحمل من اللوعة فوق ما يحمل هذا التصوير، وهذا يدل على أن الشاعر لا يؤبن من فقد، وإنما يشعر بفقد نفسه مع من فقد، وبموته مع من مات .

وكان لوفاة الزوجة الأولى للشيخ التليلي الأثر البالغ على حياته، فقد كانت منارته التي يهتدي بها، وعصاه التي يتوكأ عليها، وقد أرخ ليوم وفاتها قائلا : (توفيت زوجتي الأولى يوم الجمعة لست خلت من شعبان سنة 1397هـ- 1977/7/22)والملفت للانتباه هو عنوان القصيدة (الزوجة الشهيدة)الذي يبين أثر وفاة زوجته في نفسه :

يا نفس لا تظهري حزنا لحادــــثة فالموت عن كارثات الدهر يلهيك

يا نفس بعضك مات اليوم فارتقبي تلك البقية في الموتى تلاقيـــــك (3)

وبموت زوجته مات كل من حوله، ومن يعرفهم، حتى روحه دفنت معها :

سلام من أظلمت في عين مقلته كل الدنا عندما في النعش حطوك

سلام من روحه أمست بجانبكم في حفرة القبــــر حتى لا تجافيك

سلام من أبقت الأيام جثتــــه بعد الفراق بـــــلا روح تناديك (4)

وهكذا رثى الشيخ التليلي زوجته بحزن عميق، ولعل هذه المرثية هي أكثر مراثيه تفجعا. ومن مراثيه المتفجعة والمحزنة، قصيدة كتبها في(أحمد بن علي)، تهاطلت دموعه غزارا :

حكم القضاء ففاضـــــت الأرواح وتحطمت من أجلهــــــا أشباح

وتهاطلت تلك الدموع على اللحى فاخضلت الجنبات والألــــواح

من هول ما مس القلوب من الأسى بوفاة أحمـــــــــد ليتهم ما باحوا(5)

ولولا تمسك الشيخ بالدين لعاد لخصال الجاهلية :

5.4.3.2.1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص:20- 28- 97- 98- 32.

لولا الحياء وما يحرم شرعنـــــــا لبدت لنا بخدودنـــــــا أجراح (1)

الفلسفة :

إن المتأمل لحياة الشيخ التليلي بكل مجالاتها الدينية والاجتماعية والفكرية، يجد من الطبيعي عليه أن يلج باب الفلسفة، فزهده ومعرفته بالدنيا وتقلباتها، وشكه في كل الموجودات، هي موضوعات فلسفية توصل إلى اليقين بالذات الإلهية، يقول في قصيدة :

بحر التفلسف بحـــــــر لا قرار له يا ويح من سبـــحت فيه عقائده

الشرك والشك و التشكيك لؤلؤة والكفر والزيغ والإلحاد مـــورده (2)

ثم ينتقل إلى قادة الفلسفة وزعمائها ويبين جهلهم أمام الله تعالى :

دع عنك قولـة يونان وما جلبت من الشرور لذي دين يمجــــــده

فما أفلاطون بـــذي وحي فنتبعه ولا أرسطو بذي رأي فننقـــــده

حسبي وحسبــــــك قرآن يبينه لنا الرسول كورد أنـــــت وارده (3)

يستقي الشيخ مبادئ فلسفته من التأمل في الوجود، وهذا المبدأ يذكره في أكثر من قصيدة، حيث يقول :

لا تعبد الله بالآراء تجمعـــــــها من كل ذي شرك وبالقـرآن نعبده

تأمل الكون وانظر في صحائفــه تر العجيب وىن الله مــــــوجده (4)

أما في قصيدة (قلت باحثا عن الحقيقة بين آراء الناس)التي نظمها في تسعة وستين بيتا، يثبت فكرته الأولى حول مبدأ التأمل في الكون، وجعلها حوارا بينه وبين الناس فقال :

قالوا الحقيقة ما تـــــــــرى قلت الحقـــيقة مـــــــــا أرى

قالوا الحقيقة ما تعــــــــــا ـرف في الـــــبرية والــــــورى

قالوا الوجـــــود حقـــــيقة لا ريب فيــــه ولا افتـــــــــرا

قلت الوجـــــود مشكـــــــك في نفسه أو مـــــا تـــــــــرى (5)

ويصف الشيخ كل ما وقعت عليه عينه :

فانظر إلى الشمس المضــــــيـ ـئة قد بـــــدت في أحمـــــــرا

في حجم دف ثــــــــم بعــــ ـد سويـــعة في أصفــــــــــرا

---

1. 2. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 33- 56.

المصدر نفسه ج1.ص: 57.

5.المصدر نفسه ج1.ص: 63/63.

وانظر إلى رؤيـــا المنـــــام تجد عظيمـــــا سيـــــــــــرا

وترى المعــــــــــبر للمنـــــ ــام بصـــــدق راء أخـــــــبرا

هذا يقـــــــــول رأيت عمـ ـي في الجـــــنان مدثـــــــرا

والغيــــــر قال مكذبــــــــا بل في جهـــــــنم جـــــــررا (1)

ويقول في الأخير :

إن الـــــذي خلق الحقـــيـ ــقة أخـــــفى منها المصـــــدرا

حتى تتــــــم عمارة الـــدنـ يا بما قـــــد عمــــــــــــــرا

فــــــإذا أراد خرابهــــــــــا رب الحقيــــــقة أظهـــــــــــرا (2)

ويمتد الشك عند الشيخ ليصل إلى نفسه ، فيشك في وجودها ، ومستنكرا أعمال أعدائه .يقول :

هل أنا الآن أنــــــــا وأنــــــا غـــير أنا

ولقد كنــــــــــت أنا وأنا الـــــيوم أنـــــا

حل غيري فــــي مكاني فأنا لـــــــــست أنا(3)

الحكمة :

كانت حياة الشاعر زاخرة بالمعارف والعلوم الدينية والاجتماعية والعلمية ،أكسبته رؤيا نافذة سبرت مكنونات الأشياء وعقلتها ، وزاد على ذلك حياة الفقر وما صحبها من ضغط ونكر اجتماعي ، فتكشفت له طباع الناس ،ومعاملاتهم ما دفعه إلى الاعتماد على مبدأ الشك(ومذهب الشك الذي يدين يه الشيخ التليلي جعله لا يسلم في قضية أو خبر تسليما مطلقا)(4)

وقد نظم الشيخ التليلي حكمة تقول : ثلاثة تقوي الضعيف ، وثلاثة تضعف القوي :

قال الذين لهم بالناس معــــرفة وبالطباع وبالسلطـــــان والأمم

تقوي الضعاف بأوصاف مقدسة عقد صحيح وعلم نافــــع أمم

وحسن خلق خصال كلها شرف لمن تتبع من عرب ومن عجــــم

أما التي تضعف الأقوى وتجعلـه كأمة هلكت في غابر القـــــــدم

تفرق واختلاف قاد أمتنــــــــا إلى التناحر بين الأهل والرحـــــم (5)

2.1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 64/63- 66.

3. المصدر نفسه ج2.ص: 16.

4د/ أبو القاسم سعد الله : .مجادلة الآخر .ص : 206 .

5.ديوان الدموع السوداء ج2.ص: 46.

ومما لا يخفى على الشيخ أن الإنسان بطبعه يحب الاحترام واستعجال قضاياه، قال في ذلك :

لا تأنفن ولو كنت ا لأمير سـنا   من أربع ذكـــرت في أكثر الكتب
لا تخدم الضيف والأستاذ محترما   وتتركن احترامـــــا مجلسا لأب
وأن تقول إذا لم تدر مسألـــة   وقد سئلت لا أدري بـــلا عجب (1)

ولمن يخاف الوقوع في الخطأ يقول الحكمة التالية :

إذا ما علمــــت الخطا فابتعد   ففعل الخطا ءافة للعفـــــاف
أما علمت الصـــواب اقترب   فترك الصواب طريق انحـــراف
وما ءافة الفقر إلا اللـــجاج   وفعلك ما قد جهلت اعتـــراف (2)

وقد نظم حكمة تحت عنوان(لا تفعل) في كتابه(منظومات تربوية للمدارس الابتدائية)، وأفكارها صالحة للكبار والصغار :

قال أصحــاب الكلـــم   كلمة فيـــها حـكم
لا ترم ما لـــم تطق   حمله من كــــل هم
لا تثق بامـــــــرأة   كيف كانت واتهـــم (3)

وحسبنا أن الشيخ لا يظلم في حكمه أحدا (فحسب معرفتنا به وبهم، فإنه لا يحمل حقدا لأحد منهم رغم أنه أوذي كثيرا من بعضهم).(4) فيقول بروح رحيمة :

أحق الناس بالرحمـــة   عليم بـــــين جهال
وذو عزه وذو سطـــوة   ولكن ذل في الحــــال
وذو ما ل وذو ثـــروة   فقيرا صار فـــي الآل (5)

كما تحدث عن فعل الخير وتركه ، فقال :

الناس في الخير عند الناس أربعة   من يفعل الخير بدء فهـو ذا كرم
وتارك الخـــير من فقر أم به   فهو الشقي وصفر الكف من نعم (6)

أما إذا توفرت سبعة أمور فإن العيش يطيب، كما يقول الشيخ في هذه المقطوعة :

طيب الحياة وطيب العيش مقرون   بسبعة وبها الإكمـــال مرهون

1.ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 24.
2.المصدر نفسه ج2.ص: 48.
3.المصدر نفسه ج1.ص: 120.
4.د/ أبو القاسم سعد الله : مجادلة الآخر . ص: 207.
5.ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 110.
6.المصدر نفسه .ج2.ص: 47.

بروز نجل وخل نافـــــع وكذا أمن يعم جميع الأهــل مضمون
وزوجة صلحت في البيـــت قابعة وخادم عاقل إن كـــــان مأمون (1)

ومن خلال تجاربه في الحياة يقول :

سبعة لـــــيس لهم أمـــــــان المـــــــال والمـــــــرأة والزمان
والبحر والصـــــــديق والسلطان وأعظم الجـــــــميع ذا السلطان (2)

ومما يلاحظ على حكم الشيخ استخدامه للأرقام(سبعة ليس لهم أمان)(سبعة شروط يطيب بها العيش) و(خمسة لا يفلحون أبدا)يقول فيها :

وقالت الحكمة إن خمســــــا لن يفلحوا ولو تـعالوا نفــــسا
الجاهل الكذاب ذو الطغيــــان ومبتلى بشهـــــوة النسيــــان
وحاسد في قلبه التيـــــــاع وزاهـــــــد وزهده مخـــــداع (3)

وقال أيضا :

أربعة لا يخفقـــــــــــون أبدا مكافـــــح وقصده قد حــــددا
ومن أعد للحيـــــــاة الـــعدة بالصبـــــــر والأناة طول المـــدة (4)

ومن خلال معرفته بالناس وطباعهم وجد أن(البشر ثلثاه شر) حيث بدأ بدلالة لفظ (البشر)إذا حذف منها حرف الباء وضعف الحرف الأخير:

وقال قوم بشـــــــــر ثلثاه شـــــــر إذا ما ضعفت أخراه
والشر لفظ جامع القـــبائح وجامع المســـاوي والفضائح (5)

أما في آخر الديوان، وبعد أن بلغ الشيخ من الكبر عتيا، وسبر أغوار الناس، جمع نصائحه في ثمانية وعشرين بيتا وعنونها بـ(نصيحة مجرب) قال :

هذا الذي قد تـــــــــراه بأكثـــــــــــــر القوم قاما
فإن قنعت بعلـــــــــــم تعش ذليلا ملامـــــــــــا
فالعلم بالمال عـــــــــز يقيك في الناس ذامــــــــا
والمال بالعلم كنـــــــــز يقيك فقـــــــــــرا زؤاما

1.ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 128.
2.المصدر نفسه ج2.ص: 81.
4.3.المصدر نفسه ج2.ص51.
5. المصدر نفسه ج2.ص: 52.

وحاذر الناس تسلـــــــــم		وقل سلاما ســـــــــــلاما (1)

وهو في ذلك يتفق مع المتنبي حين يقول :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد		ذا عفة فلعـــــــــــــــله لا يظلم(2)

أو قوله :

ومن عرف الأيام معرفتـــــي بها		وبالناس روّى رمحـــــه غير راحم

فلا هو مرحوم إذا ظفـــــروا به		ولا في الردى الجاري عـــليكم بآثم (3)

ثانيا : الأغراض الموضوعية:

أدب الأطفال :

كان الشيخ التليلي منذ عودته من جامع الزيتونة يريد أن يعلم الناس، ويرشدهم إلى الطريق الصواب، فكان يدرس الأطفال في المدارس، ويتنقل من أجل ذلك من منطقة إلى أخرى، وانطلاقـــــا من هذه المبادئ نظم الشيخ التليلي عشرات النصوص الشعرية الموجهة للأطفال، وكلها تدور في فلك التربية والتعليم ولا تخرج عن نطاق المدرسة، فهو يرى أن الشعر سلاح ضد الجهل، وظهر ذلك في ديوانه (الدموع السوداء)وقد أعاد نظم الجزء الخاص بالأطفال في ديوانه الموسوم بـ"منظومات تربوية للمدارس الابتدائية" وهو يحمل بصمات الاتجاه الإصلاحي بشكل واضح وجلي، و يحدد في مقدمته الدافع القوي إلى نظم هذه القصائد والأناشيد، فيقول: "وبعد فهذا هو القسم الثاني من ديوان الدموع السوداء أو مرآة حياتي، خصصته للمدرسيات أو القطع المنظومة الخاصة بالمدارس، وطلبة المدارس ومن في مستواهم الابتدائي حتى مستواهم التكميلي، تربية لهم على كريم الأخلاق وشريف الطباع ، وتوجيهـــا لهم إلى التدين بالدين الإسلامي الحنيف والتشبث بوطنهم العربي الشريف، وتنشيطا لهم على الأعمال المثمرة ، والدراسات المفيدة النافعة، والإقبال على دروسهم في كل الأحيان، ولا سيما الدروس القرآنية، وترويحا على نفوسهم اللعوبة من عناء الدروس المتعبة المجهدة)(4)

والمتصفح لديوان الشيخ محمد الطاهر التليلي يلحظ بروز هذا الاتجاه المدرسي الديني من خلال عناوين القصائد والمقطوعات مثل، تلميذ يرحب بزائر، أحفظ كتابك، وقد حاول الشيخ الخروج من نطاق مخاطبة الكبار إلى التعبير عن قضايا الطفولة واهتماماتها .فجاءت القصائد التعليمية متنوعة حسب المواد التي كان

---

1. ديوان الدموع السوداء ج2.ص: 77.
2. عبد الرحمن البرقوقي : شرح ديوان المتنبي.دار الكتاب العربي. د ط س1986 ج 4.ص: 253.
3. المرجع نفسه .ص: 238.
4. محمد الطاهر التليلي: منظومات تربوية للمدارس الابتدائية، دون ذكر الناشر ولا سنة النشر .ص: 01.

التلاميذ يدرسونها، وقد بث الشيخ من خلال القصائد والأناشيد الدينية والوطنية، سلوكا عمليا في فترات الدرس، منها :

1- حث الطلبة على الدراسة المفيدة النافعة، وترغيبهم في التحصيل العلمي المفيد لاسيما حفظ القرآن ، حيث يقول في قصيدة (كتاب الله) :

كتاب الله أفضل ما قـــــرأنا وأجدر بالتـــــــلاوة من سواه

فقم وأحفظ كتاب الله تحـظ بكونك في الأولى قطفوا جناه(1)

ويعطي نتيجة حفظ القرآن في قوله :

ومن يحفظ القرآن كان دليــله وحجته يوم التكلم بالحجـــج(2)

ونظم قصيدة يعلم فيها تلاميذ المدارس الفرق بين الأشهر المعدودات والمعلومات فقال :

لدينا أشهـــــــــر ذكرت بحج وأيام تســـــــمى المعلومات

وفي القرآن أيــــــــام تسمت بأيـــــــام لديهم معدودات (3)

ونظم أسماء الله الحسنى ليسهل على التلاميذ حفظها :

فلله ربي كل وصف مشــرف يليق بــــــــذات الله قُلُهُ سليم(4)

ومن دروس التاريخ الإسلامي يقول :

عشرون ألفا قدموا من يــثرب في عهد ذي النورين صاحب النبي (5)

ويعرفهم بأبناء الأثير فيقول :

ألا إن أبناء الأثير ثلاثـــــــة علي ونصـــــــــــر الله ثم المبارك (6)

كما يترجم ميلاد ووفاة الشيخ عبد الله بن المبارك قائلا :

ومن عجيب الصدف المواتــيه ثلاثـــــة من الأرقام الآتيه

دلت على الوفاة والـــــولاده لبعضهـــم من دون ما زيادة(7)

أما في دروس النحو والصرف، يقول في إبدال الحروف :

قد يبدل السين صادا قبل أربعة من الحروف إذا ما السين قد وقعت

---

1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 159.

3.2.المصدر نفسه ج2.ص: 27.

4 المصدر نفسه ج2.ص: 48

5.المصدر نفسه ج1.ص: 24.

7.6.المصدر نفسه ج2.ص: 29.

الحاء والطاء ثم الغين قـــــافهم فتلك فائدة من بعضهم سُمعــت[1]

وقد يغير الشيخ التليلي طريقة النظم، فيجعلها على شكل سؤال وجواب، وهي طريقة استفادها من قراءته في كتاب الإمتاع للتوحيدي :

يا من له في صنوف اللفظ تصنيف وعنده من صروف القول تصريف

ومن الجواب قوله:

في سؤلكم يا سيدي علم وتشريف جوابه عندنا لا شك معــــــــروف[2]

ولم ينس الشيخ التليلي الجانب المعجمي ، فقال يشرح كلمة (طويل) :

إن الطويل جمـــــــــعه طوال بكســــــــــــــــر والطويل قالوا [3]

وعُرف الشيخ التليلي بكثرة قراءاته في مختلف المجالات والعلوم ، ولم يبخل على طلبته بما قرأه في الكتب، فنظم قصيدة جمع فيها ما قرأه من كتاب (زاد المعاد):

قال الذين لهم بالطب معـــــرفة وبالطباع و بالأمــــــــــراض والداء

لا تقربن أمورا في تناولهــــــــا مضرة وانهدام في الأصحـــــــــــاء

الحزن والجوع ثم الهم كثرتـــــه وكثرة الشرب عند الريق للمـــــــاء[4]

وطلب من التلاميذ المحافظة على الكتاب فقال :

احفظ كتابك في الخـــزانة محكما إغلاقها كـــــي لا يراها ذوو البصر

وابخل به عن عالم أو جـــــاهل فالبخل خير مــــــــن مطالبة البشر

فمن السفاهة أن تعير وتشـــتري ومن الحماقة أن تطالـــــب من نكر[5]

2- غرس قيم الدين الإسلامي الحنيف وتجسيده عمليا من خلال القصائد المحفزة على ذلك منها : قصيدة للبنات تبين ضرورة ارتداء الحجاب :

إن التدين حلــــــــــية أجمل بهــــــا عند الفتاة [6]

ويدعو التلاميذ إلى عدم الخوف إلا من الله تعالى قائلا :

لا تخش غيــــــر الله في كل الأمـــــــور ولا تقس

واحفظ عقيدتـــــك التي كانت لفعــــــلك كالأنس

1.2.3.4. ديوان الدموع السوداء .ج2.ص: 49- 46- 51- 50.

5.6.المصدر نفسه ج1.ص: 85- 31.

واسجد لربك دائـــــما   عند العشية والـــــــغلس (1)

كما مدح الرسول قائلا :

ميلاد أحمــــــد طه   نور أسمـــــاء الأمم

فلتحفظوا يا صغـاري   تاريخ هادي النســم (2)

وتحدث عن راحة الإنسان ، استنبطها من حكم ثابت بن قرة حيث يقول :

أين تكون راحة الأنـــــام   في يقظـــــة أو سنة الأحلام

قد ذكروا في راحة الأجسـام   تقليلها من كثرة الطعـــــــام(3)

3. تربية التلاميذ على كريم الصفات وشريف الطباع ، يقول على لسان تلميذ في قصيدة (الترحيب بالضيف) :

أيا زائــــر هذا المكان تكرما   نزلتـــــم رحيبا آهلا ومُدانيا

حللتم ضيوفا بين أهل وخلة   وإخوان صدق في حليك اللياليا (4)

ويقول في قصيدة (الترحيب بالشيخ) :

أيها الشيخ الإمــــــام   أيها الحبر الهمـــــــام

قد طلعــــــت الآن بدرا   بين هالات التمــــــام (5)

ومن نشيد نظمه الشيخ يفيض حماسا وشحذا لهمم أطفال مدرسة (كمبيطة)ببجاية سنة 1935 :

أيها النشء قم وحي الكرامـــا   قم وحي العظام والأعلامـــا

ويرد التلاميذ بعده :

مرحبا يا مرحـــــبا   مرحبــــا بالزائرين

هذا بـــيت النجبـــا   فادخـــلوه آمنـــين(6)

ويحث التلاميذ على أداء الواجب في قصيدة (أنا لا أنسى الواجب) قائلا :

لست والله بنــــاس   واجبي نحـــو أناسي

وإذ ملت براســــــي   هكذا فالقلـــب راسي (7)

---

1. 4.3.2 ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 53 -1 120 -121 -160.

5.المصدر نفسه ج2.ص: 28.

7.6.المصدر نفسه ج1.ص: 128 -154.

ويحث تلاميذ مدرسة (كمبيطة) على طلب العلا قائلا :

صغير الشعب هيا للمعـــالي وحي المجد تحت ضيــــا الهلال
وأدرك من علوا نجم الكمـال فذاك النـــــــجم قد ناداك هيا (1)

3. غرس الروح الوطنية، وربط التلاميذ ببلادهم وذلك من خلال نشيد نظمه لتلاميذ مدرسة (كمبيطة):

وطـني العزيز ولا عزيز غـــيره وأنا الذليل لعـــــــزه أفديه
قومي وإن جهلوا علي حقـــارة وزهادة من عـــــالم وسفيه
فلهم على مر الزمان فضائــــل في كل عصر ســـــائد ونبيه (2)

وفي 11 ديسمبر كانت السماء تعج بأزيز الطائرات ، فكتب الشيخ التليلي للتلاميذ ليلة الجمعة هذه الأبيات بالعنوان التالي(رؤيا صادقة فمن يعبرها)(3):

رأيت في النوم ليــــلا رؤيا منام عميـــــق
كأنني بين قــــــوم هم تراب الطريــــق
مرت بهم ســـود طير من الحديد الرقـــــيق(4)

ونظم الشيخ التليلي قصصا للصغار منها قصة خيالية عن مؤتمر لبعض الحيوانات القوية فقال :

خرجت وطفت بعيدا بعيدْ عن الغاب كي لا أفوت البلد
إذا بالوحوش على مهلهـــا تسير إلى مكمن مرتصـــــد
ولما لمحــــــت على بعـــد هزبرا تلفت ثم قصــــــــد(5)

ونظم قصة أخرى حول عراك بين قط وحمار وسماها(منظر عجيب) :

قد رأينا ما رأينـــــــا لعبة فيها عجـــــب
قطة فوق حمـــــــار قد تولاها الطـــرب
وكلاب الحي ترنــــو بعيون من ذهـــــب (6)

وهي قصص هادفة يؤخذ منها مغزى .

---

1. ديوان الدموع السوداء ج2.ص: 81.
2. المصدر نفسه ج1.ص: 159.
3. محمد الطاهر التليلي: منظومات تربوية للمدارس الابتدائية. ص: 14.
4. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 146.

6.5.المصدر نفسه ج1.ص: 59- 25.

النقد الاجتماعي :

تعرض الشاعر في الديوان لبعض القضايا الاجتماعية كالفقر، والشباب، وزواج الشيخ الكبير، وكذا التبذير في الأعراس وغيرها، وجاءت في خمس قصائد.

إن الشباب هي الشريحة الأكثر اهتماما في المجتمع ، والشيخ حريص على نقل أفكارهم وآرائهم، يقول على لسان بعض الشباب :

أيا شهر الصيـــام إليك عنا فلست لنا ولسنـــا لكالقـــرينا
لأن عفنا الطعام بياض يوم فما عفنا لحوم الميتيــــــــــنا
نقوم الليل لكن في الملاهي على فرش الفواحش ساجدينا (1)

وتصل درجة الجحود والنكران قولهم :

وقـــــل لله يوم العرض إني رأيت شـــــبابنا في الملحدينا (2)

وتحدث عن الشيخ الذي بلغ من الكبر عتيا وتزوج فتاة تحت الثلاثين، وهي بشكل قصة اجتماعـــــية من ستة وسبعين بيتا ، وبين تأثير الأيام والسنين فيه ، فقل سمعه وبصره والعقل منه تعدى ، وأخذ يشتكي وحدته ، ثم تزوج فتاة تحت الثلاثين ، يريد تجديد عمره ، فكان من سوء حظه :

أتتــــــــــــــني ربة بيت والقلـــــــب يحمل حقدا
فقلت ضيف خـــــجول به الحياء تبـــــــــــــدى (3)

لكنه اعترف بخطئه ، وأن لمقامه عجوزا لا تعيب عليه مشيبه، وتطيعه بين الحين والآخر.ولا تخلو القصيدة من النصيحة، فهي تحمل مغزى مفادها أن الإنسان عليه أن يختار ما يناسبه :

إن عاكستـــــــك الليالي في تلك أوتي فزهــــــــدا
ففي الكرامة شــــــــيء أغلى وأثمن عقـــــــــدا
فعش وحيدا فريــــــــدا إذا أرادوك وغـــــــــــدا(4)

يتمتع الشاعر بقدرة فريدة على تصوير وتشخيص الشخصيات، والهدف منها تصوير الواقع وأخذ العبر. وتأمل الشيخ المناسبات والأفراح التي تقيمها العائلات في البلدة فوجد أنها تتلف مال صاحبها وترجعه صفر اليدين :

لكنما الأفــراح وهي مآتم حسب العوائـــد بذرت تبذيرا

4.3.2.1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 123- 142- 49- 51.

إن كان عـــرس فالخسارة جمة والكل ينهـــب قاصدا تفقيرا

فإن نهيت وقلت أمر منـــــــكر هذا الذي تأتيـــــــنه محظورا

قالت وقالـــت ثم قالت أختها عاداتنا أن ننبذ التقصـــــــيرا (1)

وأكد على نبذ العادات القديمة السيئة والاهتمام بتطوير البلاد وإخراجها من ظلمة الجهل .

ولأن الناس تهمهم المظاهر ، وصاحب المال له مكانة مرموقة في نظرهم بينما من نقصه المال كان مطية إذلال. فقد تطرق لآفة اجتماعية تقف حائلا أمام أداء الكثير من الواجبات وهي الفقر ومشاكله ، ما كان منه إلا أن طلب التوجه إلى بيوت الشعوذة ـ التي يؤمن بها الناس - وعرض الفكرة على الدجالين والمحتالين :

فاذهب لحـــــاكم جن وادفـــــع إليـــــه إوزا

وقل أتيتك كيـــــــما أزيل بالفـــــــهم عجزا

يقول للجن هيـــــوا فإن أبيتهم فوكـــــــــزا

وأنت قرِّب إلـــــــيَّ أريك بالعلم طـــــــــرزا(2)

ويطلب منه أن يذبح في بيته ، وعندما تأتيه الجن يطلب ما يريد ، فطلب تفسير اللغز :

لغزي تحـــــــيرت فيه ولو فهمت لأجـــــزى

ما بال شيء حقـــــير له العزازة تعـــــــزى

من فاته منه شــــــيء يظل في الناس كـــــزا (3)

فهو يعالج قضية المال ، وأن من ملكه أثار اهتمام الناس وإن كان حقيرا ، ومن فقده أثار سخطهم وإن كان عالما لكن الجن تعلمُ أثر المال في الناس :

أما وكفك صـــــــفر فأنت صفر مجـــــــزى

أنت العدو لكـــــــــل وأنت لم تجن خـــــرزا (4)

وبين له أثر ذلك على نفسه وعلى دينه و دنيا ه ، وفي الأخير تطلب الجن منه أن يسأل الله الرزق.

كما صور قصة رجل قروي غادر ربعه إلى المدينة وأهوائها ، فوجد ما أدهشه :

فتحت عيني في المفاتن كلـــــــها فأصاب سهم قاتـــــــل مسنون

فوضعت كفي فوق حاجب مقلتي وغضضت طرفي كي تكف شؤون

4.3.2.1. ديوان الدموع السوداء . ج1.ص: 82- 90- 91/92- 92.

وسألت قلبي هل أصبت فقال لـي　　　لا تسأل المقتول كيف يكـــــون

فليشهد الله الجميل بأنـــــــــني　　　بجمال كل مليحة مفتـــــــون (1)

ويفر بنفسه إلى الله تعالى طلبا للمساعدة والحماية ، فهو بموقف سيدنا يوسف عليه السلام ، عندما يقول الشيخ :

إن لم تكن لي يا إلاهي فإنـــــني　　　أصبوا وأخشى أن تكون فتـــون (2)

وفي جو مشحون بالسخرية من الحضارة والتمدن التي تبيح الانحلال والابتعاد عن الدين ، يقول :

واشرح هواك وكل ما أضمرتـــه　　　لا تخش دينا داسه القانـــــــون (3)

الموضوعات الوطنية :

كان الشيخ منذ عودته من تونس يرغب في خدمة وطنه ، فأخذ مبادئ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وصال وجال في أقطار كثيرة مدرسا وموجها ، رغم ما لاقاه من عنت النـــاس ومكرهم ، من ذلك ما قاله في توجيه بلاده :

يا بلادي تنبهي من سبــــات　　　واغسلي العين من قذى الغفلات

وانظري في سماء هذي الحيـــاة　　　تنظري النور حـــول كل الجهات

إنما اليـــوم مبدأ الغـــايات (4)

ثم ينتقل إلى زعماء الإصلاح ، ويبين قدرتهم على إنارة الطريق للناس ، والتذكير بأمجاد العرب قائلا :

يا رجال التاريخ أهل البصائر　　　قلبوا الماضي وانظروا في الدفاتــر

وانشروا ما وجدتم من مفاخـر　　　لجدود بنــــوا صروح الحيـــاة

إنما اليـــــوم مبدأ الغايات (5)

أما قصيدة(قصة أم)فقد نظمها في خمسة وثلاثين بيتا ، على شكل مسرحية رمزية ، وهذا النوع من القصائد ليس جديدا على الشاعر ، فقد استخدمه في الجانب الاجتماعي وأدب الأطفال .

ملخص المسرحية : شاب يمشي هائما على وجهه ، لا يعرف وجهته :

سلام عليكم سلام امــــرئ　　　تقمص بالأمس ثوب الشبـاب

2.1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص : 132.

5.4.3.المصدر نفسه ج1.ص : 133- 26- 27.

تحير لم يدر أين الطريـــــــق ولم يدر أين وكيف الصواب (1)

لكنه سمع من بعيد صوتا متعبا ينادي :

ينادي هلم هلم إلـــــــــــيَّ إليَّ بني فهشوا الذئـــــاب

إذا بالجزائر أم الجميـــــــــــع تئن أنين المريض المصـــــاب

فهاذي الكلاب وهاذي الذئاب وهذا الغــــراب وذاك العقاب

تدور عليه تهر وتعـــــــــوي وتنعق والأم وسط العــذاب (2)

أخذت تناجي السماء والليل، وتبحث عن مغيث، فإذا بشاب يطمئنها ويقف لمساعدتها، ويهب حياته ضمانا لها :

وهاك حياتـــــي ضمانا لديك إذا أنا هبت صعـود الصعاب

فحق على ابـــــــن الجزائر أن يهد بها كل حصـــــن وباب (3)

ويدعو الناس للتجند من أجل مساعدة الجزائر :

ألا يا شباب الجـــــــــزائر قم لترميـــــم بيت عراه الخراب (4)

الموضوعات الدينية :

حياة الشيخ كانت بين يدي الناس ناصحا ومرشدا وواعظا، ورغم أنه أفرد كتبا في مجال الديني، إلا أن التربية الدينية تطل عليه أينما خط قلمه، وتظهر في ثنايا القصائد أو مستقلة في مقطوعات.يتحدث الشيخ التليلي عن فرحته بالمولد النبوي الشريف:

أكاد أعلو السها من فارط الطـــرب لما بدا مرسل من أمـــــة العرب

أتى إلى الكون حين الكون في مرض ونبه الناس حين الناس في صخب

لا تذكرنْ ما رأى من أجل دعوتـــه من الأقارب واذكر سورة الغضب (5)

ويمزج الفخر بالعتاب ، مفتخرا بشهامة وصبر الرسول، ومعاتبا الناس بعدهم عن الدين. ويحييّ فتية العلم قائلا :

يا نشء أنت الذي مازلت مأملنا حييت من ولد يا نشء فاقــترب

لا تسأم العلم واجلس في مجالسه واطلبه بالجد والإتقان والــدأب (6)

2.1. ديوان الدموع السوداء .ج1.ص: 12.

4.3.المصدر نفسه. ج1.ص: 13.

6.5.المصدر نفسه .ج1.ص: 14- 16.

ونظم مقطوعات تحدث فيها عن الغيبة وجمعها في سبعة :

القدح في سبعـــــــة مباح فما على قــــادح جناح
في فاسق فسقه تجلــــــى وجائر جوره صـــــــراح (1)

أما الكذب فهو حرام إلا في مواضع :

الكذب في الأصل لا يجـوز إذ ليس في كذبنـــا صلاح
إلا إذا الحال لز قــــــوما في الحرب فالكذب قــد يباح
وفي الذي قد سعى بظلـــم ولم يكن غيره ســـــــلاح
وفي حديث الزوجين جاءت نصوص شرع به صحـــاح (2)

كما تحدث عن صرف الدينار الشرعي :

نكاح زكاة ثم صرف بجـــزية إليها دينار الشرع في الفقه ينسب (3)

2.1.ديوان الدموع السوداء .ج2.ص : 47.
3.المصدر نفسه ج1.ص : 25.

الفصل الثالث

الظواهر الفنية في الديوان :

اللغة الشعرية

الصورة الفنية

الموسيقى

اللغة الشعرية :

إن معرفتنا بالكيفية التي تعامل بها الشيخ الطاهر التليلي مع أدوات التشكيل قصد إنشاء شعـره في إطار السياق التاريخي والاجتماعي ، جعلنا نتعرف عن البنية التشكيلية الخاصة لشعره. واللغة هي وسيلة من وسائل التفاهم بين الناس ، وما وجد اللفظ المعجمي إلا ليدل على شيء محدد لا يتخطـــــاه إلى شيء آخر أما في الشعر فالأمر مختلف ، لأن الألفاظ يمكن أن تتجاوز معناها المعجمي إلى معان أخرى أكثر اتساعا .واللغة في التعبير الشعري تختلف من عصر إلى عصر ، من خلال اختلاف الأطر والقيم والظروف التي تحيط بكل عصر من العصور وتتكيف مع ما يحيط بها ، فتحمل الجديد من الشحنات التعبيرية كلما تجددت الأفعال والمواقف ، وهذا ما يضع بين أيدينا الوظيفة السحرية للكلمة ، وهي وظيفة ما زالت تمارس حتى الآن .

أولا : منزلة اللفظ في الصياغة الشعرية :

إن للكلمة المعبرة ، واللغة المتميزة دور كبير ، لذلك يجب على الشاعر أن يكون عالما بأسرار اللغة ، وأن يقف على معانيها ، و يستنفذ طاقتها لتلائم مشاعره ، وبذلك يكون قد وقف بين المناسبة والحالة الشعورية وحسن اختيار اللفظة .

ويلفت ابن طباطبا العلوي (ت322) أنظارنا لأهمية اللفظة و موقعها يقول : (قال أحـــد الفلاسفة إن للنفس كلمات روحانية من جنس ذاتها وجعل ذلك برهان على نفع الرُّقى ونجعها فيما تستعمل له). (1)

كما أن اللغة أداة هامة في توصيل المعاني ، ونقل الأفكار و العواطف فهي تكشف عن العالم الداخل لكل فرد ، فالحياة النفسية هي أهم الجوانب التي يجدر بنا التعرف عليها ، لأنها هي التي تسير حياة الفرد ، فاللغة إذا هي (رموز وحالات نفسية ، هي مادة للفكر ، فالصوت اللغوي وظيفة عقلية ، لها دلالاتهـــــا على الكلام النفسي الداخلي) (2) وتوصف لغة الشاعر بأنها متميزة ذات دلالات خاصة ، مصدرها تجربة شعورية لذلك فإن (ألفاظ الشعر أكثر حيوية من التحديدات التي يضمها المعجم).(3) هذا يعني أن الألفاظ تتغير في معناها بحيث تضيق دلالتها وتتسع حسب ما يبث الشاعر فيها من طاقة وما يشحنه من ذات نفسه.

وإذا ما طالعنا شعر الشيخ التليلي ، فسوف نجد ه ذا حسن مرهف في حسن اختيار ألفاظه ، وقد

---

1. ابن طباطبا : عيار الشعر .تحقيق عباس عبد الساتر . دار الكتب العلمية بيروت .ط1س 1982. ص : 22.
2. محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث.دار النهضة مصر. س1997.ص : 39.
3. عز الدين إسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي. دار الفكر العربي القاهرة س 2000. ص : 294.

أثرت عليه نشأته الدينية ، وحفظه للقرآن الكريم ،و تأثره بزعماء الإصلاح ،وكذلك بشعراء عصر القوة كالمتنبي و البحتري ، فجاءت لغته جزلة قوية. ويتضح لنا من مطالعة شعر الشيخ أن ألفاظه تميزت بـــ:

(أ) ــ اللفظ القرآني :

إذا طالعنا شعر الشيخ التليلي نجد أن النزعة الدينية طغت على شعره ،فقد كان الشيخ يعيش في بيئة محافظة ، كل ما فيها مصبوغ بصبغة دينية محضة ،ولما فتح عينيه على التعلم وجد نفسه في حلقات الدروس والوعظ في المسجد ينهل منها آيات القرآن والتفسير وغيرها ، وعندما كتب له مواصلة الدراسة انتقل إلى جامع الزيتونة ليتلقى آداب اللغة العربية وباقي الفنون الأخرى ،وهو ما وثق صلته بأمهات الكتب .(كان للقرآن الكريم أثره الكبير في نفوس الشعراء وكان له سحره وجاذبيته لهم).(1) ويظهر تأثر الشيخ باللفظ القرآني من خلال اختيار ألفاظه . يقول الشيخ :

سوف أبقى في غربتي دون يأس   شاربا في الكفاح كأسا دهاقا (2)

فكلمة (كأسا دهاقا) مأخوذة من قوله تعالى (وكواعب أترابا وكأسا دهاقا)(3) ، وكأسا (دهاقا) كأسا ملئ متتابعة على شاربيها بكثرة أو امتلاء ، ومعنى الدهاق الممتلئة كأس الخمر الممتلئة الصافية .(4)
ويقصد بها في البيت أنه مستمر في الكفاح دون توقف ، وقلبه ممتلئ بالرغبة و الحماس.
ويقول الشيخ :

لا تأمل الخـــــــــير في زمان   فالشر في الناقة البـــسوس (5)

وكلمة (الناقة) هي أنثى الجمل وتكنى ببنات الليل وبنات الفحل ،ومن النوق المشهورة في التاريـــــخ. ناقة الله لثمود ـ وناقة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ وناقة البسوس ؛ والبسوس هي امرأة استجارت بشخص اسمه جصاص بن مرة ، وحين رأى ناقتها كليب بن ربيعة ترعى في حماه ،قتل فصيلها فثارت الحرب بسببها بين قبيلتي بكر وتغلب مدة أربعين عاما ، وسميت حرب البسوس ، وبذلك تكون هذه هي ناقة الشر ، وقد وردت في قوله تعالى :(إنا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر)(6).

---

1. محمد ناصر بوحجام : أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث . المطبعة العربية.ج1.س 1992.ص: 41.
2. ديوان الدموع السوداء .ج.1 ص: 43.
3. سورة (النبأ) الآية :34.
4. الإمام المفر بن أبي جعفر محمد بن جرير الطبري : مختصر تفسير الطبري . تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني و د/صالح أحمد رضا. مكتبة رحاب س1991. . مجلد 2 ص: 514.
5. ديوان الدموع السوداء ج1 ص: 149.
6. سورة (القمر) . الآية 27.

يقول الشيخ :

بربك أيها الزياني قل لي علام عن الكلام نذرت صوما (1)

وإذا نظرنا إلى قول الشيخ (نذرت صوما) نجد أنها مأخوذة من قصة مريم ـ عليها السلام ـ يقول تعالى :(فأما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما) (2) ، وهو في البيت يسأل صاحبه الزياني سبب توقفه عن إرسال الرسائل ، وانقطاع حبل الود بينهما ، فاستخدم كلمة (صوما) لما لها من إيحاء هائل في التعبير عن امتناع الرسائل .

وقال الشيخ واصفا شعره :

وقل متأسفا أنزلت رحلي بواد غيـــــــــر ذي ماء معين (3)

نلاحظ جملة (واد غير ذي) المأخوذة من قصة إبراهيم _ عليه السلام_ ، يقول تعالى (قال ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع)(4) ، وكذلك كلمة (ماء معين) مأخوذة من قوله تعالى (قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين) (5) ، وهو الماء الصافي ، حيث يرى الشاعر أن شعره ضعيف غائر لا يصل إلى مستوى شعر فحول الشعراء كالمتنبي والبحتري وغيرهم في الدقة و الجمال .

ويقول الشيخ :

ليتني كنت ترابا أو صفا أو حمارا أو جهولا أحمقا (6)

فجملة (ليتني كنت ترابا) مأخوذة من قوله تعالى (ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا)(7).

ويقول الشيخ :

فمنها خمسة درت ومرت وأتت أكلها من دون نكر (8)

مأخوذة من قوله تعالى (كلتا الجنتين ءاتت أكلها ولم تظلم منه شيئا) (9).

و يقول الشيخ :

وقد أخطأت في ظني وقولي (وبعض الظن إثم) غير دار(10)

---

1. ديوان الدموع السوداء ج1 ص : 67.
2. سورة (مريم). الآية 26.
3. ديوان الدموع السوداء ج2 ص : 79.
4. سورة (إبراهيم) .الآية37.
5. سورة (الملك) .الآية 30.
6. ديوان الدموع السوداء ج1 ص : 135.
7. سورة (النبأ) . الآية 40.
8. ديوان الدموع السوداء ج1 ص : 165..
9. سورة (الكهف). الآية33.

10. ديوان الدموع السوداء ج1 ص: 70.

مأخوذ من قوله تعالى (واجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم)(1).

(ب) _ اللفظ التراثي :

إن اللغة هي من أكبر الاهتمامات التي شغلت بال الشاعر والناقد على حد سواء ، علما بأن الأوضاع الاجتماعية و السياسية و التاريخية هي التي تفرز لغة الكتابة باعتبارها وسيلة تعبير عن المخزون المعرفي للأديب ، ومنه فإن المتتبع للغة التي صاغ بها الشيخ التليلي بعض قصائده ، يجد أنها تكاد تكون بعيدة عن ملابسات الحياة والتغيرات التي عاش فيها ، بحيث نرى أن ألفاظه مرتبطة بواقع آخر وعصر آخر هو العصر الذهبي العباسي ، ويتضح أن الشيخ قد استقى ألفاظه وعباراته الشعرية أولا من اللفظ القرآني ثم المخزون الشعري ، أي ما حفظه من أشعار القدماء والمعاصرين له ونلاحظ ذلك في الألفاظ (الضراغم ـ يعرب ـ المجد ـ السيف ـ اليراع ـ النصال ـ السهام ـ النبال ـ العير ـ البرايا ـ الأسل ـ الأفنان ـ المجانق ـ القرطاس ـ صناديد ـ أوثان) وغيرها كثير . يقول الشيخ :

به عرفنا صناديد الحروب ومن   بهم زهت دولة القرطاس والقلم (2)

ويقول :

له من همة الجوزاء جزء   يجشمه المشقة والضياعا (3)

ويقول في فخره بنفسه :

أنا الذي أجررت رمحي في الوغى   وكسرت سيفي طعمة للصائل (4)

ويستخدم الشيخ ألفاظا من التراث المحلي (القرداش ـ الغربال ـ الخطارة ـ سقيفة ـ الغوط ـ السيخاب ـ كوانين ـ قشكم ـ عبود ـ أفريك ...)يقول الشيخ في رسالة بعثها لصديقه :

وإن طلبوا فما طلبوا عزيزا   كقرداش وغربال النساء

وعبود وأنشفة وفول   وأفريك وخيطان العباء (5)

و يقول الشيخ عن حياة أهل قمار :

فخطارة تهوي وتصعد دائما   من البئر أو في البئر دائمة الخطر

وخشبة منوال لنسج ثيابهم   يحاك عليها خالص الصوف والوبر (6)

إن ثقافة الشيخ التليلي اللغوية الأصيلة ، جعلت لغته قوية جزلة إلا أنها لم تكن شاذة وحشية . فهو وإن

1. سورة (الحجرات). الآية13.

3.2.ديوان الدموع السوداء ج1 .ص: 115- 145-

4.المصدر نفسه .ج2 .ص: 41.

6.5. المصدر نفسه ج1 .ص: 04- 80.

كان متأثرا بالتراث العربي، تؤثر فيه البيئة الحديثة .

ونلمس من خلال الديوان أن الشيخ التليلي لم يكن يعمد للغريب من الألفاظ وإنما هو حريص على جزالة اللغة وقوتها .

يقول الشيخ في المزح الأدبي :

بربك ألغز لبعلي وشـــيخي بأنك للعـــــــهد قد تلكز

فلا تكترث برؤاك التـــــي تقض منامك أو تنـــــغز

فضغث منامك فيه الـــــذي تقوَّل عني الـــــذي ترمز

ولست إخالـــــك إلا أخا يثير غبارا به يطـــــعز

فروح القرينة ليـــس بذاك ولكنه الطهر والجـــــرمز

حتى يقول :

أتحسبها مثل من في الـــدنا وتحسبني مثلها أحـــــرز

فشتان شتان ما بينـــــا فذاك أريـــج وذا أخـــنز (1)

لقد قام الشيخ بشرح الكلمات الغامضة في الأبيات ليدل على عدم استخدامها في عصـــــرنا، مثلا يقول أن (اللكز) هو الدفع في الصدر (البونية)، و(النغز) كالنزغ بمعنى الإغراء والتحريش ، (الطعز) المراد به هنا اللام بلا روية ، و(الجرمز) هو الذكاء، و(الخنز) اللحم النتن .

ويقول الشيخ التليلي :

يا من بكم سكتت شقاشق غلمة لا تسكتوا عن خائن متغمد (2)

ففي القصيدة يفخر الشيخ بعمل الفتية الذين غيروا نهج الجزائر ونشروا العلم و الروح الوطنية فيها. كما جاء في (لسان العرب) الشقشقة : لهاة البعير ولا تكون إلا للعربي من الإبل ، وشقشق الفحل : هدر ومنه سمي الخطباء بالشقاشق . (3).

ويقول الشيخ :

شربنا من أنســــــه مداما ألذ من شرب خنـــدريس (4)

وقد استعمل الشيخ أيضا كلمة (خندريس) والخندريس هي الخمر القديمة كما جاء في شرح الشيخ .

ويقول الشيخ :

---

1. 2.ديوان الدموع السوداء ج1 .ص: 94/95- 45.

3.ابن منظور: لسان العرب .ج4 .ص : 3474.

4.ديوان الدموع السوداء ج1 .ص: 150.

أتيت كالبـــــــــــرء في سقام يزيل ما هد مـــــن رسيس (1)

استخدم الشيخ في البيت كلمة (رسيس) ،جاء في لسان العرب (الرس والرسيس)أول الحمى الذي يؤذن بها ويدل على ورودها ، و(الرسيس) : الشيء الثابت الذي قد لزم مكانه(2) .

(ج) _ ملائمة اللفظ للمعنى :

إن الشيخ التليلي كان على وعي صائب بلغة قومه ، وبتراثهم التشكيلي ، مما ساعده على بناء قصائده بطريقة جمالية متفردة ، اتسمت بالوضوح والإبانة ، بعيدة عن التعقيد ، مسايرة لظروفه وطبعه ، فحينا تكون لغته عذبة بسيطة ، وحينا آخر تكون جزلة قوية خاصة عندما يجاري القدماء في بعض الأغــراض كالفــخر والحمـاسة ، ويمكننا أن نجد في شــعره هذين المستويين اللغــويين في أغراضه المختلفة ، فلكل معنى من معاني شعره لفظه الخاص به .

أما في الفخر، فيتسم أسلوبه بالفخامة والقوة حتى لتحسبه عباسيا أو جاهليا .يقول الشيخ في فخره بقومه :

هم الإصباح حين ترى ســــواهم دياجي في المظالم والضـــلال
هم الأسد الضراغـــم في حروب هم في السلم حبات اللآلـــــي
وقد حموا بالقضب مصحفهم زمانا فرفرف فوقه علم الهــــــلال
وقد مــــزجوا دماءهم بتـــــرب عليه اليوم تخطر في اختيـــــال
وكانوا كالمـــعالم للمعــــــــالي وكانوا في العوالم كالعـــــوالي (3)

وهي ألفاظ في تراكيبها تعبر عن فخر الشاعر بقومه وسيادتهم . يقول الشيخ التليلي عند زيارة الشيخ البشير الإبراهيمي لوادي سوف سنة 1962 :

هدام أبنيــــة الضلال وغـــيره بناء أفنـــــــية النكال وما درى
ما هاب يومــا قوة من قــــــاهر أبدا ولا ولت يـــــــداه القهقرى (4)

ويمكن أن نرجع هذا الأسلوب إلى دراسته في جامع الزيتونة التي تركز على الأدب من ناحية واتصـــاله بنماذج التراث الشعري من ناحية أخرى .

وفيما عدى قصائد الفخر والوصف ،فإن أسلوب الشيخ التليلي يميل إلى الرقة واليسر، والسهولة

---

1. ديوان الدموع السوداء ج1 ص: 150

2. ابن منظور : لسان العرب .ج1.ص: 1164.

.4.3..ديوان الدموع السوداء.ج1 .ص: 101.- 87.

والعذوبة والوضوح سواء في إخوانياته ،أو في رثائه وحنينه وعتابه وشكواه، وسائر فنون الشعر الأخرى . وقد اتسمت مراثيه برقة وأسى شجيين ، وبخاصة عند رثائه لوالده وزوجته ، وقد استطاع أن يعبر عن فجيعته بتعبير جميل ، ملؤه العاطفة الصادقة . يقول الشيخ في رثاء والده بنبرة حزينة :

جل المصاب وجـــلت الأوصاب وتمزقت في جســـمنا أعصاب

وتطايرت منا الحلــــوم فغادرت أجسامنا فكأنها أقـــــــصاب

وتراخت الأعضاء سكــــرى حيرة وتثاقـــلت فكأنــــها أنصاب

لو كان يفــــدى ميت لفديتــــه بالروح لــــكن القضـا غلاب (1)

قد استخدم الشيخ ألفاظا سهلة تصل إلى القلوب مباشرة ، فلا غريب فيها ولا تعقيد ، نلاحظ استخدامه للفعل (تمزقت) الذي يدل على التشتت والضعف، لقد كان وقع وفاة والده عظيما في نفسه، ظهر ذلك من خلال الأفعال (تراخت ـ تثاقلت) ، أما كلمة (سكرى) فهي تدل على الحيرة والتيه ، وكذلك (أقصاب) التي تدل على فقدان التركيز وذهاب التفكير من هول الحادثة ، وتوحي مع كلمة (أنصاب) بالتواجد الحسي ، وتشتت العقل .

ويقول الشيخ في قصيدة الغزل الوحيدة التي تفيض عذوبة ورقة :

كلانا يقـــــص ويفضــــي بما يكـــــن من الوجد لا يــــوجز

حديث الوداد وقـــول الســداد وبســـــط المراد به نقفـــــــز (2)

نلاحظ الكلمات الدالة على الشوق والفرح والحنين للقاء زوجته المتوفاة وإن كان في المنام (يقص ـ يفضي ـ لا يوجز ـ الوداد ـ نقفز) .

وكذلك كان أسلوبه في شوقه لتونس وجامع الزيتونة ، فهو عذب سلس ، يذوب شوقا وولها به وبعلومه أما عندما يخاطب الشيخ التليلي الأطفال ، تكون ألفاظه دقيقة بسيطة ، تصل إلى ذهن الطفل ، ويصبغها بصبغة النصح والإرشاد ،كيف لا وهو المعلم وقائد مدرسة النجاح بقمار ، فيختلف أسلوبه بذلك بين الشدة واللين ، حيث يستخدم أسلوب الأمر بغرض بث روح الحماسة :

صغير الشعب هيا للمــــعالي وحي المجد تحــــت ضيا الهلال

وأدرك من علو نجم الكمـــال فذاك النجم قد نــــــــاداك هيا

فقف يا ابن الذين أراك منهــم على ساق العزيمة و انظرنــــهم

وصفح معجم التاريخ عنهــم تجدهم حلقوا فــــــــوق الثرايا (3)

2.1.ديوان الدموع السوداء ج1 .ص: 20.- 94.

3.المصدر نفسه ج2 ص: 81.

حيث يبعث الشيخ في الأطفال دفقة وجدانية تحيي فيهم روح المسؤولية ، خاصة أن كل قصائد الأطفال نظمها في فترة الاحتلال الفرنسي الجزائر ، (وبذلك يتشكل وجدانه بما فيه من انفعالات وعواطف ومشاعر).(1)

ونلاحظ الألفاظ التي استخدمها (المعالي - نجم الكمال - المجد - ساق العزيمة - حلقوا فوق الثرايا) هي ألفاظ توسع مداركهم وتنمي الثروة اللغوية لديهم من خلال قصائد النشيد أو القصص و المسرحيات .(إن ازدياد حصيلة الطفل من الثروة اللغوية ، يتناسب تناسبا طرديا مع تحصيله الثقافي والعلمي ومع خبرته ، وإنما الثروة اللغوية تعني ارتقاء مستوى الطفل ثقافيا وعلميا ، وتطوره في مجال التذوق الجمالي ، واتساع دائرة استماعه وجدانيا وعقليا).(2)

ويقول الشيخ في قصيدة مؤتمر الوحوش :

خرجت إلى الغــاب يوم الخميس لأصطاد من دوحـــــه ما أجد
حصاني علوت وقـــــوسي معي وكلبي صحبت ورمحـــي الأحد
إذا بالوحـــــــوش على مهــلها تسير إلى مكمن مرتصـــــــــد

ثم يقول :

وقد فتح الليث باب الـــــكلام فقال اسمعـــــوا كل باب يسد
وقد قال فيهم ألا تعجـــــبون من النمل يبـــــغي قتال الأسد
كذا النمر قال ألا تضحـــكون بعـــــوض صغير قتـــــالي يود
وعقب قول الجميع عظيــــــم من الإبل قـــــال المقال الأسد
فلا يهــزأن قــــــوي سليط بقـــــوى ضعيف إذا ما اتــحد
ولا يفخـــــــــرن بقــــوته ظـــلوم تجــــبر ثم استبـــــد(3)

إن القصيدة التي بين أيدينا تتعدد فيها القراءات :

- القراءة الأولى : إن القراءة الأولية للنص تظهر حكاية مسلية للأطفال ، وقد أعطى الحيوانات تصرفات الإنسان ، لتدخل البهجة والفرح في النفوس اللعوب –كما قال الشيخ - ويعطي في الأخير موعظة تبين عاقبة الظلم والغرور .

- القراءة الثانية : إن القراءة الثانية أكثر عمقا بحيث تغوص في أفكار القصة ، وتبرز أحدثها المتعلقة بالقضية الجزائرية أثناء الثورة التحريرية .وما يعانيه الشعب من ظلم المستعمر ، مما أعمى بصيرته عن قوة الضعفاء

1.2.د/ نجيب الكيلاني : أدب الأطفال في ضوء الإسلام . مؤسسة الرسالة .ط4س1998. ص: 108.- 147.
3.ديوان الدموع السوداء ج1 .ص: 59/60.

، إذا تمكنت منهم إرادة الشعب .(إن مثل هذا الأدب الذي يستغل قصص الحيوانات للتعبير عن هموم سياسية واجتماعية ليس جديدا في أدبنا العربي ...فقد برزت قراءات جادة ربطت بالأوضاع السياسية في عصر ابن المقفع ...) .(1)

أما ما نلاحظه في قصيدة (قصة أم) ، حيث استخدم الرمز ، فالأم هي رمز الوطن ، والذئاب رمز العدو الظالم ، وهي أيضا تتضمن أكثر من قراءة ،

ـ القراءة الأولى : هي قصة أم جريحة في الغابة تحيط بها الحيوانات من كلاب وذئاب وغراب وعقاب .

ـ أما القراءة الثانية : هي قصة سياسية موضوعها الاحتلال الفرنسي للجزائر، فالأم الجريح هي الجزائر، و الحيوانات هي المستعمر الذي يريد افتراسها ، حيث يقول :

إذا بالجزائر أم الجميع — تئن أنين المريض المصاب
وهاذي الكلاب وهاذي الذئاب — وهذا الغراب وذاك العقاب
تدور عليها تهر و تعوي — وتنعق والأم وسط العذاب (2)

إن هذه الدراسة تكشف مدى قدرة الشيخ على استخدام أسرار اللغة والإيقاع بشكل متساوق بين المضامين والأفكار التي يحملها النص الأدبي ، كما تظهر تداخلا كبيرا بين عالم كتابة الطفل وعالم الكتابة السياسية للكبار . إن هذا كله يزيد القصيدة عمقا وجمالا . والشاعر لا يسمى شاعرا إلا لسبب بسيط وأساسي (وهو قدرته على خلق الألفاظ أي خلقها في مكانها).(3)

ولا يقصد من ذلك التقليل من أهمية العاطفة أو الأفكار ولكن القصد بيان دور الكلمة المهم في خلق الشعر .(فالناس جميعا ذوو فكر وعاطفة لكن القلة القليلة صاحبة القدرة على التعبير وصناعة الكلمات).(4)

(د) - التكرار :

التكرار هو وسيلة من الوسائل اللغوية التي يمكن أن تؤدي دورا تعبيريا واضحا في القصيدة ،(فتكرار لفظة أو عبارة يؤدي بشكل أولي إلى سيطرة هذا العنصر المكرر وإلحاحه على فكر الشاعر أو شعوره أو لا شعوره ، ومن ثم فهو لا يفتأ يخرج في رؤياه من لحظة لأخرى).(5)

وللتكرار وظيفة إيحائية هامة تدل على الرغبة في تأكيد المعنى ، وقد استخدم الشيخ تكرار الكلمة

---

1. عادل محلو ـ أحمد زغب : دراسات في أدب الأطفال. من إصدارات رابطة الفكر والإبداع بالوادي .مطبعة مزوار .د ط ، س 2004.ص: 28.
2. ديوان الدموع السوداء. ج1 .ص : 12.

4.3.إبراهيم أمين الزرزموني : الصورة الفنية في شعر علي الجارم.دار قباء .س 2000.ص: 118- 119.

5.النعمان القاضي : أبو فراس الحمداني الموقف والتشكيل الجمالي .دار الثقافة س1982 ص: 402/ 403.

أو العبارة في عدة أبيات متتالية، كصنيعه في رثاء زوجته التي سماها (الزوجة الشهيدة)، فقد كرر لفظة (يا نفس) أكثر من مرة :

يا نفس لا تظهـــــري حزنا لحادثة　　　فالموت عن كارثات الدهر يلهيــك

يا نفس بعضك مات اليوم فارتقــبي　　　تلك البقيـــــــة في الموتى تلاقيــك

فعنك يا نفس غابت شمس مجـــمعنا　　　وخلفت بعـــــــــدها آثارها فيـك

يا نفس لا تفرحي من بعد غيبتـــــهم　　　فلن تري بعدهم خيرا يسلـــــيك (1)

فحزن الشيخ كبير على فقد زوجته ، وأظهرت الأبيات مدى انفعاله ، وقدأدى التكرار في أبيات متعاقبة من مرثيته هذه وظيفة إيحائية، تمثلت في إظهار مدى تفجعه وتضعضعه تحت هول المصاب، ومدى ما عاناه من فقد زوجته التي كانت له ملاذا ونصيرا.ويكرر جملة (بعتك اليوم) ثلاث مرات في نفس الجو الحزين من وداع يائس خلف وراءه قلبا محطما فارغا بلا روح، يقول في قصيدة (وداع كتاب) :

بعتك اليوم واشتريتـــــــك أمس　　　يا كتابي وأنت في الكـــــــل أنسي

بعتك اليوم خاضعا لظـــــــروف　　　وصروف من الزمان المنـــــــسي

بعتك اليوم والدموع جـــــــــوار　　　عند بيعك يا كتابي ببـــــــــخس (2)

ومن أمثلة التكرار في أبيات متتابعة أيضا ما جاء في استقباله لبعض زعماء الجزائر حينما زاروا وادي سوف:

أهلا بكم من قائد أو مرشـــــــد　　　أهلا بكم من فاتـــــــح ومجدد

أهلا بكم يا زائـــــرين ومرحبا　　　زرتم رحيبا آهلا بالمســــــــعد

أهلا بكم فخر الجـــــــزائر كلها　　　رغم الحقود ورغم أنف الحســـد

أهلا بكم يا سادة يا قـــــــادة　　　يا ذادة يا قدوة للمقتــــــــــد (3)

وهذا الترحيب المتلاحق يكشف عن فرحة الشاعر بقدوم قادة الجزائر فهو في حالة حماسية انفعالية ،وأحسب أن الشيخ لا يدرك أنه يكرر ألفاظه و حتى لو أدرك ذلك فأن المعنى في نفسه لم ينته بعد، لذا يتجه مستمرا في تكراره حتى تمتلئ نفسه، والتكرار قد يكون للربط بين الأبيات أو توكيدا لمعانيه.

و يكرر الشيخ كلمة (هو) في البيت الواحد أربع مرات، يقول :

هو ريحانتي النديـــــــة طيبا　　　وهو شربي مروقــــا وهو كأسي

وهو نجمي المضيء وهو سمـــائي　　　وهو بدري المنير أو هـــــو شمسي (4)

4.3.2.1.ديوان الدموع السوداء ج1 ص: 97- 151- 43- 148.

فتكرار الضمير (هو) يدل على فرحته عند الاحتفال بتأسيس مدرسة بسكرة برئاسة الشيخ البشير الإبراهيمي ، فهذا اليوم هو يوم المنى بالنسبة إليه ، وكلما فتحت مدرسة جديدة كان النور يعم البلاد وتنقشع غياهب الجهل والظلام .

(هـ) - ذكر أسماء الأعلام :

المطلع على ديوان الشيخ يجد أمامه أسماء أعلام بصورة ملحوظة ، منها : أسماء أعلام عربية وأجنبية وأشخاص وأقطار ومدن . من ذلك ذكر زعماء الحركة الإصلاحية في الجزائر : عبد الحميد بن باديس ، الإبراهيمي ، والطيب العقبي :

في ابن باديس الإمـــــام الفـ ـــذ شـــيخ الـبـــــــــــدلا
في البشير الرائد الشـــــــهـ ـــم الفـــصيح المقـــــــــولا
في الخطيب الطيب العـــــقـ ـــبي داع مبـــتـــــــــــــلى (1)

ويذكر الشيخ (عمار بن لزعر) فيقول :

ونسيت حزب المفسدين وفعلهم ونسيت عمارا لنا أعلاما (2)

ويذكر الشاعر (أحمد شوقي) :

قل لشوقي ومات أحمد شوقي أين ما قلت في جزائر أسد (3)

ويذكر زعماء الفلسفة اليونان أرسطو وأفلاطون :

فما أفلاطون بذي وحي فنتبعه ولا أرسطو بذي رأي فننقده (4)

وعندما تحدث عن الحرب العالمية الثانية ذكر قادتها (هتلر)(وبنتروب) زعيم النازية(وهيس)(ومسيليني) :

أو أين هتلر والفـــــــخـــ ـــور ورائـــــــش يزهى وبند
قل لي بربك بنتـــــــــــــرو ب الغرب كيـــف النازي بعد
يا هيس نمت ومــــــا علمت فقم تر يا هيـــــــــس قيد
لزعيم رومة مســـيلـــــــيــ ـــني ذي القســـاوة دون حمد (5)

وأحسب أن ذكر الأعلام في الأبيات ، أمر لا يقدر عليه إلا ذوو القرائح من الفحول ، بحيث لا يمكن أن ينكسر البيت أو يضعف بناؤه ، و الشيخ التليلي ذكر الأسماء باقتدار .

1.ديوان الدموع السوداء ج2 .ص: 55/ 56.

5.4.3.2.المصدر نفسه ج1 .ص: 122- 39- 57- 41.

ولم ينس الشيخ ذكر اسمه في خاتمة بعض الرسائل الإخوانية ، منها قوله :

من طـــــــاهر نــــسبه إلى التليـــــلي وصّلـــــــه
منشـــــؤه في بـــــلدة تدعى قمـــــارا مرمــــله (1)

إن ذكر أسماء الأعلام سمة مميزة لشعراء كثر ، فهي تبين مقدرتهم الشعرية ، وثقافتهم العريضة ، ومسايرتهم لأحداث وثقافات عصرهم .

و ذكر الشيخ عناوين الكتب بكثرة في الرسائل الإخوانية ، سواء التي يهديها إلى أصدقائه أو تلك التي تهدى إليه . حيث يقول :

فمورد الظمـــآن تطفي ظمأنا وإقامة البــــــرهان حجة قائل
صفة الصلاة عــــلى النبي وآله وهي الوسيلة تحـــــفة المتناول
تصوير قصب أو رســـالة قبرص مجموعة الرد المصيب الحــــــافل
وكتاب مسؤولية العلـــماء قد طمت وعمت كل واد ســـــائل (2)

وننتقل إلى ذكر أسماء البلدان والمدن . فهو يذكر(تونس) التي لها مكان كبير في قلبه يقول :

فقلـــــــــبي لا يلذ له حديث سوى في تونـــــس ذات الدلال (3)

ويذكر اسم (مكة المكرمة) :

بيـــــــت بمكة لا يعادله سوى دار الخلــــود بجـــــنة الرضوان (4)

ويذكر (قمار) :

إلى كم يا قمــــــار أعاني منك ومن أهليـــــــــك أشباه الصلال (5)

ويذكر بسكرة قائلا :

من نحو بسكرة النــــــــــخيـــ ـــل إلى دُسيكـــــــــــــــرة بن برد (6)

ويذكر عنابة وأهلها :

والشكـــــــــر إن نلت مبتغايا لكم يا أهل عنــــــابة في السر والعلن (7)

ثانيا : ســــــمات الأسلوب والنظـم

إن قضية اللفظ والمعنى انتهت عند الإمام عبد القاهر الجرجاني بنظرية النظم ، حيث ينفي أن

1.ديوان الدموع السوداء. ج2 .ص: 66
3.2.المصدر نفسه. ج1 .ص: 109- 107
5.4. المصدر نفسه ج2ص: 26- .85
7.6.المصدر نفسه ج1ص: 39- 139.

تكون مزية النظم تعود للفظ وحده أو المعنى وحده كما يجب توخي معاني النحو وملائمة كل منـــها للآخر يقـول عبـد القـاهر : (أعلمـك أن فضـل الشـعر بلفظـه لا بمعنـاه ، وأنـه إذا عـدم الحسـن في لفظـه ونظمه لم يستحق هذا الاسم بالحقيقة). (1)

والأسلوب في اللغة : (يقال للسطر من النخيل : أسلوب وكل طريق ممتد فهو أسلوب ، والأسلوب : الطريق والوجه والمذهب ، ويجمع على أساليب ، و الأسلوب الفن). (2)من ذلك فالأسلوب هو الطريقة التي ينتهجها الشعراء في النظم.

أما اصطلاحا فيعرفه ابن خلدون قائلا : (ولنذكر هنا الأسلوب عند أهل الصناعة. صناعة الشعر، وما يريدون بها في إطلاقهم ، فاعلم أنها عبارة عندهم عن المنوال الذي ينسج فيه التراكيب ، أو القالب الذي يفرغ فيه ، ولا يرجع إلى الكلام باعتبار إفادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الإعراب ... ، وإنما يرجع إلى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص. وتلك الصورة ينتزعها الذهن من أعيان التراكيب وأشخاصها ويصيرها كالقلب أو المنوال...). (3)

وبعد الإطلاع على ديوان الدموع السوداء للشيخ التليلي ، فإنه يتوافر أمامنا عـدد مـن السـمات الأسـلوبية المميزة لشعره أهمها :

أ ـ طول القصائد الشعرية:

تتميز قصائد الشيخ التليلي بالتفـاوت بـين الطـول والقصـر ، والقصـائد الـتي فاقـت ثلاثـين بيتـا بلغت ثلاثا وأربعين قصيدة من جزئي الديوان ، وبعـض هـذه القصـائد يصـل إلى مائـة بيـت .وهـي أبيـات متماسكة البنيان قوية النسيج ، ولم يكن طولها باعثا على الملل .

لنأخذ مثلا قصيدة (في المزح الأدبي والهزل الطاهر)والتي بلغ عدد أبياتها ثلاثة وخمسين بيتا ، والمتأمل لهذه القصيدة لا يمكنه أن يقف وسطها بل لابد من إكمالها لنهايتها . يقول الشيخ التليلي :

فيا من روى من حديث الرؤى ... حديث منامـــــك قد يرفز
فروح القرينة ليســـــت بذاك ... ولكنه الطهر و الجــــــرمز
تقول وتزعم أنــــــــي لها ... غدور تروك ولا أنجــــــز
تفوه بما ليـــــس فيه الرضا ... وتأتي من اللوم ما يعجــــز
أذاك من أم خـــــير تخـال ... وأنت بمكة لا تفـــــــرز

1.عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز .صححه الشيخ الإمام محمد عبده .دار الكتب العلمية بيروت. ط1س1988.ص: 198.

2. ابن منظور: .لسان العرب مادة (سلب) .المجلد 2.ص : 177.

3..ابن خلدون : المقدمة .دار الفكر . س 2004.ص: 589.

فروح القريـــــــنة بل ذاتها — يلازمني أينما أجـــــــمز
يحدثني بخــــــــلاف الذي — يحدث روح لكم أحــــــمز
وينثر فوق بســــاط الوداد — نثار المحبة أو يطـــــــــرز
فلا هو في نثره مخـــــــتش — ولا أنا في البسط محتـــــــرز
كلانا يقص ويفــــــضي بما — يكن من الوجد لا يوجـــــز (1)

فهو يحكي في القصيدة رؤيا منام حضرت إليه زوجته المتوفاة ، وتبادلا أطراف الحديث الشيق . والشيخ في المطولات مثله في المقطوعات، وقصار القصائد، لا يأخذه إعياء، أو يعتريه نضوب، خاصة في القصائد التعليمية لتلاميذ المدارس ، فهو دائما ينصحهم ويحثهم .

ب- التأثر بأساليب القرآن الكريم:

بحكم نشأة الشيخ التليلي الدينية ، وحفظه القرآن الكريم ، انتهج الطريق الإصلاحي ، فكان الشعر (أهدافه إصلاحية ترمي إلى إنماء الوعي الشعبي عن طريق الدين والمبادئ الخلقية ، وقد سبقت الإشارة إلى أن الشعر الجزائري عامة كان ينتسب إلى الحركة الإصلاحية ، ولذلك فقد كان على شعر المنابر أن يوضح أغراض هذه الحركة ويصوغها في أثواب دينية تستميل الشعب وتبعث فيه الحماسة واليقظة).(2)وهذه الميزة نلمحها في قصائد الشيخ عندما استخدم الدين لأغراض إصلاحية توجيهية ،شأنه في ذلك شأن شعراء عصره ،لذلك توجهوا (إلى العناية بالقرآن الكريم وهو يعد الرافد القوي ،والمنبع الثري للثقافة العربية والاهتمام به حفظا وتذوقا ودراسة وتفسيرا ...).(3)وجاءت أساليب الشيخ متأثرة بالقرآن الكريم ، حيث يقول :

فقال أقوامه –إلا القليـــــل – له — إنا على عـــــادة الآباء مندرجا (4)

فشاعرنا كتب هذه القصيدة عندما تذكر ماضيه القديم، ودراسته في الزيتونة، ورغبته في نشر الوعي، ومبادئ الإسلام لدى شريحة كبيرة من المجتمع الجزائري أثناء الاحتلال عندما حاول طمس المقومات الشخصية للجزائريين، فأخذ يصور ردة الفعل ،و نفور الشباب من الدين ونكرهم له ، وتمسكهم بأفكار آبائهم وأجدادهم، ويظهر من خلال البيت الصلة الوثقى بين الأنبياء والعلماء ، فكلاهما داع، وكلاهما يتعرض للنكران والعنت، ولا شك أن الشيخ التليلي متأثر بقوله تعالى: (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله

1. ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 94.
2.د/ أبو القاسم سعد الله : دراسات في الأدب الجزائري الحديث .ص: 36.
3.د/ محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925ـ 1975 .دار الغرب الإسلامي ط1س1985.ص: 43.
4.ديوان الدموع السوداء ج2ص: 37.

قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا).(1)

يقول الشيخ التليلي بمناسبة مولد الرسول صلى الله عليه وسلم :

وإن يكن لكم يا قوم من حجج فاتوا بها حجة معقولة النسب (2)

مأخوذ من قوله تعالى : (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين)(3)

ومن مثل قوله :

فأنبت غصنه في أرض ســــوف فكنـــــــا الغصن يمطره الغمام

فقد أحييتـــــــــم منا مـــواتا يكاد يطمـــــــــــه عنا الرغام (4)

مأخوذ من قوله تعالى :(فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها). (5)

فجعل الشيخ زيارة الإمام التليلي شيخ زاوية سيدي أحمد التليلي في فريانة بتونس لوادي سوف انبعاثا من الموت ، أو تجديدا للحياة ، فكأنها أرض ميتة أحياها الله بالماء .

وقوله :

الصبر أحسن حلـــــية الإنسان في ساحة الأوصــاب والأحزان (6)

وكان لوفاة صديقه عبد القادر الزياني أثر كبير في نفسه ، لكن الإنسان لا يستطيع شيئا غير الصبر، وقد أخذ أسلوبها من قوله تعالى :(اصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور)(7).

ويقول الشيخ :

وفيها أن للأرحـــــــام حقا وقطع حقوقـــــها أبدا حرام (8)

مأخوذ من قوله تعالى :(وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم).(9).

ج ـ التأثر بأسلوب الشعر العـــــــــــــربي :

كان الشعر العربي القديم من أغزر الروافد التي صبت في الشعر الجزائري الحديث ، وأضفت عليه

1..سورة (البقرة) الآية :170.
2. ديوان الدموع السوداء ج1ص: 14.
3. سورة (البقرة).الآية :111.
4. ديوان الدموع السوداء ج2ص: 69.
5. سورة(فاطر).الآية :9.
6. ديوان الدموع السوداء ج2.ص: 53.
7. سورة (لقمان).الآية : 17.
8. ديوان الدموع السوداء ج2.ص: 69.
9. سورة (محمد). الآية :23/22.

طابع الجزالة والقوة ،حيث يرى محمد ناصر أن الأدباء التقليديين(يعنون بالأدب العربي القديم).(1)
وظهر ذلك من خلال قصائد الشيخ التليلي التي ضمنها أبياتا و أشطر من الشعر العربي القديم ، كما كان منفتحا على الشعر الحديث ،و أدى ذلك إلى تمكنه من قاصية الشعر . ومن الجاهلين الذين تمثل أساليبهم وظهرت أصداء صياغتهم في شعره واضحة عنترة بن شداد الشاعر الفارس ، وفي ديوان الشيخ التليلي أبيات تشتبه بأبيات عنترة عندما يقول :

وسيفي كان في الهيـــجا طبيب   يداوي رأس من يشكو الصداعا (2)

وقد ضمنه الشيخ قوله :

وفي كفه للعــــــــدى حربة   يداوي بها رأس كل مصـــــاب(3)

ولم يقف تأثر الشيخ التليلي بالتراث عند عنترة ، ولكنه تجاوزهما إلى فحول صدر الإسلام ، فمن قصيدة همزية يأخذ عن أبي الأسود الدولي قوله :

وجئت بملئـــــها طورا طورا   أجـــــــــيء بحمأة وقليل ماء (4)

وقد أخذ منه البيت كله ، ليبين به عدم يأس الإنسان ، وإنما عليه الاستمرار حتى يبلغ المرء غايـــته ، والشاعر يقوِّم اعوجاجا في تفكير بعض الكسالى والمتواكلين.
ويبدو تأثر الشيخ التليلي واضحا بأساليب فحول الأمويين كالفرزدق ،وتبدو في شعره أصداء صياغته من مثل قول الفرزدق :

الأكثرون إذا يعــد حصادهم   والأكرمــون إذا يعـــد الأول .(5)

ويقول الشيخ التليلي :

ونسل الأكرمــين من الأناسي   إذا ما عــد خيــر في الزمــــان (6)

وفي شعره أصداء من الشعر العباسي كالمتنبي وأبي العلاء والإمام الشافعي ، وهي تكشف عن ثقافـــة الشيخ ، وعن إحاطته بالتراث الشعري ، ولعل أكثر الشعراء الذين تأثر بهم الشيخ التليلي المتنبي ، حين يقول :

---

1. د/ محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث .ص : 47.
2. ديوان عنترة .دار بيروت. د ط س1978.ص : 171.
3. ديوان الدموع السوداء ج1.ص : 13.
4. ديوان أبي الأسود الدؤلي.صنعة أبي سعيد الحسن العسكري .تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين دار مكتبة الهلال . ط2 س 1998ص : 160.
5. ديوان الفرزدق دار بيروت د ط .س1980. ج2 ص : 156.
6. ديوان الدموع السوداء ج1ص : 130.

فصرت إذا ما أصـــــابتني سهام — تكسرت النصـــال على النصال (1)

يقول الشيخ :

ولولا الـــــــدين أو خلق متين — لحطمت النصـــال على النصال (2)

ويقول المتنبي :

إن كان ســــركم ما قال حاسدنا — فما لجـــــــرح إذا أرضاكم ألم (3)

يقول الشيخ :

وأن كان لا يرضيك إلا شقاوتي — رضينا بما ترضى وإن كنت في خسر (4)

كما أخذ عن البحتري قوله :

صنت نفـسي عما يدنس نفسي — وترفعت عن جـــــدا كل جبس (5)

ويبدو تأثره بالإمام الشافعي واضحا حين يقول :

ومن رام العـــــــلا من غير كد — أضاع العـــــمر في طلب المحال (6)

وقد ضمنها شعره في أكثر من موقع ، فاقتبس الشطر الأول ، كما اقتبس البيت بأكمله مع تغيير بسيط حين قال :

فمن طلب العلوم بغيـــــــر كد — أضـــــاع العمر في طلب المحال (7)

وأخذ من المتنبي قوله :

أعيذها نظرات مـــــــنك صادقة — أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم (8)

يقول الشيخ :

وحسب ذات أورام ونفــــــــخ — من النـــوع المحبـــــــب والسمين (9)

وتجدر الإشارة إلى أن بيتا للمتنبي بتمامه قد ورد عقب بيت الشيخ في قصيدته اللامية التي مطلعها :

أبا المكـــــــــارم والنــــــوال — وأستـــــــاذ المعارف والمعالي (10)

---

1. ديوان المتنبي . دار بيروت .د ط .س 1983.ص : 265.
2. ديوان الدموع السوداء ج1ص : 108.
3. ديوان المتنبي .ص : 333.
4. ديوان الدموع السوداء ج1ص : 79.
5. ديوان البحتري مطبعة الجوائب قسطنطينية.ط1س 1300.ج1 ص : 108.
6. ديوان الإمام الشافعي .اعتنى به عبد الرحمن المصطفاوي .دار المعرفة بيروت ط3.س2005.ص : 100.
7. ديوان الدموع السوداء ج1.ص : 103.
8. ديوان المتنبي .ص : 332.
9. ديوان الدموع السوداء ج2.ص : 79.
10. المصدر نفسه .ج1.ص : 106.

وفي نفس الوزن والقافية يقول الشيخ على لسان المتنبي :

فإن تقـــف الأنام وأنت منهم   فإن المســـــك بعض دم الغزال (1)

ولم يقتصر تأثر الشيخ بالشعر العربي القديم ، بل تعداه إلى الشعر الحديث ، حيث أخذ عن إيليا أبي ماضي قوله :

أيها الشـــــاكي ما بك داء   كيـــف تغدو وقد غدوت عليلا

وترى الشـــوك في الورود وتعمى   أن ترى فـــوقها الندى إكليلا

والذي نفسه بغـــير جمـــال   لا يرى في الوجود شيئا جميـــلا (2)

يقول الشيخ في ذات الموضوع :

ما أرى في الوجود إلا اشتيـــاكا   لا أرى فـــوق وردتـــي إكليلا

إن رأى الناس في الوجود جمالا   فوجودي قد لا أراه جمـــيـــلا (3)

وكذلك يقول حافظ إبراهيم :

الأم روض إن تعـــهده الحيا   بالرأي أورق أيـــما إيراق (4)

يقول الشيخ :

ولا روضه روض تعـــهده الحيا   فكان له زهر أنيـــق ومنظر (5)

(د) - أسلوب الحوار والسرد والوصف :

يظهر أسلوب السرد والوصف والحوار بطريقة واضحة في أسلوب الشيخ التليلي ، حيث بلغ عدد القصائد التي بناها معتمدا وبشكل واضح على إمكانية مسرحتها إحدى عشرة قصيدة ، وهو عدد مهم يحسب للشيخ ، لأنه نظم بعض هذه النصوص خلال الثلاثينيات ، وهي فترة متقدمة جدا في الشعر المسرحي العربي ، ويوضح الدكتور عادل محلو أن البدايات الأولى للمسرحية (كان قد صاغها شـوقي في بدايات القرن العشرين ، فإذا كان الفرق بين الشيخ التليلي وأحمد شوقي أقل من ثلاثين سنة من الحساسية الشعرية على كون شوقي في القاهرة ، والشيخ في مدارس بمناطق صغيرة ونائـــية فذلك مما

1. ديوان المتنبي .ص : 268.
2. ديوان إيليا أبي ماضي تقديم : جبران خليل جبران .دار العودة .ط1س1986..ص : 604.
3. ديوان الدموع السوداء ج2.ص : 40.
4. ديوان حافظ إبراهيم .الهيئة المصرية للكتاب .ط3. س 1987.ص : 282.
5. ديوان الدموع السوداء ج2ص : 40.

يحسب للشيخ التليلي ، ويحله مكانة سامية في مسار الحساسية الشعرية الجزائرية).(1)

واستخدم الشيخ التليلي وسائل متنوعة في إظهار الشكل المسرحي لقصائده ، فأحيانا يصوغها في شكل مناظرة واضحة كتلك التي نظمها بين التل والصحراء ، وهي تدخل في أدب الأطفال :

قال التل :

المجد مجـــــدي فلا الإنسان ينكره	ولا تنازعـــــني في المجد صحراء
النهر من خدمي والبحر من حشمي	وشامخات الذرى في التل خضراء

قالت الصحراء :

لا تفتخر أنت يا تل بغيـــــرك إن	ن الفخور بغير عـــــزّة الناس
البحر ليس لكم والنهر منقســـــم	بيني وبينك من قـــاع إلى راس (2)

أو في شكل محاورة ساخرة بين شخصين أو أكثر في قصيدة بعنوان (الجزاء من جنس العمل) :

قالوا هجاك عصـــــيفر	قلت الأخـــن بن الأخن
قالوا الذي خيشـــــومه	متفرطح مثل الـــــمجن
قلت الذي من أنفــــه	دود تدلى للذقــــــــن
قالوا نعـــــم ذاك الذي	في نطقه خبث الخنــــــن
قالوا الذي فيه القـــزا	ـمة والدمامة والعفــــــن (3)

ونفس الأسلوب يستخدمه عندما يعالج قضية اجتماعية ، فيقول في (نعمة الزواج ونقمته بالنسبة للزوج) :

قالـــــوا الزواج هناء	وكل شـــــــيء ملكته
قلت الـــــزواج عناء	وكل شيء أضعتـــــــه
قالوا تزوجــــت صغرى	وأنت شيخ كبــــــــير
فلوثت منك قـــــدرا	والجاري أنت الغـــــرير (4)

أما الشعر القصصي فهو يعالج موضوعات متعددة ، منها قضية الزواج ، ففي حوار جرى بين مجموعة مختلفة من النساء حول الزواج من شيخ ، تعرض لرأي الفتاة الصغيرة ، والعانس ، وذات الأولاد ، والمطلقة ... تقول المرأة العانس :

---

1. عادل محلو : الشيخ الطاهر التليلي شاعر للأطفال . موضوع ألقي في الندوة الفكرية الرابعة تحت عنوان : العلامة المصلح محمد الطاهر التليلي قراءات في سيرته وفكره وآثاره. ص : 150.
2. ديوان الدموع السوداء ج2ص : 52.
4.3..المصدر نفسه ج1.ص : 124- 111.

عنسي ولا الشيخ العجوز الهارم ولو أنه الشـــيخ الوقور العالم

والمطلقة تقول :

طلقوني وما فعـــــلت ذنوبا فدعوني من القســـــاة قلوبا (1)

فالحوار هو الوسيلة الجمالية الوحيدة لإبراز هذه المواقف المتشابهة حول فكرة رفض الزواج من الشيخ.

أما أسلوب الوصف فقد انتهجه الشيخ التليلي في شعره خاصة عندما يصف حاله عند الكبر ، حيث يقول :

عجـــــزت عن كل شيء حتى افتقـــــــدت القياما

ففي الدماغ طنــــــين أحس منه اضطـــــــراما

كأنه الريـــــــح تجري بين النخـــــــيل دواما

وفي العيـــــــون غشاء رد الضياء ظـــــــلاما

لم يبق غير بصـــــــيص ترى به العيـــــــن غاما

في الأذن مني استكـــــاك سد الصمـــــاخ رصامـــا

لم تسمـــــــع الأذن منه إلا صـــــراخا تســــامى (2)

أما أسلوب السرد القصصي ، فقد اتبعه الشيخ التليلي وبشكل خاص في الرسائل التي بعثها إلى أصدقائه في مكة والمدينة ، حيث أخد يسرد أحوال البلاد ، والتغيرات التي وقعت أثناء الاحتلال مثل خروج قادة الثورة من السجن وإجراء الانتخابات . كما سرد وقائع عودته من تونس إلى وادي سوف مسقط رأسه . وقد سلك الشيخ مسلك السرد القصصي الذي يعتمد على التتابع والتسلسل في عرض الأحداث ، كما يعتمد على الحوار المتبادل بين الإنس والجن ليتعرف على أسباب الفقر ومشاكله . يقول :

إن رمــــت تعرف لغزا مذلـــــــــلا ومعزا

فاذهب لحــــاكم جن وادفع إليــــــه إوزا

وقل أتيتك كـــــيما أزيل بالفهم عـــــجزا

يقول للجن هبــــــوا فإن أبيتم فوكـــــــزا

وأنت قـــــرب إلـــــي أريك بالعلم طــــــرزا

فاذبح دجاجـــــا وديكا وإن قدرت فعـــــــنزا (3)

2.1.ديوان الدموع السوداء . ج2.ص : 14 / 15 - 83.

3.المصدر نفسه.ج1.ص : 91/90.

(هـ) - دراسة اللـــــــــــــغة :

لقد سار الشيخ التليلي في شعره وفق المستوى اللغوي الحسن ، فحرص على سلامة الاستعمال اللغوي قدر طاقته ، إلا أن شعره لم يسلم من بعض الهنوات التي وقع فيها اضطرارا أو تجاوزا ، وللحق فإن بعضا من هذه الهنوات وقعت في الجزء الأول من الديوان اضطرارا و استجابة للضرورة الشعرية ، كما تعتبر اللغة إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر وسيلة لحث الشعب وتوعيته أكثر من كونها وسيلة لإبراز الجمال الفني .ومن أمثلة الضرورات الشعرية ، صرفه (ليثرب) وهي ممنوعة من الصرف :

عشرون ألفا قدموا من يثربٍ   في عهد ذي النورين صاحب النبي (1)

إن الوزن الشعري يتحكم في اللغة فيحيل الكلمات المهموزة إلى كلمات خالية من الهمز أو العكس ،وقد جاء في شعر الشيخ التليلي (الإسم) بدل (الاسم) حين يقول :

توحدوا في الإسم لا في اللقب   فكلكم على اختلاف الرتب (2)

وكذلك قوله :

وهكذا اللئيـــــم حين ياتي   يخرب البيـــــوت بالشتات (3)

أما قصر الممدود ، فمن أمثلته قوله :

فيقول ما قالـــــــــت له   كالببغا بنـــــــت الصلـــب (4)

ورد في قوله (الببغا) أصلها (الببغاء) ، وكذلك قوله :

أنا هنـــــــــــا في عزلة   وراحة وفي اخـــــــــــتبا (5)

كلمة (اختبا) التي أصلها (اختباء).

أما ما سقط فيه الشيخ التليلي من الأخطاء اللغوية ، فيمكن أن نورد منها :

إدخاله (ال) التعريف على (بعض) ، وهو غير مستحسن لدى النحاة ، حيث يقول :

وضاع البعض منا في الزوايا   ومات البعض منا في السجون (6)

وكذلك استعماله كلمة (الزفاف) بدل (الزواج) ، لأن (الزفاف) إهداء العروس إلى زوجها (7)، حيث يقول :

1..ديوان الدموع السوداء . ج1.ص: 24.

5.4.3.2. المصدر نفسه ج1.ص: 24- 30- 17- 21.

6..المصدر نفسه ج2.ص: 79.

7..محمد العدناني: معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة . مكتبة لبنان .ط1. س1984.ص: 287.

واعذر أخاك في الزفاف الثاني فذاك حتم يقتضيـــــه شاني (1)

وقوله (تِذكار) وأصلها (تَذكار) (2) :

هذه صورتي على كل حال فاعتبرها لديك كالتِّذكـــــار (3)

واستخدم كلمة (المنام) ويقصد بها (الرؤيا) ، لأن المنام هو النوم وموضعه (4)، في قوله :

وترى المعبر للمــــــــــنام بصدق راء أخـــــــــــبرا (5)

كما توجد بعض الكلمات ثقيلة النطق لتكرار حرف الدال ثلاث مرات في العجز :

فهمت من دهـــري كل هذا فهمت في فدفـــــــــد دريس (6)

ويمكن أن نجد للشيخ التليلي في مثل هذه السقطات عذرا فيما يتداوله النحاة ، ويعود ذلك إلى كـون ابنته هي التي تكتب له ، فقد تقع في أخطاء رغم محاولات الشيخ تصويب بعضها .

1..ديوان الدموع السوداء ج2.ص : 22.

2..محمد العدناني : معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة . ص: 240.

3.ديوان الدموع السوداء ج.1ص : 89.

4.محمد العدناني : معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة . ص: 685.

6.5.ديوان الدموع السوداء ج1.ص : 63- 149.

الصورة الفنية :

إن الشاعر مبدع في اللغة ، حيث يعيد صياغة الألفاظ التي تستخدمها ، فتبدو في ثوب جديد كأن لم يكن . والشاعر يعمل فكره في الكون الكبير من حوله ، وفي ثقافته التي تربى عليها من تراث ، وحداثة ، ومن خبرات عاشها أو قرأها ، فيصهر ذلك كله –وغيره – في بوتقة خاصة يبدع من خلالها خياله الممزوج بعاطفته و نظرته الخاصة للأشياء .

والخيال لازم للأدب عموما ، وللشعر بخاصة :(فبدونه تصبح الحياة علقما مر المذاق لا تطاق ؛ لسبب بسيط : و هو أنها تفقد روحها وتفقد ما يحرك فينا حبها ، إذ تصبح أكداسا وأكواما من الأحداث الزائلة التي لا تخلب لبا ، ولا تستهوي بصرا ، ولا سمعا)(1) .

ونحن نفصل الخيال الذي يأتي عفويا ، نابعا من العاطفة ، ملتحما مع السياق ، وننفي ذلك عن الخيال الذي يكون متكلفا و يؤتى به على أنه زينة ووشي زائد عن العمل الأدبي.

والخيال :(هو العنصر الذي تلجأ إليه العاطفة لتعبر عن نفسها ، حين تعجز العبارات الأخرى دون تحقيق هذه الغاية الأدبية) (2) ،

إن الشاعر يزاوج في شعره بين التعبير الحقيقي والتعبير المجازي. ودراسة الخيال هي الطريق الطبيعي لدراسة الصورة الفنية عند أي شاعر ، لأن الخيال أصل الصورة الذي لا يستغنى عنه. يقول أحد النقاد (فالخيال إذن أساس الصورة الأدبية مهما تكن درجته الفنية)(3).

ويقول شوقي ضيف عن الخيال بأنه إحساسات سابقة مختزنة في الذاكرة حتى موعد استخدامها (الخيال هو الملكة التي يستطيع بها الأدباء أن يؤلفوا صورهم ، وهم لا يؤلفونها من الهواء ، وإنما يؤلفونها من إحساسات سابقة لا حصر لها ، تختزنها عقولهم ، وتظل كامنة في مخيلتهم متى يحين الوقت فيؤلفوا منها الصورة التي يريدونها)(4).

ونستخلص من ذلك أن الخيال لا يكوّنه الأديب من الهواء ، وقد وضع النقاد شروطا للخيال ليحكم

1. شوقي ضيف : في النقد الأدبي .دار المعارف القاهرة ط6 .ص: .172 ـ .173

3.2.أحمد الشايب : أصول النقد الأدبي.مكتبة النهضة المصرية .ط10س1994.ص: 33- 243.

4.شوقي ضيف : في النقد الأدبي .ص: 167.

عليه بالجودة ،منها أ لا يكون الخيال برهانا عقليا ،وأن ترتبط الصور الخيالية بالعاطفة ،وأن لا يتنافى الخيال مع العقل ،وأن يكون له دور في التشخيص والتجسيم ،وأن يكون قادرا على الخلق والابتكار. (1).

واللغة العربية لغة المجاز ، وهي لغة غنية ببلاغتها التي تناسب كل العصور ، فتزيد الصورة الفنية تأثيرا وتوضيحا وعمقا. يقول العقاد(إن اللغة العربية لغة المجاز ،والمجاز هو الأداة الكبرى من أدوات التعبير الشعري ، لأنه تشبيهات وأخيلة وصور مستعارة ،وإشارات ترمز إلى الحقيقة المجردة بالأشكال المحسوسة ، وهذه هي العبارة الشعرية في جوهرها الأصيل)(2).

والمجاز هو عكس الحقيقة ،وهو أهم أداة من أدوات التعبير الشعري ويشمل الصور البيانية : من تشبيهات واستعارات ، وكنايات ......

ولننطلق لنتعرف على الأنواع البلاغية للصورة الفنية عند الشيخ التليلي :

الصورة التشبيهية

التشبيه في اللغة التمثيل ، يقال شبهت هذا بذلك أي مثلته به (3) ،ويعرفه علماء البيان بقولهم (هو الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى مشترك بينهما بإحـــــدى أدوات التشبيه المذكـــــورة أو المقـــدرة المفهومـــة من سياق الكلام) .(4) والتشبيه يعتمد على عدة أركان وله أنواع عديدة حيث يقول عبد القاهر الجرجاني : (اعلم أن الذي أوجب أن يكون في التشبيه هذا الانقســام أو الاشتراك في الصفة يقع مرة في نفسها وحقيقة جنسها ،و مرة في حكم لها ومقتضى) .(5) وقد اعتنى القدماء بالتشبيه حتى أنهم (لم يجدوا بأسا من عد التشبيه علامة على الشاعرية ودليلا على براعة الشاعر).(6)

و استخدم الشيخ التليلي التشبيه لتوضيح كلامه ، فقال عن كتاباته المتناثرة في إرجاء الغرفة دون ترتيب أو عناية :

رأيت بنات فكري في لحاف   من الأوراق مســود دكين
مجدرة الوجـــوه ملطخات   كأن بثورها قطـع العجين
مجرحة الخدود مــقرحات   مدمعة المحاجــر والجفون
مغبرة الملامح والثنــــايا   كان عليها أغبـــار السنين

1. راجع : محمد غنيمي هلال :النقد الأدبي الحديث.ص : 361.
2. . عباس محمود العقاد :اللغة الشاعرة . دار نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة. د ط س 1995. ص : 33.
3. د/عبد الرزاق عبد الرحمان السعدي :تنبيه الوسنان إلى علم البيان .دار الأنبار د ط .س 1997.ص : 06.
4. د/ شيخ أمين بكري: البلاغة العربية في ثوبها الجديد ـ علم البيان ـ دار العلم للملايين . بيروت. ط 7 . س2001. ص : 13.
5. عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة في علم البيان . صححها الشيخ محمد عبده. دار الكتب العلمية ـ بيروت ط1. س1988 . ص : 78.
6. جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب . المركز الثقافي العربي بيروت . ط3س 1992. ص: 113.

فقيل لهن ما بال الصبـــايا مشوهة الحواجب والـــذقون
فقلن لقد ولدن ناقـــصات وأهملنا أطبـــــاء الجنين (1)

رأى الشيخ أن كتاباته المبعثرة في الغرفة غير واضحة المعالم ، فأصابه الحزن واليأس، و صاغ هذه الصورة التي يعتبر فيها التشبيه عنصرا مهما ، حيث شبه الأوراق المبعثرة وقد لطخها بالحبر عندما رسم فيها أفكاره (بقطع العجين)الذي يرسم به ملامح الأشياء ، فجعل الكتابة على الورق تشويها لنقائها وجمالها . وعبر عن طول مكثها في زاوية الغرفة دون لمس ،وقد تكدس عليها الغبار بقوله (كأن عليها أغبار السنين) .

ومما يلاحظ على الصورة التشبيهية عند الشيخ هو البساطة والبعد عن التكلف ، ولعل ذلك يعود بالأساس إلى أسلوب الشيخ التوجيهية والإصلاحية .دون أن ننسى ضغط المستعمر على الشعب الجزائري أثناء الاحتلال، عندما حرمه من التواصل الثقافي والفكري لإنجاز أعمال فنية متميزة ، فكان هدف الشعر إصلاحيا تعليميا أكثر من كونه جماليا فنيا ،وكذلك انزواء الشيخ التليلي في غرفته بعيدا عن الناس ، وقطع صلته بالثقافات المجاورة، وآرائها ونقدها وعدم تواصله مع شعراء عصره .

وقد غلبت الصورة التراثية على مصادر صوره ، ففي الفخر تبدو أسوار المدرسة جبالا شاهقة متينة تحمي تلاميذ المدارس، كما تحمي الجبال الثوار أثناء الحرب ،ويعطي خيارا آخر وهي البواخر الضخمة القادرة على تحمل أمواج البحر ، حيث يقول :

كيف لا والحصون للعلم تعلو كالجبل أو كالبواخر ترسي (2)

وفي تصويره لأحدى الليالي التي ازداد فيها شوقه لتونس حتى جافاه النوم، وتضجر من طول الليل حتى ظنه غير منته ،فهو ممتد إلى الحشر يقول :

وليلة سمري قد ظننت لطولها بأن لها حبلا يطـــول إلى الحشر
وما ذاك من طول الليالي حقيقة ولكن طير النوم حـلق كالنـــسر (3)

لكن يبدو أن طول الليل عند الشيخ يتمثله (طير النوم حلق كالنسر) فهو يشبه النوم الذي جافاه بالنسر عندما حلق عاليا مبتعدا عن صاحبه مستمتعا بعلوه .

وفي قصيدة بعثها لصديقه في السجن جعله بدرا مضيئا بين خلانه فيقول :

هم النجوم وأنت البـــدر بينهم وربما كنت ماء سائغا لصدي (4)

---

1. ديوان الدموع السوداء ج2 .ص 78.
4.3.2.المصدر نفسه ج1 .ص 148- 78- 36.

ويشتكي في آخر القصيدة من ظلم الدهر والناس ، فكانت رسالته مرآة صادقة تبين عذابه وحزنه ، شبهها بالجمر المتقد . يقول :

رسالة ملؤها شكـــوى وتبصره　　　وبعض أخبارها سلوى لمبتعد

ترى بها مثل مـــرآة أخاك وفي　　　أحشائه مثل جمر ساح منتقد (1)

ويرى في الدهر الذي يعاديه غولا مفزعا فيقول :

والدهر غول للخـــلائق كلها　　　وحوادث الأيـــام من أعوان (2)

وفي مجال الرثاء يبين أثر وفاة والده في نفسه ، فقد ذهب منه العقل والتركيز ، وانهارت أعضاء جسمه مثل السكرى ، فهو يرى نفسه قصبا فارغا جوفه ، أو نصبا لا يستطيع الحراك من هول الحادثة يقول :

جل المصاب فجلت الأوصاب　　　وتمزقت في جســـمنا أعصاب

وتطايرت منا الحلوم فغـادرت　　　أجسامنا وكأنها أقصــــــاب

وتراخت الأعضاء سكرى حيرة　　　وتثاقلت فكأنها أنصــــــاب (3)

وكانت أدوات الحرب التقليدية حاضرة في شعره رغم طول مدة ابتعاده عنها ، فقد كان حفظ القرآن الكريم سيفا صارما مدافعا عن الحق ، وعن حمى صاحبه فقال :

وكان له سيفا حســـاما لمن له　　　تصدى بإلقاء الشكوك من الهمج (4)

ويستعير السيف ليعبر عن شبابه ، وسرعته في الرد على الأعداء :

وقد كان عقـــــلي فتيا نقيا　　　كسيف صقيل سريـع الضراب (5)

وخصص الشيخ التليلي موضعا عرض فيه جملة من أوصافه وتشبيهاته ، وهي جميعا صور تشبيهيه مستمدة من الواقع و من الطبيعة . وهذا يدل على أن صور الشيخ نابعة من ممارسات ومعايشات خبرها وعرفها ، واتخذ من الطبيعة والواقع مصدرا أصيلا من مصادره ، إلى جانب استمداده من لتراث ، حيث أخذ من الطبيعة عظمة الجبال ، وقوة الأسود ليشكل صورة بديعية تعبر عن فخره بقادة جمعية العلماء المسلمين حيث يقول :

أبناء يعرب يا أسود شمالنا　　　أنتـــم لنا ولأرضنا عز الغد

أرض الجزائر أنتم أشبـالها　　　وجبالها ورجالـها في سؤدد (6)

1. ديوان الدموع السوداء ج1 .ص 36.
2. المصدر نفسه .ج2 .ص 53.
3. المصدر نفسه. ج1 .ص 20.

5.4.المصدر نفسه . ج2 .ص27- 79

6.المصدر نفسه . ج1 .ص43.

ويذكر الشيخ أيام الصبا والدراسة في تونس فيقول :

ترانا فيه كالطـــير انتعاشا   تناغت وهو كالقفص الرحيب (1)

فقد شبه شدوهم وفرحهم وانتعاشهم بالطير المرحة ، بينما جامع الزيتونة قفصهم الرحيب ، وأظهرت القصيدة فرحه بالدراسة في الجامع الزيتوني مع أصدقائه وخلانه.

وعندما يتناول الشيخ موضوع المرأة ، يختار لها إحدى عناصر الطبيعة الصحراوية الخطرة والقاتلة ألا وهي الأفعى بسمها الناقع فيقول :

كل النســـــاء أفاع   في سنها الســــــم ناقع (2)

ويتناول سباق الخيل ليصور به حياة الناس المسرعة من أجل الوصول إلى مبتغاها ، وهي أحسن صورة حسية معبرة عن المعنى ، مأخوذة من الواقع الصحراوي المعاش :

وأنَّا جميعا كخــــــيل السباق   فأسبــقُنا من تخطى العلم (3)

وعندما يتذكر الجدود يراهم شمسا منيرة وغيثا غزيرا ، ومصباحا ينيـر ظلمة الجهل ، ويتمثلهم أســـودا في الحروب ولؤلؤا منثورا في حالة السلم فيقول :

أتوا كالشمس يتبعــــها ضياء   إلى أرض الجـــزائر والشمال

أتوا كالغيث تسبقـــــه رعود   وتعقبه البشـارة بالنـــوال

هم الإصباح حين ترى سـواهم   دياجي في المظـــالم والضلال

هم الأسد الضراغم في حـروب   هم في السلم حبات الـــلآلي (4)

ولجأ الشيخ التليلي إلى التشبيه الضمني على قلته ، وهو (تشبيه لا يوضع فيه المشبه والمشبه به في صورة من صور التشبيه المعروفة ، بل يلمحان في التركيب)(5).

يقول الشيخ التليلي :

وجنبوا عنكم حمراء فتنتـــكم   فإنها النار لا تدنوا لها الحطبا (6)

فقد طلب من الناس الابتعاد عن الفتن التي تجلب الحروب ، وشبهها بالنار التي يذكيها الحطب .كما صور نفاق العامة ، وإخفاء نواياهم وإظهار العكس في قوله :

---

1. ديوان الدموع السوداء . ج1 .ص18.

3.2.المصدر نفسه . ج2 .ص11- 59.

4.المصدر نفسه . ج1 .ص101.

5.علي الجارم ومصطفى أمين : البلاغة الواضحة البيان والمعاني والبديع .دار المعارف بمصر .ص: 47.

6.ديوان الدموع السوداء ج1 .ص10.

فإن تكن أسنـــــــانهم مبيضة　　　فإنما النحاس تحــــت الفضة (1)

الصورة الإستعارية :

الاستعارة عند عبد القاهر الجرجاني هي : (أن تريد تشبيه الشيء بشيء ، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره ، وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه) (2).ومعنى ذلك أن الاستعارة فرع من التشبيه ، أو كما يقول البلاغيون (الاستعارة تشبيه حذف أحد طرفيه)(3).فالاستعارة والتشبيه تشتركان في المشبه والمشبه به ، لكن أحدهما يكون محذوفا في الاستعارة.

و يقول الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة :(هي أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ،ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل وينقله إليه نقلا غير لازم ،وهكذا يمكن القول بأنها ضرب من المجاز يتميز بنقل الاسم أو التعبير الوصـــفي إلى شيء لا يطابقه كل المطابقة ، والاستعارة بهذا المفهوم وسيلة تشكيلية أرقى من التشبيه وأعمق وأعقد صنعة.وإن كان التشبيه أساسها وعمادها وهو كالأصل لها)(4).

يقول الشيخ التليلي في وصف ليلة قضاها مع بعض الشيوخ :

يا ليلة من بـــــنات دهر　　　غراء في حلية العـــــروس
وافت على غـــير ما ميعاد　　　والخوف في طرسها السدوسي
والنجم من خلفها رقـــيب　　　والبدر قد هم بالأنيـــــس
والليل قد مل من ســـــراه　　　والفجر في حمـــرة الغلـوس
وافت وفي لونها اصـفـــرار　　　من خشية الطالع الحـــريس
يا ويحها لو درى أبوهـــا　　　بأنها تحفة الجـــــليـــس (5)

وبعد أن نتأمل الأبيات السابقة ، ونحاول إدراك ما فعلته الاستعارات في الصورة . ففرح الشيخ بليلة الخميس التي قضاها مع أصدقائه شبهها بالعروس التي ينتظرها عريسها ،وقد خرجت تبحث عنه ليلا والخوف يملأ قلبها ،والنجم يراقبها ،والليل ملَّ ظلمته ،ويستخدم اللون(وافت وفي لونها اصفرار) ليدل على خوفها وخشيتها مما ينتظرها ،وكلها استعارات مكنية(وافت على غير ما ميعاد)(النجم رقيب)(الليل

---

1. ديوان الدموع السوداء . ج2 .ص22.
2. عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز . ص: 53.
3. علي الجارم ـ مصطفى أمين : البلاغة الواضحة .ص: 77.
4. عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة .ص: 22.
5. ديوان الدموع السوداء. ج1 .ص150.

مل سراه) (لو درى أبوها) .

وإذا عدنا للصورة السابقة، وجدنا الاستعارات قد ولدت من قلب العاطفة الصادقة النابعة من فرحة الشيخ بتلك الليلة .

ويقول الشيخ التليلي واصفا كتاب (تاريخ الجزائر الثقافي) الذي أهداه له الدكتور أبو القاسم سعد الله

نظرت إليه من بعد وقرب فقلت البحر تستره الدفـــاتر
وعهدي بالسباحة من قـــديم فخضت عبابه والبحر ثائـــر
وقلت أغوص ألتقط الـــلآلي فبحر الشيـــخ معروف الجواهر
ولكن التصـــارع والتعـــالي من الأمواج أكسبنـــي المحاذر
فأمواج الأدلـــة والدعـــاوي تردداها الأئـــــمة والأكابر (1)

إنها صورة بحر ثائر، مليء بالجواهر واللآلي ، وقد غاص الشيخ يلتقط من خيره ، لكن الأمواج عالية أخذت تجاذبه ، وسبح الشيخ باحثا عن شاطئ قريب يقيه ثورة البحر، وذلك هو جوهر الكتاب بأفكاره ، وفنه ، شكلها الشيخ استعارات تصريحية معبرة عن قيمة الكتاب وغناه بكل ما يحتاج إليه الباحث .

والخيال في هذه الصورة حيوي، فالأفكار بحر أمواجه عالية، وتعمق الشيخ فيها سباحة، وأفكاره ومعانيه لآلئ وجواهر .

وقد اعتمد الشيخ على التشخيص الذي هو وسيلة بنائية ، حيث صور الدهر رجلا قاسي القلب :

يا دهر مـــالك لا تئن تضجرا أ فأنت راض بالذي فينا جرى
فانظر بعينـيك في ملامح أهلنا ريب يفت بسيفه قتل العرى (2)

وشخص الدهر في عدة صور ، فجعله حيوانا مفترسا :

عضني الدهر يا كتـابي بناب فعضضت الكتاب كرها بضرس (3)

كما جعله قاتلا :

واجنح إلى البعد ألـــــف ميل من دهرك الغائل النفـــــــوس (4)

وقد شخص السيف والسكين إنسانا يهدي كل متمرد ، والجزائر إنسانا مثقفا يوضح الحقائق :

والسيف والسكين قولهما هدى في من تمرد عاتيا لم يهتد
تلك الجزائر أفهمت من لم يرد فهم الحقائق بالحديث المسند (5)

---

1. ديوان الدموع السوداء ج1 .ص : 84.
5.4.3.2.المصدر نفسه ج1 .ص: 77- 153- 149- 44.

. وفي شكواه من (قمار) وأهلها ، شخص الغدر نهرا يفيض :

ففاض الغدر منك علـــى بنيك وغاض الفضل فيك إلى الزوال (1)

وعندما سئم الشيخ التليلي من حاضره ، تطلع إلى أن يكون الغد مبتسما له . فقال مخاطبا صديقه :

تعزّ أخي وانس ما قد مضـــى وكن في انتظار الغد المبتســـم (2)

إن الشيخ قد عانى في حياته من قساوة الدهر، وظلم الناس، وضعف المعيشة، فكان يبحث عما يمنحه الأمل ليستمر في حياته متطلعا إلى غده، ويأمل فيه خيرا ، فيراه مبتسما ينتظره .

ويتحدث عن كتاباته المبعثرة في زاوية الغرفة قائلا :

نشأنا هكذا لســـــواد حظ بسجن البيــت نقنع بالأنــين

وضاع البعض منا في الـــزوايا ومات البعض مــنا في السجون

تطالعنا المصائب والـــــرزايا بأنواع الوساوس والظـــنـون

فأحببنا التستر والتخــــــفي وأخفينا الوجوه عن العيـــون

فيا من رام خطبتــنا تباعـــد فنحن عوانس الشيخ الدفيــن

وليس لنا من الأوصاف وصف يحببنا إلى الرجـــــل القريــن (3)

تخبرنا الاستعارات الواردة في الأبيات عن عاطفة الشاعر الحزينة فهو منطو على نفسه ، حبيس الغرفة ، حاله من حال كتاباته، فكانت بناته التي تخاف الظهور أمام الملأ توحي بالتشتت وعدم الثقة بالنفس ، والخوف من المجهول، فتفضل الظلام والهدوء والسكينة وظهر ذلك من خلال استخدامه للألفاظ الدالة (نقنع – مات –ضاع –أخفينا – تباعد)، وإظهار مشاعر الأديب وأحاسيسه هي أبرز ميزة للاستعارة ، وقد وردت في (أحببنا التستر)(أخفينا الوجه)(الرجل القرين)(مات البعض منا في السجون)، وشبه أفكاره بالإنسان الميت في السجن بعيدا عن أهله وذويه، وهي تدل على أن كتاباته بقيت حبيسة الغرفة طيلة حياته تنتظر من يبعثها من جديد ، فيحيي مواتها ، كما شبه جموع القراء (بالرجل القرين) لأن الكتابات اعتادت على الشيخ وهو أيضا اعتاد عليها ، وكلاهما يأبى البديل ، وقد تمكن الشيـــــــخ من استحضار الصورة مشاهدة أمام العين .

وتلك بعض مزايا الاستعارة .يعددها عبد القاهر فيقول: (الاستعارة أمد ميدانا ،وأعظم أفتتانا وأكثر جريانا ،... ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبدا في صورة مستجدة تزيد قدره نبلا وتوجب

3.2.1.ديوان الدموع السوداء ج2 .ص :85- 59- 79.

له بعد الفضل فضلا ، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فوائد حتى تراها مكررة في مواضع ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد ... ومن خصائصها التي تذكر بها وهي عنوان مناقبها أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر ، وتجنى من الغصن الواحد أنواعا من الثمر).(1)

وقد زاوج الشيخ في صورته بين(الوصف والرمز) ، وهما عماد الصورة الخيالية ، وهذا ما قاله أحد النقاد (يستخدم التصوير لتحريك العاطفة وليفعل هذا ، فإنه يستخدم طريقتين مختلفتين الوصف والرمز)(2)

وإذا مدح الشيخ التليلي ، فإنه يصور مكانة ممدوحه بين الناس ، في ظل انتشار الجهل :

بلى إن اليقـــين بأن فيـــكم   منار الجد يرفـــعـــه الإمام

يضيء بنوره تلك الضـــواحي   فيذهب عن جميعكـم الظلام

فأنبت غصنه في أرض ســوف   وكنا الغصن يمطره الـــغمام (3) .

استعار الشيخ الفعل(يضيء) ليدل على زيـارة الإمام أحمد التليلي من فريـانة بتونس لقمار ، بينما النـــاس في منطقة سوف تعيش في أمية وجهل ، فكانت زيارة الإمام منارة تضئ دربهم ، وتبعد عنهم الجهل ، لذلك استخدم الصورة الثانية(الظلام) وهي استعارة تصريحيه تبين حالة الناس ، ثم شبه الشاعر نفسه بالغصن الذي زرع في أرض سوف (فأنبت غصنه في أرض سوف).لكن بقاء الغصن حيا يعتمـــد على الماء ، وكانت الصورة الرابعة (يمطره الغمام) ، حيث استعار مطر الغمام ليدل على غزارة علم الإمام أحمد التليلي الذي أتى ليسقي الشيخ بمختلف العلوم ، فالفرع يحتاج إلى الأصل دائما .

والاستعارة جديرة بما أولاها النقاد من اهتمام ، فلقد جعلها عبد القاهر جمرة مضيئة في الشعر ، يقول عن الاستعارة(فإنك ترى الجماد ناطقا حيا... وإذا نظرت في أمر المقاييس ، وجدتها ولاناصر لها أعز منها ، ولا رونق لها ما لم تزنها ، وتجد التشبيهات – على الجملة – غير معجبة ما لم تكنها ، إن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد طمست حتى رأتها العيون ، وإن شئت لطفت للأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية بها تنالها الظنون) (4).

إن الصورة الاستعمارية عند الشيخ متنوعة ، وانتشرت في كل قصائده تقريبا ، فكانت ثرية في إبداع معانيها ، موضحة لأفكاره ، مبرزة لعواطفه .

1. عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة .ص : 40.
2. اللغة الفنية .(تعريب وتقديم) محمد حسن عبد الله. دار المعارف .القاهرة.ص : 81.وسيأتي تفصيل الكلام عن (الرمز)عند الحديث عن الكناية.
3. ديوان الدموع السوداء .ج2 .ص : 69/68 .
4. عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة .ص : 33.

الصورة الكنائية

جاء في (الصحاح) : الكناية أن تتكلم بشيء وتريد به غيره وقد كنيت بكذا عن كذا وكنوت... غيره).(1)فهو إيراد اللفظ في غير معناه الأصلي، ويعرفها عبد القاهر : (الكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيومئ به إليه ، ويجعله دليلا عليه).(2)

يقول الشيخ التليلي في زوجته :

أشلوا عليك كلابا من مكائدهم   فمزقتك وما همـــوا فسلوك
صارعت أسقام كيد من نبالهم   وما استطعت لهـا ردا فزادوك
وسددوا كل سهم في كـنانتهم   حتى رموا قلبك الباكي فسموك
لمـاذا لا أدري عل الأمر مكتتم   أو ذاك طبع لهم بالطبع ضاموك
أو ذاك يا شمسنا كرها لزيجتنا   فأعلنوا كلهم شـــرا ولاموك (3)

فالشاعر يتحدث عن زوجته والظلم الذي لاقته من الأهل والأصدقاء، وعندما نتأمل قوله (كلابا)(مزقتك) فإننا أمام معنيين أو مدلولين .أولهما : المعنى القريب بأنهم كلاب متوحشة أطلقت على زوجته فمزقت جسدها، وثانيهما : أنهم تركوها للأعــداء الذين لم يتوانوا في إضعاف عزيمتها و النيل منهــا ، وفي البيت الثاني استخدم كلمة(نبالهم)لتدل على الكلام المؤذي والقاتل الذي صدر منهم، وكذلك كلمة(سهم) فهم يريدون تحطيمها والقضاء عليها، وكلمة(سموك)هي كناية عن القهر ونيل المراد.أما كلمة (شمس) هي كناية عن الجمال الدائم ، والمكانة الرفيعة والتعالي عن كيد الحاقدين. إن الصورة الكنائية تجسد المعنى، ليزداد وضوحا وترسيخا في الأذهان .

وعندما يتعرض الشيخ التليلي لحياة الناس يرى تناقضا كبيرا . يقول :

الثوب أبيض والقــلوب حليكة   فاسلخ نهارا تكشـف الديجورا(4)

حيث استخدم الشيخ لفظة(أبيض) لتدل على نقاء الثوب، واستخدم كلمة(حليكة)لتدل على الحقد البغيض الذي يكنه الناس لبعضهم، واستخدم الطباق(أبيض ـ حليكة)ليدل على التناقض التام بين الشكل والمضمون .

وتحدث الشيخ التليلي عن خيانة المستعمر وغدره بالشعب الجزائري فقال :

---

1. إسماعيل بن حماد الجوهري : الصحاح . تحقيق أحمد عبد الغفور عطار .دار العلم للملايين ط 4 س0 199. ج5 .ص : 2477.
2. عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز .ص : 52.
4.3.ديوان الدموع السوداء ج1 .ص : 98- 81.

حتى أتى هذا الغراب فأنشـــب أظفـــــــاره مستأسدا متنمرا (1)

إن كلمة(غراب)دالة على التشاؤم ،لذلك وظف الشيخ سواد لونه للدلالة على ظلمة الاستعمار .

والبلاغيون يقسمون الصور الكنائية ليكنى بها عن صفة ،أو عن موصوف ،أو عن نسبة(2) ، والكناية عن صفة (هي التي تطلب بها نفس الصفة)(3).وقد مر بنا من أمثلتها الكثير ، ونذكر قول الشاعر :

أقبل مكتـــوبي إليه لعله يلامسه بالكف منه أو الثغر(4)

فالشيخ يصف شوقه لصاحبه في تونس، حيث أخذ يقبل الرسالة من كل أطرافها عل صديقه يلامسه بكفه أو فمه ، لذلك قال (يلامسه بالكف أو الثغر)لتدل على شدة الشوق ، وهي صورة حسية .

يقول الشيخ مفتخرا بقادة جمعية العلماء عند زيارتهم لوادي سوف :

وطن الرمال دس المجرة وافخرا أو ما ترى طير السعادة بشرا (5)

من فرح الشيخ لزيارة البشير الإبراهيمي، أخذ يحث أهلها في حماسة واندفاع فقال(دس المجرة)وعبــر عن زيارة الإبراهيمي ب(طير السعادة)وهي كناية عن الأمل القادم ، والحظ الحسن الذي تحضى به المنطقة من هذه الزيارة .

وعندما يتحدث عن الفتن يكسبها اللون الأحمر فيقول :

وجنبوا عنكم حمــــراء فتنتكم فإنها النار لا تدنوا لها الحطبا(6)

الشيخ التليلي يتحدث عن الفتنة ، حيث أكسبها اللون الأحمر ، وهو لون الدماء ، لأن الفتنة لا تؤدي إلا إلى القتل فيلوث الناس أيديهم بالدم .

أما عندما يخاطب الشيخ الدكتور أبو القاسم سعد الله فيقول :

أحسنت صنعا سيــــــدي أدخلـــــــتني في قصرك (7)

نلاحظ كلمة (قصرك) التي هي البناء الفخم ، وما يحويه من أسرار ، فكان الشيخ ذا مكانة مرموقة ليكون من اهتمامات الدكتور ليطلب رأيه .

ثم تأتي الكناية عن الموصوف : (ما كان المكنى عنه موصوفا ...).(8)

---

1. ديوان الدموع السوداء ج1 .ص: 88.
2. علي الجارم ـ مصطفى أمين : البلاغة الواضحة .ص: 124.
3. د/ شيخ أمين بكري : البلاغة العربية في ثوبها الجديد .ج2 .ص: 144.

7.6.5.4.ديوان الدموع السوداء ج1 .ص: 79- 86- 10- 86.

8.عبد الرزاق عبد الرحمان السعدي : تنبيه الوسنان إلى علم البيان .ص: 43.

فالصورة الكنائية هنا تنبئ عن (صاحب الصفة) ، وذلك مثل قول الشيخ :

أنا الذي أجررت رمحي في الوغى وكسرت سيفي طعمة للصائل (1)

فهو يريد أن يبين وقوفه في وجه الأعداء، فكنى عنها بكلمة(الوغى)، لذا كانت الكنائية عن موصوف.

ويكني عن قتال العلماء قوله :

وفي كفه للعـــــــدى حربة يداوي بـها رأس كل مصاب (2)

وكنى عن المناطق المعروفة في الجزائر بالنجد والصحراء بالغور :

وامسحي الأرض بالثقافة مسحا واتبعي الغور إن مررت بنجد(3)

يقول في أهل المنطقة الجاهلين والظالمين:

مخافة لسع من صفراء عقــربة وحية تذر الأحياء كالبرد(4)

حيـث شـبه الشـيخ هـؤلاء الرجـال بـالعقرب الصـفراء مـرة والحيـة مـرة أخرى، وهـي حشـرات سـامة وقاتلة، منتشرة في المنطقة الصحراوية كما ينتشر هؤلاء الجهلة، ويقتلون كل محاولة لنشر العلم والإصلاح.

ويكني الشيخ عن الخمر بقوله:

وإذا به فـي نزلـــــــها وبكفه بنت العنــــب (5)

أما الكناية عن النسبة ، فقد يسميها بعض البلاغيين (تخصيص الصفة بالموصوف)(6)أو (هي التي يراد بها نسبة أمر لآخر إثباتا و نفيا ، فيكون المكنى عنه نسبة أسندت إلى ما له اتصال به).(7)

يقول الشيخ التليلي :

وتلصق جلــدكم بثياب خصم شعار حديــثه مثل الدثار (8)

فالشاعر ينسب الكذب والسفه لثياب الخصم ، والثوب يلبسه صاحبه . ويقول أيضا :

وأرى الحزن لا يفـــارق ظلي كأن بيني وبين حزني وفاقا (9)

---

1. ديوان الدموع السوداء ج2 .ص: 54.

5.4.3.2.المصدر نفسه ج1 .ص: 13- 38- 35- 17.

7.6.رابح بوحوش : اللسانيات وتطبيقاتها على الخطاب الشعري .دار العلوم د ط. س 2006 .ص: 194- 194.

8ديوان الدموع السوداء ج1 .ص: 69.

9.المصدر نفسه ج2 .ص: 43.

وقد يتخطى الشيخ التليلي الصورة الكنائية إلى(الرمز) كأن يذكر اسما له صلة بموضوع الصورة ، ويشير إلى قصة أو حادثة مشهورة يريد أن يحيلنا إليها .

والرمز هو (الصوت الخفي ، ويكون الرمز : الإيماء بالحاجب بلا كلام ، ومثله الهمس ، ويقال الرمز تحريك الشفتين).(1)

و الزمخشري يذهب إلى أنها تكون (بالشفتين والحاجبين) وضرب لذلك مثلا حين قال (دخلت عليهم فتغامزوا وترامزوا)(2). أي أن (تشير إلى قريب منك على سبيل الخفية).(3)

أما الرمز في معناه الاصطلاحي الحديث هو : (الإيحاء أي التعبير غير المباشر عن النواحي النفسية المستترة التي لا تقوى على أدائها اللغة في دلالتها الوضعية).(4)

وعندما نعود إلى ديوان الشيخ نجده يستخدم (الخمر) رمز اللذة عند الاستمتاع بحلق الدروس والعلم .يقول :

شربنا من أنـــسه مـــداما ألذ من شـــــرب خندريس
ثملنا في خــــلقه فملنـــا للأدب الغـــــــض بالرؤوس (5)

ويستخدم (الحمام) رمزا للسلام والود في آخر رسالة شكر بعثها لصديقه :

وفي الختام فالســـلام الدائم عليكم ما غردت حــــــمائم (6)

وعندما يتحدث الشيخ عن المرأة يرمز لها ب(الأفعى) :

تزوجتـــــــني ضئيـــــلة من رقـــش تلك الأفـــاعي (7)

وهي تدل على الغدر ، وسرعة القتل في صمت .

ومما يلاحظ في ديوان الشيخ طغيان اللون الأسود على شعره بدء من عنوان الديوان (الدموع السوداء) وهي نظرة متشائمة ناجمة عن كره الشيخ المتعلم والمثقف والمصلح ورجل الدين للمضايقات و الظلم وافتراء الناس .كما ظهرت ألفاظ أخرى (سود طير)(مسود دكين) (أنا في ظلام) (عصا الظلوم) (القلوب حليكة) وغيرها كثير ، وهي توحي بحزن الشيخ وانكساره ، فبعدما كان مفعما بالحماس والرغبة في تغيير

---

1. الخليل بن أحمد الفراهيدي : كتاب العين .تحقيق مهدي المخزومي ـ إبراهيم السامرائي . ج7 . ص : 366.
2. الزمخشري : أساس البلاغة .تحقيق محمد باسل عيون السود .دار الكتب العلمية بيروت . ط1.س 1998.ج1.ص: 385.
3. يوسف السكاكي : مفتاح العلوم .ضبطه نعيم زرزور. دار الكتب العلمية بيروت ط2س 1987.ص: 411.
4. محمد غنيمي هلال : الأدب المقارن .نهضة مصر للطباعة والنشر.ط3 .س2003.ص: 351.
5. ديوان الدموع السوداء ج1 .ص: 150.

7.6.المصدر نفسه . ج2 .ص: 23- 12

المجتمع وتنويره بما تعلمه في تونس، قوبل بالعنت والرفض والسخرية، وزرع الشوك في طريقه قصد إحجامه والنيل منه، وهذا يؤكد قول محمد مندور في وظيفة الرمز (وظيفة الرمز بعد ذلك تختلف عن أوجه المجازات والاستعارات والتشبيهات التي عرفها علماؤنا في أنها وسيلة للتجسيد أو التصوير، بل وسيلة للإيحاء بالمضمون العاطفي أو الفكري الكامن خلف اللفظ المستعمل كرمز)(1).

ونورد بعض الكلمات التي استخدمها الشيخ رموزا:

المنارة : رمز الهداية والأمل في الو صول إلى بر الأمان بعد ظلمة الاحتلال .

الشمس : رمز الأمل وبث الحياة والجمال .

القمر والبدر : رمز العلو والنور والمرشد .

الفجر : رمز الأمل المقترب .

الجبل : رمز الشموخ والعلو ، والقوة والصلابة .

الورود : رمز الأمل والخير .

الحمائم : رمز الخير والسلام .

الليل : رمز المحتل وزمن الاحتلال .

الأوثان : رمز الخضوع .

السواد : رمز الحزن .

المدام : رمز لذة العلم .

العقارب : رمز الأهل و الأقارب .

الأفاعي : رمز المرأة .

الغراب : رمز التشاؤم.

الذئب : رمز العدو الغادر .

الشيطان : رمز الاستعمار الغربي.

---

1. محمد مندور : الأدب وفنونه . نهضة مصر للطباعة والنشر .ط 2 س2002. ص : 39.

الصورة الكلية :

عرفت القصيدة العربية الحديثة تطورا كبيرا جعلنا نعتبرها كيانا عضويا ، بحيث تتراكم الصور مترابطة متفاعلة كأنها سلسلة متصلة ببعضها البعض ، لذلك نستطيع القول أن الوحدة العضوية للقصيدة ما هي إلا وحدة الصور ، ومدى تماسكها لتقدم لنا الصورة المتكونة من مجموعة متماسكة من الصور تنفي وجود صور غير جوهرية أو زيادة على العمل الأدبي ، وقد ترقى القصيدة إلى الصورة الكلية التي تتجمع فيها أعداد من الصور الجزئية ويعني ذلك أن الشاعر (لا يعتمد في إبراز الفكرة أو الحالة الشعورية على صورة واحدة ، بل يعتمد إلى إثراء الصورة بصور أخرى مماثلة ...ويمكن أن نشبه هذه الصورة باللوحة).(1)

و تحتوي الصورة الجزئية على عناصر الحركة والصوت واللون والانفعال ، وترتبط الصور ببعضها ارتباطا حسيا من خلال قص الأحداث وحكاية المواقف مما يزيد إحساسنا بتكامل الصورة ، وتكشف عن فنية مبدعها ،

وذلك مما نلاحظه في (قصة أم) للشيخ التليلي :

سلام عليكم سـلام امـرئ	تقمص بالأمس ثوب الشـباب
تحـير لم يدر أين الطريـق	ولم يدر أين وكيف الصـواب
ولكـنه من بـعيد بعـيـد	تسمـع صـوتا بأقصى الشعاب
ينـادي هلم هلم إلـي	إلي بني فهـشـوا الذئـاب
إذا بالجـزائر أم الجميـع	تئن أنين المريـض المصـاب
فهـاذي الكلاب وهاذي الذئاب	وهذا الغراب وذاك العـقـاب
تدور عليها تهـر وتعـوي	وتنعق والأم وسـط العذاب
تناجي السماء وشـمس الضحى	وفي الليل تهمـس أين الصحاب
ولما مضى في التناجي الكثـير	تعالى الجواب بـصوت أهـاب
أماه بـحقك لا تجزعـي	فها أنا ذا قد سمـعت الخطـاب
وجئتك لما سمعـت النـدا	لأحمي حماك وكـنت الجواب (2)

نلاحظ في الأبيات سيلا من الصور التي حشدها الشيخ ، اجتمعت لترسم صورة كلية ، بل لوحة حزينة

1 . عبد الحميد هيمة : الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري.مطبعة دار هومة .ط1 س 2003.ص : 129.

2. ديوان الدموع السوداء ج1 .ص : 12/ 13.

مليئة بالعواطف الصادقة والمؤثرة ابتداء من صورة الأم الجريحة والخائفة وهي تمثل الجزائر ، مرورا باشتمام الحيوانات لرائحة الدم، واجتماعهم حول الفريسة، وهي صورة المستعمر الذي يريد قتلها واستنزاف ثرواتها ، وانتهاء بسماع الاستغاثة وتلبية النداء . وإذا ازداد تعمقنا للصورة فسوف نسمع الصوت (هلم ـ تئن ـ تهر ـ تعوي ـ تنعق تناجي ـ يسمع ـ تهمس ـ النداء ـ الجواب) كما تظهر الحركة في (أين الطريق ـ تدور ـ جئتك ـ هشوا) ويبرز الانفعال في(أنين المريض ـ العذاب ـ بني). وجاءت القصيدة بشكل قصة تعتمد على الحوار .

كما ظهرت الصورة الكلية في قصيدة (الشمس) حيث يقول :

إني خرجت بليـــــلة عميـــاء ليس لها بـــصر

وفتحت عينـــي في الوجـ ـود فمــا عثرت علــى أثر

فطفقت أبحث في السمـــا ء عليــك يا شمس الوجود

قلبت طرفي في الـــدجى وأجــلت قلبي في الغيوب

فلمحت في الأفق البعــيـ ـد بصيص نور في الرسوب

قلت الضياء هنـــاك أحـ ـسب لاح في أفـق الجنوب

فتلفتت نحو الضـــــيـ ـاء بصــــيرتي كـيما تراه

والغيم يحجــــب تارة ذاك الضيـــاء إذا عــراه

فعلمت يا شـــمس الحقيـ ـقة أنه وهم الجــــدود (1)

لقد مزج الشيخ بين عناصر الصورة الكلية المتمثلة في الحركة والصوت واللون من خلال العاطفة القوية، فقد صور الأمل في انتشار العلم بـ(الشمس) وكذلك (الضياء)، وصور وقوف الأعداء في وجهه بـ (الغيم) الذي يحجب الشمس، وصور الجهل المسيطر على المنطقة بـ(الدجى)، ودلت كلمة (وهم) على التأكد من استحالة تنوير العقول في ضل هذه العوائق . وظهرت عناصر الصورة منها اللون (الدجى ـ الشمس ـ الضياء ـ الغيم ـ نور ـ عمياء)والحركة تظهر في(خرجت ـ أبحث ـ لمحت ـ أجلت ـ تلفتت) والصوت يظهر في (قلت)أما الانفعال فكان في حزن الشيخ ويأسه (وهم الجدود) ، والأمل والفرحة في (بصيص نور) .

ثم نلمح المحسنات البديعية، وهي ظاهرة ملفتة للانتباه في شعر الشيخ، حيث ظهر التضاد في البيت الأخير من القصيدة الأولى (الليل ـ الضحى)، ورد العجز على الصدر في البيت الثاني من نفس القصيدة، وكذلك حسن التقسيم في البيت السادس :

1 . ديوان الدموع السوداء ج1 .ص: 61.

هاذي الكلاب وهاذي الذئــاب وهـــذا الغراب وذاك العقـاب

كما ظهر الطباق في قصيدة (وداع كتاب) :

أنت في ظلـــــمة الطريق مناري لإيماني الصـحيح بل أنت شمسي
أنت حضي من كـل تــلك البرايا أنت سعدي وغيرك اليوم نحسـي
بعتك اليوم يا ضحيـــــــة فقر نال مـــولاك في أوائل عــــرس
فكتمت الأمرين فقـــــرا وضرا عن صديق وعــــــن عدو أخس (1)

حيث نلاحظ (ظلمة ـ شمس) ، (سعد ـ نحس)، (صديق ـ عدو) ، وكلها تزيد في توضيح المعنى وتوكيده .

وورد الطباق عند معاتبته للزمان .يقول :

أسأت إليَّ في ســــــر وجهر وأغريت اللئـــام على احتقاري (2)

وهو طباق الإيجاب (سر ـ جهر) . ووردت المقابلة والطباق في موقع آخر من القصيدة :

وحسَّـــــنت الفضيلة في شباب وقبحت الرذيـــــلة في صغار
وقاومت العــــــدو ولم أبال بما لاقيت من نور ونــــــار (3)

حيث وردت المقابلة في(حسنت الفضيلة ـ قبحت الرذيلة) وكذلك الطباق في (نور ـ نار) ، وكلها تزيد في توضيح المعنى وتثبيته في الذهن .

3.2.1.ديوان الدموع السوداء ج1 .ص :152- 66- 67.

الموسيقى

إن موسيقى الشعر لها دور كبير في خلق الجو النفسي الذي يرسم البناء الفني للقصيدة ، ويعبر عما تحمله التجربة الشعرية وما تفرزه من انفعالات وخواطر تحدد مقاطع البيت ، وتنظم ضروب الوقفات والسكنات ، وتقرر مدى الحاجة إلى القافية ونوعها ، وهو الذي يساعد الشاعر - إذا اقتضى الأمر - أن ينتقل من وزن إلى آخر في القصيدة الواحدة .لذلك فالشعر (هو موسيقى ينظمها الوزن والتفعيلة ، ويحضنها الإيقاع الذي يتشكل ليس فقط من الوزن ، بل من الطبيعة الفيزيائية النوعية للأصوات التي تنتظم في المقاطع والكلمات).(1)

وبذلك يعتبر نقاد الأدب ودارسوه أن الموسيقى من أهم العناصر في الشعر، ولعل الوزن والقافية هما أكثر عناصر الموسيقى أهمية، وقد تعددت عناصر هذه الموسيقى، إلا أنه يظل للوزن والقافية أهميتهما الكبيرة .

فالموسيقى مجموعة من الوحدات الزمنية المنتظمة التي يمكن من خلالها تحديد وزن معين تفرضه التجربة الشعرية والحالة النفسية للشاعر و بهذا تبرز القيمة الحقيقية للموسيقى من زاوية أخرى ، باعتبارها وسيلة إيحائية أكبر منها حلية خارجية .

والموسيقى هي قالب بالغ الإحكام والدقة من مجموع القواعد التي يقوم على أساسها بناء القصيدة ، فهي قادرة على محاكاة اللغة من داخلها، من خلال الأوزان الشعرية المعروفة ببحور الشعر والقوافي، وكذلك التمييز بينها من خلال اللفظ والمعنى، والبيت الشعري وما يليه.

وإذا كانت الموسيقى ترتكز على الحالة النفسية التي تعتري وجدان الشاعر، فعلينا أن ننبه بعدمية الفصل بين الموسيقى والمشاعر، لكونهما من أساسيات البناء الشعري والشعوري، وعلى هذا الأساس لا يمكن أن تبنى القصيدة إلا من خلال هذا النسيج الموسيقي الذي تتحول فيه الفكرة إلى لغة شعرية، ثم إلى جمل، ثم أبيات منتظمة ، و أخيرا إلى قصيدة كاملة البنيان .

وموسيقى الشعر نوعان هما :الموسيقى الداخلية والخارجية ؛ أما الخارجية فتتمثل في الوزن والقافية ؛ وهي بمثابة الإطار الفني الذي يجسد تجربة الشاعر ، ويوافق طبيعتها من حزن وفرح .وسوف نستتبع عناصر الموسيقى من خلال دراستنا لديوان الشيخ التليلي ونبدأ بالموسيقى الداخلية .

الوزن:

يعرف الناقد غنيمي هلال الوزن قائلا(هو مجموع التفعيلات التي يتألف منها البيت ، وقد كان

---

1. قاسم برسيم : منهج النقد الصوتي في تحليل الخطاب الشعري . ط1 س 2000.ص: 43.

البيت هو الوحدة الموسيقية للقصيدة العربية)(1)، ونلاحظ ذلك من خلال اختيار موضوعين من موضوعات شعر الشيخ ألا وهما : الوصف والشكوى. حيث نجد أنه لم يختر وزنا واحدا لكل غرض ، وإنما صاغ الغرض الواحد في أوزان وبحور مختلفة .

ففي باب الشكوى نجد الشيخ التليلي يستخدم البحور الطويلة و القصيرة والمجزوءة ، يقول الشيخ قلقا متضجرا في (الطويل) :

كرهت حديث الناس في آخر العمر	وعفت حديث الكتب في باطن الأمر
وعفت حديث النفس من أجل أنه	سراب تظن الماء في أرضه يجـــــري
فملت إلى النوم الثقيل لعلني أرى	في حديث النوم شيئا من الــخيـــر
فلم أر في الأحــلام يومــــا لذة	ولكنها الأضغاث تنذر بالشـــــر(2)

فلقد استخدم بحر الطويل وتفعيلاته في أصلها :

فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن	فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن

تقطيع البيت الأول :

كرهت حديث الناس في آخر العـــــمر	وعفت حديث الكتب في باطن الأمـــــر
0/0/0//0/0//0/0/0///0//	0/0/0//0/0//0/0/0///0//
فعول مفاعيلـــن فعولـــن مفاعيلـــن	فعول مفاعيلـــن فعولن مفاعيلـــن

و سمي الطويل طويلا لمعنيين أحدهما أنه أطول الشعر فقد بلغ عدد حروفه ثمانية وأربعين حرفا ، والثاني أن الطويل يقع في أوائل أبياته الأوتاد والأسباب بعد ذلك ، والوتد أطــول من السبب (3) .ويشتــكي في قصيدة (الوحدة خير من جليس السوء)من (مجزوء الرجز) قائلا :

يا لائمـــي تفنـــنا	وعـــاذلي تحننـــا
فلا تلـــم مقـــــيدا	ملـــجما مرسنـــا
لقد تعبـــت زمنـــا	داريـــت فيه الزمنا (4)

في الوصف ينوع الشيخ التليلي بحوره أيضا ويستخدم (تام الرمل ومجزوءه) قائلا :

حبذا لو دام عيشـــي هكـــــذا	نائلا مني رضا قلبـــي له
لكن الوخز من القـــلب هذى	قائلا للنفس هيا انتبـــهي

1. محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي .ص : 436.
2. ديوان الدموع السوداء ج2 .ص : 25.
3. الخطيب التبريزي .الوافي في العروض والقوافي تحقيق فخر الدين قباوة . دار الفكر دمشق ط4 س 1986. ص : 37.
4. ديوان الدموع السوداء ج1.ص : 126.

إن هذا العيــش موبوء دني (1)

ثم يستخدم الشيخ التليلي (المجتث)وهو بحر قصير ، فيقول واصفا حاله عند الكبر :

فـــــتلك حال حيـــاتي	بعد الثمانيـــــــــن عامــا
قد خلفتنــــــــــــي وراء	وكنــت قـــــــبل أمامــا
وحطـــــــمتني وجـــودا	وحطمتنـــي مقـــــــامــا
إن لام من لام شخــصــي	فالعمــر أولى مـــــــلاما
سـترت بالــــــبيت عيبــي	عمن يحـــــب اجترامـــا (2)

فعلى الرغم من أن المجتث بحر قصير ، ويتكون من التفعيلات(مستفعلن فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن)إلا أن الشيخ أحسن استخدامه وأوفى معانيه .

وقد قمت بإحصاء البحور التي استخدمها الشيخ التليلي ، وأذكر نسبة استخدام كل منها ، ففي الديوان المقسم إلى جزأين قرابة أربعة آلاف وستمائة بيت موزعة كالتالي : (الرجز) إحدى و ثلاثون قصيدة وعشر مقطوعات أي 22،40٪ ،و(الكامل) إحدى وثلاثون قصيدة وخمس مقطوعات أي67، 19٪ (البسيط) تسع عشرة قصيدة وإحدى عشرة مقطوعة أي بنسبة39 ،16٪ ، (الوافر) عشرون قصيدة و ثلاث مقطوعات أي 12،56 ٪ ، و (المجتث) ست عشرة قصيدة ومقطوعتان أي 9،83٪ ، (والطويل) سبع قصائد وإحدى عشرة مقطوعة ،أي 9،09 ٪ ، و(الخفيف) اثنتا عشرة قصيدة وأربع مقطوعات أي8،08٪ ، و(الرمل) إحدى عشرة قصيدة و خمس مقطوعات أي 08،08 ٪ ، و(المتقارب) سبع قصائد ومقطوعتان أي 4،54 ٪ ، و(الهزج) قصيدتان ومقطوعة واحدة أي 1،51٪ .

والشيخ التليلي يستخدم بحر (الرجز) و(الكامل) أكثر من البحور الأخرى ، وكل منهما بحر صاف بثلاث تفعيلات ،وتفعيلات الرجز هي :

مستفعلن مستفعلن مستفعــلن	مستفعلن مستفعلن مستفعــلن

وقال عنه التبريزي :(سمي رجزا ، لأنه يقع فيه ما يكون على ثلاثة أجزاء ... هو مأخوذ من قولهم : ناقة رجزاء ، إذا ارتعشت عند قيامها ، لضعف يلحقها أو داء ،فلما كان هذا الوزن فيه اضطراب سمي رجزا ، تشبيها بذلك)(3)

أما أجزاء الكامل :

متفاعل متفاعل متفاعـــل	متفاعل متفاعل متفاعـــل

1.ديوان الدموع السوداء ج1.ص: 124

2. المصدر نفسه .ج2 .ص: 75.

3. الخطيب التبريزي :الوافي في العروض والقوافي .ص: 102.

قال التبريزي في الكامل :(سمي كاملا لتكامل حركاته ، وهي ثلاثون حركة .ليس في الشعر شيء له ثلاثون حركة غيره).(1)

لقد كان نصف النظم في بحر (الرجز) مجزوءا ، واستعمله في المجال التعليمي للأطفال ، حيث يقول في قصيدة (أين تكون راحة الإنسان) :

أين تكون راحـــة الأنـــام   في يقظة أو سـنة الأحـلام
قد ذكروا في راحة الأجسـام   تقليلها من كثرة الطعـــام
وراحة الأرواح في الســلام   من كثرة الذنـــوب والآثام
وراحة اللسان في الكـــلام   قلته وتـم بانتــــظـــام
وراحة العقول في النظـــام   وراحة الجَهول فــي الحمام (2)

وإذا ما قمنا بتقطيع البيت الأول ، فسوف نجده :

أين تكون راحــــــة الأنـــام   في يقــــــظة أو ســـنة الأحـلام
/0///0//0// 0/ / 0 /0   /0/0//0/0/// 0 /0 /0/0
متْفعلن متفْعلن متفْعــل   مستفعلن متْفعلن مستفْعـل

نلاحظ أن الشيخ التليلي استعمل (الطي) (3)في التفعيلة الأولى [الطي هو حذف رابع الجزء ساكنـــا مـن التفعيلـة] ، و(خـبن)التفعيلـة الثانيـة ،والثالثـة فيهـا (خـبن) و(قطـع)(4)[حـذف آخـر الوتـد المجموع ، وإسـكان مـا قبلـه] جـاءت التفعيلـة (متفعـل) ، أمـا عجـز البيـت جـاءت التفعيلـة الأولى فيـه صـحيحة ، والثاني بـه (طـي) ، والضـرب (مقطـوع).ومما يمكـن ملاحظتـه أن الشـيخ قـد اسـتغل مـا تبيحـه الزحافات والعلل في الأبيات.

وقد جعل الشيخ التليلي (بحر الكامل) يسيل رقة وعذوبة ، حيث يقول في رسالة كتبها لصديقه :

بلغ الدواء بحـــــــبه وبمـائه   وتكسر ت أقراصــه بإنائـــه
وانساح من ماء الزجاجـة جله   ولكن في الباقي كمال شـفائه
وكذا الرسالة بلغتني لومـــكم   متقمصا في طيها بكســـائـــه
الماء يشفي الأخت من علاتـــها   واللوم يشفي الخل من أدوائــه
فلك الجزيل من الثواب وشكرنا   ولنا الدوا من نطسنا ونثائــه (5)

و إذا ما تأملنا الأبيات السابقة نجد الشيخ استعمل فيها حروف اللين ، لأنه يهمس في أذن صاحبه وخله ،

1. الخطيب التبريزي :الوافي في العروض والقوافي.ص: 78.
2. ديوان الدموع السوداء.ج1.ص: .121
4.3.موسى بن محمد بن الملياني الأحمدي : المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي . ط2 س1969.ص: 25- 36.
5.ديوان الدموع السوداء.ج1.ص: 154

فيلتمس عذره في نغم هادئ رزين ،ونجده يستخدم حروف المد (الياء والواو والألف).وإذا ما قمنا بتقطيع البيتين الثاني والأخير في القصيدة السابقة نجدها :

وانساح من ماء الزجـــــــاجة جله	لكن في الباقي كمـــــــال شفائه
/0/ 0/ /0/0/0//0///0//0	/0/0//0/0/0//0///0//0
متفاعلن متفاعلن متفاعلن	متفاعلن متفاعلن متفاعلن

واسمح لخلك إن أســــــاء إجابة	فهو المريـــــــــــــض فناؤه بفنائه
/0/0//0///0//0///0//0	///0//0///0//0///0//0
متفاعلن متفاعلن متفاعلن	متفاعلن متفاعلن متفاعلن

فالشاعر يستغل ما تبيحه الزحافات والعلل ، وذلك لإغناء النغم الموسيقي ، ففي البيت الأول (خبن) التفعيلتين الأولى والثانية ، وكانت الثالثة صحيحة ، ومثل ذلك فعله في عجز البيت ، أما البيت الثاني كانت التفعيلة الأولى فيها (خبن) والثانية والثالثة صحيحة ، وكذلك في العجز .

وإذا تركنا بحر(الرجز)و(الكامل)، وهما أكثر البحور استخداما عند الشيخ التليلي، وذلك لننظر في بحر (الطويل)، فإننا نجد الشيخ ينوع أغراضه ولا يقصرها على غرض واحد ، يقول الشيخ التليلي متشوقا لتونس :

أأنت زماني غادرا ومخادعا	أم أنت الليالي السود في غيبة البدر
ويا تاركي وحدي وتونس أنسه	أقلب في نار التشــوق بالعشــــر
أيرضيك أن القلـب يبكي كآبة	وأن دموع العين فاض بها حجـري
إذا ما انقضى يومي وزاد تهوسي	فلم أر غير الدمع سُر به ســـــري(1)

ويقول موضحا عقيدته عندما مرض فقال :

وأعلم أنني لا محـالة صــــــائر	مصـــير الناس للفناء وللفـــك
وأوقن أن الله ســوف يعــــيدني	وتعرض أعمالي علي بلا شــك
وسوف أوفى يوم عرض صحائف	صنيعي من فعل فعـلت ومن ترك
ورحماه إن ألقت علي جناحـها	نجوت وإلا فالمصير إلى الـهُلكِ(2)

ويبين للتلاميذ أولوا العزم فقال :

2.1ديوان الدموع السوداء.ج1.ص: 79.- 100،

أولوا العزم في القرآن من رسل ربنا يعدون خمسا في صحيح المذاهب
وهم نوح إبراهيم موسى محـمد وعيسى وقول الغير غير مناسـب (1)

ومن البحور التي استخدمها بقلة بحر (الهزج) حيث يقول في الحكمة :

أحق الـناس بالرحمة عليم بين جهـال
ومن كانـت له حظـوة وفيها منـصب عـال
فأقصـاه ذوو الـقوة إلى منـحدر خـال(2)

وتقطيع البيت الأخير :

فأقصـاه ذوو الـقوة	إلى منـحـدر خـال
// 0/ 0/ // 0 /0 /0	// 0/0 ///0 /0 /0
مفاعيلن مفاعيلـن	مفاعـل مفاعيـلن

نلاحظ أن كل التفعيلات صحيحة عدا التفعيلة الأولى من العجز التي فيها (كف)(3) [حذف سابع الجزءساكنا].

وكذلك يستخدم الشيخ مجزوءات البحور ، وأكثرها (مجزوء الرجز)و(مجزوء الكامل) و(مجزوء الرمل).

حيث يقول في رسالة بعثها إلى الدكتور بالقاسم سعد الله من (مجزوء الرجز) :

يا مهـدي لي جواهرا ثمينة من ذخـرك
أهـديت لـي ثقافـة مكتـوبة بـعطـرك
أهديـت لي مؤلـفا ألفـته فـي كبـرك
قد احتوى كل الـذي ألفـته فـي عمـرك(4)

ويقول من (مجزوء الكامل) :

سـرح جفونك يا فـتى في روضة الحسـن البهي
قد جادها غيث الحـيا وقت البـكور وفي العشي
وكـساها من نبت الـربا مطـر تعزز بالـولي(5)

وتقطيع البيت الأول :

---

1. ديوان الدموع السوداء.ج2.ص : 39.
2. المصدر نفسه .ج1.ص : 110.
3. موسى بن محمد بن الملياني الأحمدي : المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي. ص : 25.
4. ديوان الدموع السوداء.ج2.ص : 86.
5. المصدر نفسه.ج1.ص : 160.

ســرح جفونك يا فــتى	في روضة الحســن الــبهي
0//0/ //0//0/0/	0// 0/ 0/ 0//0/0/
مْتَفاعلــن متفاعـلـن	مْتَفاعلن مْتَفاعـــلـن

ومن هنا نلاحظ أن الشيخ التليلي قد استفاد من الأوزان الشعرية بأقصى ما يستطيع ، فلقد استخدم البحور الطويلة والقصيرة ، واستخدم مجزوءات البحور ، ومزج الشيخ موسيقاه بعواطفه فأعطت للنغمة الموسيقية صدقا وتأثيرا وخلودا .

الإيـقاع

إن الإيقـاع في الـدرس العربـي القـديم لا يكـاد يخـرج كلـه عـن مفهـوم مطابقتـه للوزن ، ذلـك أن العلماء القدامى لم يتعمقوا الإيقاع ، ولم يدركوا جوهره ، مما أدى إلى إهمال الحركة الإيقاعية .

إن الدرس القديم للإيقاع الشعري ظل مرتبطا بالإيقاع الموسيقي لما بينهما من تناسب في زمن الحروف وتتابعها وترتيبها ، وتكرارها بنسب محدودة ، فحصروا الإيقاع الشعري في إطار زمن النطق ، ولم يتعدوه إلى عناصر أخرى .

أما الإيقاع من وجهة نظر حديثة ، فهو مصطلح إنجليزي ، انشق أصلا من اليونانية (بمعنى الجريان)و(التدفق) ، وتطور فيما بعد ليصبح مرادفا للكلمة الفرنسية(Mesure) المعـــبرة عن المسافة الجمالية. (1)

ويتناول (حركة الأصوات الداخلية التي لا تعتمد على تقطيعات البحر أو الـــتفعيلات العروضية)(2)

وبالعودة إلى ديوان الدموع السوداء للشيخ التليلي نجد أن الإيقاع في القصيدة قد يبدو هادئا حينا ، وحينا آخر يكون قويا وذلك حسب الحالة الشعورية التي تقود المبدع.

يقول الشيخ التليلي في وصية للناس :

ومن يحفظ القرآن كان دليله	وحجته يوم التكلم بالحجـــــج
وكان له سيفا حساما لمــن له	تصدى بإلقاء الشكوك من الهمج
وكان له عند التـفكر عبرة	وموعظة تهديه للطيـــب الأرج
وكان له وقت المشيب عبادة	وذكرا به تحيى الموات من المهج(3)

---

1. Paul Robert Dictionnaire de langue française(Tomes), Société du nouveau lettre Paris,1975,p213.
2. عز الدين إسماعيل :الأسس الجمالية في النقد العربي . 315.
3. ديوان الدموع السوداء.ج2.ص: 27.

فهذه الأبيات يدعو الشاعر الناس فيها لحفظ القرآن وبين آثاره وإذا تأملنا إيقاعها ، نجده هادئا ممتزجا بعاطفة المعلم و المربي الناصح ، ورجل الدين الحريص على توجيه الناس ، وإذا كان النصح يتطلب الإقناع ويحتاج إلى الهدوء ، فإن الإيقاع هنا جاء كذلك هادئا ، وقد استخدم الشاعر فيه بحرا رزينا هادئا يصلح للإغراض الجدية الجليلة الشأن ، فكان الطويل لطول نفس المصلح والمربي ، واستفاد مما يعتريه من مباحات الموسيقى الشعرية ، فنجد تقطيع البيت الأول :

ومن يحفظ القرآن كــــــان دليله	وحجته يوم التكلم بالحـــــــجيج
//0/0//0/0/0//0///0//0	//0///0/0/0//0///0//0/0
فعولن مفاعيلن فعول مفاعين	فعول مفاعيلن فعول مفاعيلن

وتقطيع البيت الرابع :

وكان له وقت المشـــــيب عبادة	وذكرا به تحي المـــوات من المهـــج
//0///0/0/0//0///0//0	//0/0//0/0/0//0///0//0
فعول مفاعيلن فعول مفاعيلن	فعول مفاعيلين فعول مفاعيلن

فلقد استخدم(القطع) في صدر البيت الأول مرتين في التفعيلة الثالثة والرابعة ، بينما جاء نفس الزحاف في عجز البيت في التفعيلة الأولى والثالثة والرابعة ، وفي البيت الرابع جاء (القطع) نفسه في صدر البيت في التفعيلتين الأولى والثالثة والرابعة ، وجاء في العجز في التفعيلة الأولى والثالثة أيضا ، فالزحاف وقع في الأشطر الأربعة ، ثلاثة منها في نفس المكان (التفعيلة الأولى و الثالثة والرابعة) وهذا ما أضفى صورة إيقاعية على المقطوعة. وقد يكون الإيقاع هادرا شديدا وذلك عند استقبال وفد جمعية العلماء برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس

إيه جمعية الجزائر سيــــــــري	وانشري بيننا صحائــف ود
وجدودا هم الأســــــــود بلاء	في لباس من مهــــــابة ورد
وامسحي الأرض بالثقافة مسحا	واتبعي الغور إن مررت بنجد
وارفعي راية الجــــــــــزائر إنا	قد سئمنا السباب من كل فرد
واقطعي دابر الذين رمــــــــونا	بسمات وكــذبي كل وغد(1)

فالإيقاع بدا هادئا ، ثم ما لبثت أن سيطرت الحماسة على الشيخ ، و ارتفعت حدة الإيقاع ملونة بعاطفة الفرحة لزيارة الشيخ ابن باديس(فهو حركة شعورية تمتد بامتداد الخيال والعاطفة ، فتعلو وتنخفض ،

1. ديوان الدموع السوداء.ج1.ص : 38/39.

وتعنف وتلين ،وتشتد وترق ...).(1) و استخدم الشيخ التليلي (البحر الخفيف)وتقطيع البيت الأول :

إيه جمعية الجـــــزائر سيري وانشري بيننا صحـــائف ود

0/0///0//0//0/0//0/ 0/0///0//0//0/0//0/

فاعلاتن / مستفعلن/ فعلاتن فاعلاتن / متفعلن/ فعلاتن

حيث دخل (الخبن)على التفعيلة الثانية و الثالثة من صدر البيت و عجزه.إذا فالإيقاع هو موجة صوتية : (تسير سير الشاعر وتتردد صدى أنفاسه وتلون رؤيته بجمال أصدائها فترسم من خلال نغمها أجمل لوحة). (2) والإيقاع لا يتكون من ميزان عروضي وموسيقي فحسب ، بل هو عنصر متلاحم ومنسجم مع بقية العناصر الموسيقية الأخرى .

(أ) - التلوين الموسيقي والنغمي

يقول الشيخ التليلي مبينا نعمة الزواج ونقمته :

إذا تزوجـــت صاح وكان فـــي العرس بخت

فأنت لاشك صـــاح وما لعرســـك أخـــت

في الذكر نص شـــريف من قـــول رب علـــيم

كيد اللعين ضعـــيف وكـــيدهن عظيــــم(3)

فلو تأملنا هذا المزح لوجدناه من (بحر مجتث) وكانت تفعيلات البيت الأخير:

كيد اللـــعين ضعـــيف وكيدهـــن عظـــيم

0/0 // /0 //0/0/ 00/ / /0 // 0//

مستفعلن فعـــلاتن متفعـــلن فعلاتْ

فنجده ينوع في القوافي داخليا ، وخارجيا تنوعا يتلاءم مع المزح الذي يحتاج إلى التغيير، فتكون هناك الحركة في كسر الحاء ثم ضم التاء، وفي العجز ثم تتكرر الحركات بنفس الترتيب في البيت الثاني وفي البيت الثالث نفاجأ بموسيقى جديدة، فتتوقف عند تنـوين الضم في الفاء ثم هناك سكتة أو وقفة عند الميم الساكنة ، ويتكرر هذا في البيت الرابع ،فيكون الترتيب بيتان يتفق الشطر الأول فيهما بنفس الحرف ، ويتفق عجز البيتين في حرف آخر ، وكذلك هو الحال في كل القصيدة.

فهو يلون موسيقاه وينغمها بتطويل البحور، أو تقصيرها، باستخدام المساحات من الزحافات والعلل،

2.1.عبد الرحمن الوجي : الإيقاع في الشعر العربي .دار الحصاد للنشر والتوزيع .ط1 س 1989ص: 79- 80

3.ديوان الدموع السوداء.ج2.ص: 13.

ومثل هذا التنوع نجده في قصيدة (احتضار الأمل المريض في البلد البغيض) :

صاحت النفس الطموح ويلتا ما لعيشي لم يكن يوما رغــيد

حيثما يممت ألـــق العنــــــتا فكأنـــي لست من هذا العبــيد

أو أتوا بي بعد قَسْــم المنن

ليتني كنت ترابــــا أو صــفا أو حمارا أو جهـــولا أحمقا

عل هذا الدهر يحبنـــي الصــفا فيجازيني على ذاك الــشقــا

بجميل و لذيذ وهني(1)

فنجد الشيخ استخدم (تام الرمل – ومشطوره). ولو قمنا بتقطيع الأبيات : الأول والخامس نجد :

صاحت النفس الطموح ويلتا ما لعيشي لم يكن يوما رغيد

/0//0/0/0//0//0//0 /0//0/0/0//0/0/0//00

فاعلاتن فاعلات فاعلن فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتْ

عل هذا الدهر يحبونى الصبا فيجازيني على ذاك الشقــا

/0//0/0/0//0/0/0//0 ///0/0/0//0/0/0//0

فاعلاتن فاعلاتن فاعلن فعلاتن فاعلاتن فاعلن

فالشاعر يستخدم (تام الرمل) وحشو البيت الخامس (مخبون)(2)والخبن هو [حذف الثاني الساكــــن من التفعيلة] فتتحول (فاعلاتن) إلى فعلاتن) بينما الضرب والعروض(محذوف)(3)[وهو إسقاط السبب الخفيف من آخر التفعيلة] فتتحول (فاعلاتن)إلى (فاعلن) أما البيت الأول فالحشو سالم والعروض (محذوفة) مع الضرب (المقصور) والقصر(4)[هو حذف ساكن السبب الخفيف، وإسكان ما قبله]فتحولت (فاعلاتن) إلى (فاعلات) .

وتقطيع البيتين الثالث والخامس (المشطور) :

أو أتوا بي بعد قســـــم المنن

/0//0/0/0//0///0

فاعلاتن فاعلاتن فعلن

1. ديوان الدموع السوداء ج1 .ص 135/134.

2.محمود بن حسن بن عثمان : المرشد الوافي في العروض والقوافي. دار الكتاب العلمية لبنان ط1س 2004 ص : 28.

4.3.المرجع نفسه 33- 34.

بجمــيل ولذيذ وهنــي :
0///0/0///0/0///
فعلاتن فعلاتن فعلن
حيث (خبن) البيت الثاني إضافة إلى دخول (الخبن) و (الحذف) على التفعيلتين الأخيرتين.

(ب) - التقفية الداخلية والترصيع

يقول الهاشمي (الترصيع هو توازن الألفاظ مع توافق الأعجاز أو تقاربها) (1)وهو يحدث نغما موسيقيا في القصيدة ، كما يعرفه أحد النقاد على أنه وسيلة(من وسائل التوقع الذي يتنوع بين الإشباع والإخفاق)(2).

يقول الشيخ التليلي عند إتمام بناء مسجد الطلبة :

لاغرو لاغــرو إن كانت عقائدنا   كما علمت وكنا مثل ذا النعم
فالجهل قائــدنا والجبن رائدنـــا   والحقد عائدنا والحسد لم ينم(3)

ففي البيت الثاني نسمع إيقاعا واضحا متوافقا مع الجو النفسي ؛ فالجو النفسي فيه سرعة لذا جاء الإيقاع سريعا ، والشاعر (يستخدم الأصوات التي تتلاءم بصورة ما مع الجو النفسي والشعوري للقصيدة ، كما يستخدم هذه الأصوات ليعبر من خلالها عن فكرة أو معنى).(4)

ويقول الشيخ وصفا حاله عند العجز :

فقلبي عليل وجـــسمي نحيل   وطرفي كحـيل بداء الذهـــاب
وعقلي دخيل وفكري كلـــيل   وفهمي قليل ومائــي ســــراب
إذا كان علمي وســيلة ذمــي   بمجلس قومي فما الجهل عـاب
وفيم الســرور بأرض الشــرور   وسب الحضور ولا من حساب
أقضي نهاري بـــباحـــة داري   وأستــر عاري وأتلو الكـــتاب (5)

وهنا نلمح الهدوء الموسيقي الرزين النابع من شيخ أنهكته حوادث الدهر وجراح الزمان ، ونرى الكلمات صحيحة في أغلبها خالية من حروف اللين ، وهذا يتوافق مع آرائه الدينية في ذم بعض العادات ، وتحتوي الأبيات على الكثير من حروف المد التي يحتاج إليها عند وصف حاله .

---

1. أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة . ضبط يوسف الصميلي . المكتبة العصرية ..بيروت .ص 332.
2. د/ مصطفي السعدني : التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل .منشأة المعارف بالإسكندرية .ص 186
3. ديوان الدموع السوداء ج1.ص 116.
4. حسني عبد الجليل يوسف : التمثيل الصوتي للمعاني دار الثقافة للنشر . القاهرة .ط1س 1998.ص : 60.
5. ديوان الدموع السوداء ج2 .ص : 80.

(فالإيقاع يضبط حركة النفس ، فإذا كانت سريعة جاء مثلها ، وإذا كانت هادئة جاء هادئا).(1) وقد ظهر التنوع في شعر الشيخ التليلي بصورة واضحة .

يقول الدكتور رابح بوحوش أن : (إيقاعات الشعر تتحقق من خلال الكلمة سواء أكان ذلك في وظيفتها أم في معناها أم في أصواتها وجرسها وتصريفها وإيحاءاتها ودلالاتها ومكانتها في السياق).(2)

(ج) التوزيع الصوتي في التعجب والنداء والإثبات والنفي والنهي والطلب بأقسامه :

(فالتعجب) في قول الشيخ التليلي :

أليـــس ذا عجـــيب   بل عجـــب عجـــاب(3)

ومن (النداء) قوله :

أهلا بـكم يا سـادة يا قـــادة   يا ذاة يا قـــدوة للمقــتـــــد(4)

وقوله في الزوجة الشهيدة :

يا نفس لا تجزعي فالـموت ناعيـك   والدهر لا يرعوي واللحد داعيك
يا نفس لا تظهـري حزنا لحـــــادثة   فالموت عن كارثـــات الدهر يلهيك
يا نفس بعضك مات الـيوم فارتقبي   تلك البقية في المـــوتى تلاقـــــيك
فعنك يا نفس غابت شمس مـجمعنا   وخلفت بعـــدها آثارها فـــــيك (5)

ومن (النفي) قوله :

لا قائم بشــؤونــــــه لا ذائـــــد   عن حوضــه لا مسمـــــع إن أخبرا (6)

ومن النهي :

ولا تداعــــب فتـــاة   تفتي بقتـــلك عمـدا
ولا تخاطـــب عجــوزا   أمست لرأيك ضــــدا
ولا تقارب نســـاء   يهدمن مالا و مـــجدا (7)

ومن (الأمر) :

أيها القــوم شمــروا واسـتعدوا   وانهضوا نهضة الطيب الــمؤسي (8)

---

1. إبراهيم أمين الزرزموني :الصورة الفنية في شعر علي الجارم، ص288
2. رابح بوحوش :اللسانيات وتطبيقاتها على الخطاب الشعري .ص 29.
3. ديوان الدموع السوداء ج2. ص: 31 .

8.7.6.5.4..المصدر نفسه .ج1. ص: 43- 79- 77- 51- 148.

وقوله :

فحدث عن حصـور أو هصور   تمنع أو تمتـــع ما استطـاعـــا

وسرح من لسانك أو فصـــرح   صريح القول أطـيبه استمـاعا

ولاتكن الحديث ولا تكــــــنّ   فإن الهــم فرقني شعــاعـــا (1)

ومن (الاستفهام) في جفاء الزمان و الإخوان يقول :

لمـــاذا ترنـــو البرايـــا   إلـــي والعيـــن حمـرا

أمجرم أنـــا فيهــــم   أم ســائل لـــيَ أجـــرا (2)

وقوله أيضا :

ألم يعلم بـأن الـــغرب خـــلو   من العلماء أصحـــاب الإبــاء

ألم يعلم بأن الغــرب أولــــى   بتنوير البصـــائر والضيــــاء (3)

ومن (الإثبات) في جفوة الزمان يقول :

ألا يا دهـــر مالك لا تـــداري   ومالك لا تســـاعد أو تجــاري

جرحت كرامتي وأهــنت عرضي   وأخلاقي وملت إلى عثـــــاري

أسأت إلي في ســـر وجهــــــر   وأغريت اللئام على احتـــقاري

وأقمت علي في ســوق المخــازي   بأبناء السفاهة ســـوق عـــار(4)

القافية :

نستتبع الحديث عن الوزن بالحديث عن القافية ، لأنهما عنصران متلازمان في الشعر العربي التقليدي ، بحيث لا تكتمل عناصر العمل الفني إلا بهما مجتمعين .وقد عرف موسى بن أحمد بن الملياني القافيـــة فقال : (القافية هي عبارة عن الساكنين اللذين في آخر البيت مع ما بينهمـــا من الحروف المتحركة ، ومع المحرك الأب قبل الساكن الأول).(5) وقد سميت القافية باسمها لكونها(مأخوذة من قولك قفوت فلانا إذا تبعته).(6)فهي اشتراك الأبيات في حرف القافية ، ويقول الدكتور حسني عبد الجليل يوسف : (هي ذلك النسق من الأصوات والحركات والسكنات الذي يتكرر في نهاية الأبيات من القصيدة العمودية)(7)

4.3.2.1.ديوان الدموع السوداء ج1. ص : - 142- 73- 05- 66.

5. موسى بن محمد بن الملياني الأحمدي : المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي. ص : 353.

6.أبو يعلي التنوخي : : القوافي .تحقيق عوني عبد الرءوف ..مكتبة الخانجي .مصر. ط2 .س 1978.ص59.

7.حسني عبد الجليل يوسف : التمثيل الصوتي للمعاني .ص : 37.

يقول الشيخ التليلي في رثاء والده :

جل المصاب فجلت الأوصاب وتمزقت في جسمنا أعصاب
لما نعى الناعي المكـــرم والـدي وتساقطت لعـزائنا أصحاب
كل أصاب عزاءه ببــــــيــانه وأنا الذي المفقود منه صواب
ماذا أقول وفي اعتقــادي أنــــه لا يبلغ التحقيق منه خطاب
لو كان يفدى ميت لفـــديتــه بالروح لكن القضا غلاب(1)

إن الشيخ التليلي لم يعتمد على الحرف الواحد في القافية ،وحتى يكون الأثر أكبر اعتمد على مقطعين ،فنلاحظ قافية الأبيات :صا- بو، حا- بو، وا- بو ، طا- بو ، لا- بو .

نلاحظ من خلال الأبيات تكرار حرف الروي الذي أشاع نغما موسيقيا تطرب له الأذن ، وهذه هي ميزة القصيدة العمودية التي تلتزم القافية الموحدة .وبالعودة إلى الديوان ، نجد أن الشيخ التليلي ركـــز على بعض الحروف دون غيرها ،حيث نظم في قافية (الميم) ثلاثا وعشرين مرة بين قصيدة ومقطوعــة ، و حرف (الباء) و(الراء) إحدى وعشرين مرة ، ثم (النون) سبع عشرة مرة و(اللام) أربع عشرة مرة . وهو بذلك يتفق مع الشعراء العرب الذين ركزوا في قصائدهم على حروف (اللام ،الميم ،النون، الباء ، الراء).

إن القافية تؤثر في النفس لأنها نابعة من روح الشاعر(وتجتمع كل العناصر في الشعر من عواطف ومشاعر وأفكار وأخيلة فهي تعبر عن الصدق في الإحساس والأصالة في الفن)(2).

يقول الشيخ التليلي في رثاء أحد أصدقائه :

إن المصائب جمـة وأجـلها فقد الحبيب وفرقـــــة الخلان
كم نال قلبي من فراق أحبتي سهم أصاب وطــــعنة بســـنان
واليوم أقرأ في رسالة صادق موت الصديق صديقـنا الزياني
فتألم القلب الجريح لموتــه فبدت دموع القلب في الأجفان (3)

لقد اختار الشيخ التليلي حرف(النون) قافية له ،ليشعرنا بمدى ما أصابه من حزن وأسى ،حيث امتزجت النون المكسورة بانكسار عاطفة الشيخ ،وتعمق جرحه الذي لم يندمل بعد .وهكذا يتأكد ارتباط القافية بعاطفة الشاعر ،وقد مسحت هذه الميزة على الكثير من قصائد الشيخ ،حيث نظم سبعا وستين قصيدة بكسر الروي .

---

1. ديوان الدموع السوداء ج1 . ص: 20.
2. محمد ناصر :الشعر الجزائري الحديث .ص : 197.
3. ديوان الدموع السوداء ج2 . ص: 53.

ويشير رنيه ويلك إلى وظيفة أخرى للقافية ، فيقول (وأهم من ذلك كله أن للقافية معنى ، وهي بالتالي عنصر أساسي في قوام العمل الشعري)(1).

وينحى غنيمي هلال نفس المنحى عندما يرى أن القافية ركن أساسي في موسيقى الشعر (فكلماتها في الشعر الجيد ذات معان متصلة بموضوع القصيدة ، بحيث لا يشعر المرء أن البيت مجلوب من أجل القافية ، بل تكون هي مجلوبة من أجله ولا ينبغي أن يؤتى بها تتمة للبيت بل يكون معنى البيت مبنيا عليها)(2).

ونعرض نماذج من الشعر ، اتفقت فيها القافية مع عاطفة الشيخ التليلي ، فهو عندما تذكر دراسته في جامع الزيتونة ، ورغبته الجامحة في نشر العلم بين الناس وإصلاح أحوالهم ، يختار قافية مناسبة مع غرض الحماسة وهي قافية (الجيم) ، من الحروف الشديدة ذات القلقلة ، يقول الشيخ :

شيخ من الجامع الزيتوني قد خرجا ... وبالعـــالمية في أقرانـــــه درجا
أتى إلى قومه بالعـــلم ينصـــحهم ... يدعو إلى الله بالتوحيد مبتـهجا
فقال يا قوم إن اللـــــه يأمركـــم ... أن تعبدوه وان لا تبتغـوا عوجـا
طريقة الله في القرآن واضـــــحـة ... لو استقمتم عليها نلتم الأرجـا
دعوا الطرائق والسبل التي ابتعدت ... عن السبيل سبيل الله منتهجـــا
و جانبوا ما استطعتم كل محدثـــة ... فمن تجنبها في فعـــــله فلجـــا(3)

والشيخ التليلي يستخدم قافية (الهاء) وهي قليلة الشيوع في الشعر العربي ، يقول في كتاب الله :

كتاب الله أفضـــل ما قرأنـــا ... وأجدر بالتـــلاوة من ســـــواه
فقم وأحفظ كتاب الله تحـــظ ... بكونك في الأولى قطفــوا جنــاه
ففيه الدين والدنــيا جميـــعا ... فطوبى للذين به تبــــــاهــــوا
وزينة مدرسي لـــــوذعـــــي ... كتاب الله يحفظ من صبــــاه
وحلية عالم فطن لبـــيـــــب ... تصدر في المجالس واصطفـــاه(4)

وحسبي أن الشيخ التليلي كان اهتمامه البالغ بالإصلاح والتعليم مثل كثير من المثقفين في المجتمع الجزائري أثناء الاحتلال الفرنسي ، لذلك لم يكن اهتمامه كبيرا بالعلاقة القائمة بين القافية و العاطفة ، وظهر ذلك من خلال بعض قصائده ، يقول الشيخ في ساعة تضجر وتوجع :

وكان الذكـــاء وكان الصفـــاء ... لعقلي وفكري وكان الشبـــاب

---

1. رنيه ويلك : نظرية الأدب : تعريب د/عادل سلامة . دار المريح المملكة العربية السعودية .ص : 216.
2. محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث . ص442.
3. ديوان الدموع السوداء ج2 . ص : 37.
4. المصدر نفسه . ج1، ص : 159.

فها أنا ذا اليوم عند المشيب أرى كل شيء بعين ارتياب
وعدت إذا ما قرأت كتابا أمر عليه كمر السحاب(1)

حيث يستخدم قافية (الباء) وهو حرف شديد مجهور، وكما هو معلوم فإنه أحد حروف القلقلة، وذلك لما فيه من القوة والشدة، في حين أن عاطفته حزينة يائسة لضعف وتبدل الأحوال.

ويستخدم غرض الحماسة بعاطفة تفيض اندفاعا في حرف قافية رخو مهموس، وهو حرف (السين) .يقول الشيخ في احتفال بتأسيس مدرسة بسكرة:

أيها القوم شمروا واستعدوا وانهضوا نهضة الطبيب المؤسي
إنما شعبكم مريض مسجى أكلته الأمراض من كل جنس(2)

تنوع القوافي:

لم يلتزم الشيخ التليلي في الكثير من شعره وحدة القافية، كما نوعها في القصيدة الواحدة يقول الدكتور محمد ناصر في محاولات الشعراء التقليديين(إذا كان من خروج على عمود الشعر عند الشعراء الإصلاحيين فإنه ظل مقتصرا على محاولات نادرة للخروج من إطار القصيدة ذات القوافي المطردة الموحدة إلى نظام الموشحات أو الخماسيات، وما أشبهه مما هو معروف من الشعر الأندلسي، ومما هو رائج عن شعر النهضة)(3).

وقد بلغت القصائد متغيرة الروي في ديوان الشيخ التليلي ستا وعشرين قصيدة، منها ثلاث عشرة في أدب الأطفال. من ذلك قوله في نعمة الزواج ونقمته من بحر(المجتث)، التي بناها على أساس مقطعي، وجاءت القوافي متقابلة بالتخالف، أي أنه قابل بين قافيتي الصدرين في البيتين الأول والثاني و بين قافيتي العجزين في البيتين المذكورين أيضا:

هذا الزواج خبرته وغوره قد سبرته
ذرعته وشبرته فكان ما قد زبرته
فظاهر منه نعمة يراها من لم يجرب
وباطن فيه نقمة يذوقها من تقرب
إذا تزوجت صاح وكان في العرس بخت
فأنت لاشك صاح وما لعرسك أخت (4)

1. ديوان الدموع السوداء ج2 .ص: 80.
2. المصدر نفسه . ج1، ص: 148.
3. محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث .ص: 199.
4. ديوان الدموع السوداء ج 2 ص: 13.

وهكذا إلى آخر القصيدة التي اشتملت على أربعة وعشرين مقطعا ، وأتبع هذا المنهج في العديـــــــد من القصائد حيث يراوح بين القوافي . وينوع القافية بطريقة أخرى ، فيقول في قصيدة ناصحا :

ساء قـــوم قد نضـوا ثـــوب دين وقضوا
بغـــرور ومضــــوا مُـثلة للغـــابريـــن
قال أصـــحاب الكلم كلـــــمة فيها حكـم
وهي في الحـق الحكم حكمت في كـــل دين
ما هلاك النـــاس إلا من مليك قد تعـــلى
أو صوفي قد تخـــلى أو علـــيم لا يدين (1)

فقد التزم الشيخ التليلي في الأشطر الثلاثة الأولى من القصيدة حرف (الواو)والشطر الرابع كان حرف (النون) ، والثلاث أشطر الثانية التزم حرف (الميم) ، والشطر الرابع حرف (النون).

وتتفق القافية مع معنى البيت فيما يسمى (التوشيح) (وهو أن يكون مبتدأ الكلام ينبئ عن مقطعه ، وأوله يخبر بآخره ، وصدره يشهد بعجزه).(2)

من مثل قول الشاعر :

إن اللئـــيم مهما كان نفعه فرفعه أليق منه دفعـــــــه
أما أنا فليس لي رفـــيق في هذه البلاد أو صديـــــق
فحالتي في مسكني اعـتزال مع كتب ألفـــــها الرجال (3)

وينوع القافية والبحر في القصيدة الواحدة ، وذلك في نظمه للقصة الخيالية :

طرق الشيخ خاطبا باب جمع من نساء أقمن حفلة عـــرس
قائلا من تريد منـــكن زوجـا فتضاحكن من غبـاوة هرس

الصغيرة الساخرة :

قالت وقد سمعت بأني أشـيب هذا العجوز أتى إلينـا يخطب

والأيم تقول :

إن الذي أحببـــته تـــــولى ولن يعـــود فالقعـــود أولى (4)

---

1. ديوان الدموع السوداء ج 1 . ص: 137.
2. نقلا عن حسني عبد الجليل يوسف: موسيقى الشعر العربي دراسة فنية وعروضية . الهيئة المصرية العامة للكتاب.س 1989.ج1 ص: 177.
4.3ديوان الدموع السوداء: ج2 ص: 21- 14.

مما يلاحظ على القصيدة أن الشيخ التليلي استخدم بحر (الخفيف) و(الكامل)و(الرجز) ، والبحران الأخيران صافيان ، أما بحر (الخفيف) فتتكرر تفعيلة (فاعلاتن) مرتين .ونفس الطريقة من تنويع البحر والقافية نلاحظه في قصيدة (الترحيب)وهي موجهة للأطفال .

الموسيقى الداخلية :

الشاعر يحاول أن يتوافق مع نفسه ومع المتلقي ، ومع العالم الخارجي عن طريق الموسيقى التي تضيء له الطريق ، ليكشف أسرار نفسه ، ولا يقتصر العمل الموسيقي في الشعر على الموسيقى الخارجية فقط ، بل هناك جانب آخر هام لموسيقى الشعر ألا وهو الموسيقى الداخلية . يقول الدكتور شوقي ضيف (وراء هذه الموسيقى الظاهرة موسيقى خفية تنبع من اختيار الشاعر لكلماته ، وما بينها من تلاؤم في الحروف و الحركات . وكان للشاعر أذنا داخلية وراء أذنه الظاهرة تسمع كل شكلة ، وكل حرف ، وكل حركة بوضوح تام وبهذه الموسيقى الخفية يتفاضل الشعراء)(1)

ويضيف الناقد شوقي ضيف إلى أن خلف الموسيقى الخارجية ، موسيقى داخلية خفية ، تكون في حسن اختيار الألفاظ وتلاؤم حروفها . نقول من ذلك أن الكلمة هي أساس من أسس الموسيقى من ناحية ، وتنوع صورها وأشكالها من ناحية أخرى ، فهي (الإيقاع الهامس الذي يصدر عن كلمة واحدة بما تحمله في تأليفها من صدى ووقع حسن) (2) .

هناك عدة مصادر تنبع منها الموسيقى الداخلية ، و بتآلفها مع الموسيقى الخارجية ، تتشكل الموسيقى التي هي جوهر الشعر ، ونأخذ منها :

أولا : التشخيص والتجسيم :

التجسيم تصوير المعنوي بصورة محسوسة ، والتشخيص منح الصفة الإنسانية لما ليس كذلك . وكل من التشخيص والتجسيم يعطي جرسا خفيا داخليا تزداد به الموسيقى ثراء ، وتنجذب إليه النفس الإنسانية . ومثل الصورة المشخصة المجسمة قول الشيخ التليلي في ليلة الخميس :

يا ليلة من بنات دهـــــر	غراء في حلية العـــــــروس
وافت من غير ما ميعـــاد	والخوف في طرسها السدوسي
والنجم من خلفها رقـيب	والبدر قد هم بالأنيـــــــــس
والليل قد مل من ســـراه	والفجر في حمرة الغلـــــوس

1.شوقي ضيف : في النقد الأدبي دار المعارف . ص: 97.

2.عبد الرحمان الوجي : الإيقاع في الشعر العربي .ص: 74.

وافت وفي لونها اصفـرار من خشية الطالع الحـــــريس
يا ويحها لو درى أبـــوها بأنـــــها تحفة الجليـــــس (1)

ثانيا : ملائمة اللفظ للمعنى :

من منابع الموسيقى الداخلية ،أن يتلاءم اللفظ ومعناه ، وينسجم الغرض مع شكله ، فيبدو الإيقاع واضحا ؛ لأن تلاؤم الألفاظ والمعاني هو روح القصيدة ، يقول الشيخ التليلي :

خليلي ما غير الفراق أصابنـي فهدم أركاني وأضعف من صبري
أبيت وليل النائمين براحـــــة أقلب جنبي في أحر من الجمـــر
وليلة سمري قد ظننت لطولـها بأن لها حبلا يطول إلى الحشـــر
وما ذاك من طول الليالي حقيقة ولكن طير النوم حلق كالنســـر
فيا فجر خالي الهم مولاك نائم فبلغ سلامي إن وصلت إلى فجري
ويا ساعة بعد الوداع وقفتهـــا وحيدا كأني الميت في ظلمة القبـــر(2)

يظهر الشيخ من خلال الأبيات شديد الشوق لتونس متألم لفراقها ، وإذا ما لاحظنا الأصوات الدالة على الألم تظهر في مد (الفراق) الذي تدل على حزن الشيخ وعذابه ، وكذلك (أصابني)(أركاني) فهي كلمات متوالية تدل على استمرار الألم فترة زمنية طويلة دون توقف ، وكذلك في البيت الثالث (طولها) و(يطول) التي توحي باستمرار الألم . أما كلمة (الحشر) فتوحي بطول مدة معاناة الشـــــاعر التي تأخذ عمره بأكمله ، وهذا يدل على عدم نسيانها ، وأن تذكرها مبعث للألم .ونلاحظ البيت الخامس الذي يدل على تجدد الشوق ، وإرسال السلام عبر الفجر فيكون هناك أمل ، ليعود من جديد فيبث آلامه من خلال النداء(يا ساعة) (الوداع)(وحيدا) التي توحي بالتمزق ،ليكتمل الإحساس بالخوف والشوق والحزن عند كلمة (ظلمة القبر) ،وتظهر الكلمات الدالة على أثر الفراق والبعد (هدم – أضعف – أقلب – الجمر – النسر –الميت – ظلمة القبر).

وعاطفة الشاعر حزينة لذا رأينا الألفاظ ملائمة لها ، فالكلمات أنغام وشعور ، وعلى الشاعر(أن يكون على وعي تام بدلالة الألفاظ ، فالدلالة تقوده للموسيقى وإيقاعاتها ، والشاعر الجيد أيضا يتمتع بحس رهيف لموسيقى الكلمات ، ولأصوات اللغة ليتمكن من الملائمة بين الصوت اللغوي والمعنى المراد).(3)

2.1.ديوان الدموع السوداء : ج1 ص : 150- 78.
3.إبراهيم أمين الزرزموني : الصورة الفنية في شعر علي الجارم.ص : 300.

يقول الدكتور محمد ناصر(والشاعر المبدع حقا هو الذي يحس بفطرته الفنية عند جريان الموسيقى في أبياته حيث يختار اللفظة والكلمة والوزن والروي المنسجم مع موضوعه)(1).

ثالثا : السيولة والتدفق في تناسب الإيقاع :

ما يلاحظ على قصائد الشيخ التليلي وجود نوع من التدفق والسيولة في الموسيقي ، بحيث اختار اللفظ واختار تتابع النغمات و مناسبتها للمعنى ، يقول معاتبا الزمان :

ألا يا دهر مالك لا تـــــداري	ومالك لا تساعد أو تجــاري
جرحت كرامتي وأهنت عرضي	وأخلاقي وملت إلى عشــاري
أسأت إلي في سر وجــــــــهر	وأغريت اللئام على احتقاري
أقمت علي في سوق المخـــازي	بأبناء السفاهة سوق عــاري
شتت على لم تفتر حروبـــــا	وكأنك آخذ مني بثـــــــار
زعمت بأني يا دهر جـــــــان	فعاقبت المسيء على اجتـرار(2)

ونلاحظ هنا تزاحم معاني الحزن على الشيخ التليلي في تتابع دون عائق أو تكلف ، وظهرت في (أسأت ، جرحت ، عاقبت ...).وقد استخدم بحر(الوافر) وتقطيع البيت الأول :

ألا يا دهر مالك لا تـــــداري	ومالك لا تســـاعد أو تجاري
//0/0/0//0///0//0/0	//0///0//0///0//0/0
مفاعلتن مفاعلتن فعول	مفاعلتن مفاعلتن فعول

والشيخ التليلي استفاد من الزحافات والعلل ، ليثري الجانب الموسيقي ، فالعروض والضرب سليم وحشو الصدر أصابه (عصب) (3) [تسكين الخامس المتحرك] ، أما حشو العجز فهو سليم . يقول محمد ناصر :(إن إيقاع الحروف والتراكيب يشيع جوا موسيقيا مطربا يملأ النفس غبطة وفرحا وذلك ما يتماشى مع الموضوع الذي كتبت من أجله المقطوعة) (4).

رابعا : التكرار :

إن التكرار هو عنصر موسيقي ووسيلة من وسائل الموسيقى ، يقصد به التأثير والتعميق ، (وله

---

1. محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث .ص : 193/192.
2. ديوان الدموع السوداء : ج1 .ص : 66.
3. محمود بن حسن بن عثمان : المرشد الوافي في العروض والقوافي.ص : 28.
4. محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث .ص : 195.

مواضع يحسن فيها ومواضع يقبح فيها ، فأكثر ما يقع في الألفاظ دون المعاني ، وهو في المعاني دون الألفاظ أقل ، فإذا تكرر في اللفظ والمعنى جميعا فذلك الخذلان بعينه ، ولا يجب للشاعر أن يكرر اسما إلا من جهة التشوق والاستغراب إذا كان في تغزل أو نسيب)(1).

والتكرار اللفظي(2) هو ما يهمنا لصلته بالموسيقى الداخلية ، ونبدأ منه بتكرار الحروف ، فقد تشترك الألفاظ في حرف واحد سواء أكان في أول الكلمة أم في وسطها أم في نهايتها ، ولأصوات الحروف المكررة منبعان : أحدهما من روي القافية ، حيث يفرض هذا الحرف سيطرته على تشكيل البيت ، أما المنبع الآخر ، فينبع من حشو البيت أو من قراره ولا يشكل حرف الروي.

وفي شعر الشيخ التليلي صور عديدة لتكرار بعض الأصوات سواء أكانت نابعة من روي القافية أو من باقي البيت .يقول على لسان بعض الشباب :

بذلنا المال لكن في الملاهي   وكف البؤس يضعفنا رنينا
وأشبعنا البطون بكل لون   ولكن ما تذوقت الحنينا
أتأتينا وتزعم أن دينا   يحرم فيك خبزا أو معينا (3)

وقد بنى الشيخ البيت على أصوات حرف الروي الذي وزعه على الأبيات توزيعا إيقاعيا منسجما ، حيث تكرر ثلاث عشرة مرة .

وقوله في تكرار حرف (التاء) سبع مرات في البيت الواحد :

قضيت أمي وبيت الموت قد زرت   وما قضيت من الحاجات أو نلت (4)

وعندما يشتكي من جفوة الزمان على روي(الراء)، أشاعه بنسب متفاوتة خلال أبياته حيث تكرر إحدى عشرة مرة . يقول :

ألا يا دهر مالك لا تداري   ومالك لا تساعد أو تجاري
جرحت كرامتي وأهنت عرضي   وأخلاقي وملت إلى عثاري
أسأت إلي في سر وجهر   وأغريت اللئام على احتقاري(5)

أما الموسيقى الداخلية للأصوات النابعة من قاع البيت فمن أمثلتها شيوع حرف (التاء) الذي تكرر ست عشرة مرة .حيث يقول :

وجلت في الطرقات فتية آدم   تمشي أمامي والفتى مغبون

1. ابن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده . ص : 73/73.
2. المصدر نفسه .ص: 74 وما بعده.
5.4.3..ديوان الدموع السوداء ج.1 ص: 124-28-66.

فتحت عيني في المفـــــاتن كلها فأصاب سهم قاتل مســــــنون
فوضعت كفي فوق حاجب مقلتي وغضضت طرفي كي تكف شؤون
وسألت قلبي هل أصبت فقال لي لا تسأل المقتول كيف يكـــــون (1)

وقد غلب حرفا(اللام)(والياء) والأخير هو (حرف مد) ، فجاءت حروفها متجانسة ،مزجها مع حرف الروي (الباء)فتشكل نغم موسيقي. حيث يقول :

فقلبي عـــــليل وجسمي نحيل وطرفي كحيـــــــــل بداء الذهاب
وعقلي دخيل وفكري كلـــــيل وفهمي قليل ومــــائي ســـــراب
إذا كان علمي وسيــلة ذمــــي بمجلس قومي فما الجـــــهل عاب (2)

أما تكرار الكلمات ــ وقد تناولناه عند الحديث عن البناء اللغوي ــ فمن شأنه أن يولد انسجاما صوتيا طالما وفق الشاعر في اختيارها ، فظهر حزنه الشديد على تونس من خلال تكرار كلمة(وداعا) في رسالة بعثها إلى أحد أصدقائه يقول :

وداعا سادتي مني وداعا إلى يوم القيامة في القريب
وداعا جامع الزيتون مني وأشياخي وكل فتى حبيب
وداعا تونس الخضرا وداعا أيا دار الحضارة والعريب(3)

ويعاتب صديقه مكررا لفظة (عجب) ومشتقاتها :

إلى متى التـــــــــــمادي وكلنا غضــــــــــــــاب
أليس ذا عجيــــــــــب بل عجب عجــــــــاب (4)

ولما رأى الشيخ التليلي الأذى والظلم في الناس قد كثر ، أخذ يطلب الابتعاد عنهم :

أما البعيد فبعده لك حاجــب عن شره إما بعدت كثـــــيرا (5)

ومن ألوان التكرار الموسيقى ، رد العجز عن الصدر ؛ أي رد أعجاز البيوت على صدورها . وذلك أن ترد كلمة من الشطر الأول في الشطر الثاني (6).ويعـــرف ذلك بالتصدير ، وهو الذي يستطيـــع أن يضــفي على النص جمالا موسيقيا ، فهو أشبه بوثاق رقيق أو نغمة موحدة تربط بين شطري البيت (

1.ديوان الدموع السوداء .ج1 ص : 132.
2.المصدر نفسه .ج2 ص : 80.
3.المصدر نفسه .ج1 ص : 19.
4.المصدر نفسه. ج2 .ص 31.
5.المصدر نفسه ج1 .ص 82.
6.ابن أبي الأصبع المصري.: تحرير التحبير. تحقيق حفني محمد شرف .ج1. ص : 116

و أفضل هذه الأنواع إذا كان اللفظان متجانسان ، وأحدهما في آخر البيت والآخر في صدر المصراع الأول)[1].

وقد استعمله الشيخ التليلي في شعره ، فبنى البيت برمته على التصدير :

شبابهم الموقر مثل شيـــــخ   وشيخ شيوخهم مثل الشبـــاب [2]

ويقول في مطلع قصيدة بعثها إلى صديقه :

خطــــــــــابكم كتاب   وردنا خطــــــــــاب [3]

وقوله :

إن سعى في اكتســـاب عز   سعى به الدهر للرمـــوس [4]

فقد حرص الشيخ أن توافق آخر كلمة في البيت أول كلمة فيه ، كما حرص على أن توافق آخر كلمة الشطر في الأول أول كلمة في الشطر الثاني ، وقد وافق بين آخر كلمة في البيت وآخر كلمة في الشطر الأول ، حيث يقول:

هم لزيتونة العـــلوم ثمـــارا   وهم في الثمـار خـير ثمار [5]

خامسا : اللفظ بين الجزالة والعذوبة :

من خلال تتبعنا لقصائد الديوان ، لاحظنا أن أسلوب الشيخ يتنوع بين الرقة والجزالة حسب الموضوعات التي يتناولها ، وكان للظروف السياسية والاجتماعية القاسية الدور الكبير في اكتسابه القوة والصلابة ، وانعكس ذلك على ألفاظه وعباراته ، واختياره للموضوعات التي يعالجها ، حيث يقول بمناسبة مولد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

الدين منّ عليكم بالأخـوّة إذ   كنتم عدوا وقبل الدين في رهـــب

وأنتم اليوم ترون الغير مـرشدة   كأنكم في غنى عن ديننا الرحــــب

وجدتموه ثقيلا في كواهـلكـم   فكان من حظه أن ديس بالــــركب

لولا عصابة خير قـــام قائمـــها   لم يبق في الدين من لحم ولا عصب

كانت شهابا يريك الحق منبـلجا   ويطعن الجهل في العرنين واللبـــب

وملة المصطفى الغراء شرعتـها   تدعو بها الناس للعلياء والقـــــرب[6]

---

1. عبد القادر حسين : فن البديع .دار الشروق .ط1س1983.ص: .126

3.2.ديوان الدموع السوداء ج2 .ص 61- 31.

6.5.4..المصدر نفسه . ج1 .ص 149- 90- 15.

نلاحظ ألفاظ الأبيات جاءت قوية جزلة تحدث جلبة وقعقعة عند الإنشاد ، حيث يرى الدكتور محمد ناصر أن الموضوع في الشعر التقليدي المحافظ إذا كان يستوجب الصرامة والجد ويتطلب لهجة حاسمة ، فإن جرس الألفاظ والكلمات يستطيع أن يشيع هذه المعاني ، فهي تقرع السمع وتملأ النفس بمعاني القوة والجزالة (1). ويتنوع الشعر حسب الظروف التي دعت إلى نظمه حيث يقول الدكتور شوقي ضيف (وبعض الشعر يحسن أن ينشد في جلبة و قعقعة كشعر الحماسة ، وبعضه يحسن أن ينشد في هدوء وبدون جلبة كشعر الرثاء) (2) . أما اللفظة العذبة فقد ساقها الشيخ التليلي في أغراض معينة مثل الرثاء والاعتذار والشوق . حيث يقول الشيخ من رسالة بعثها لصديقه :

وإخوان الصفـــاء ومن إليـهم	أبوء بحاجتي عند الطـــلاب
يتامى العقد في الأخلاق حـسنا	وحبات الجمان من السيخاب
ومجمعهم إذا اجتمــعوا بنـــاد	لذكر الله مجتمع الثـــــواب
مجالسهم مذاكـــرة وذكـــــر	وءايات تفسر في كـــــتاب
رياض جنانهم أزكى وأذكـــى	من الروضات طيبا كالمـــلاب
تحفهم الملائـــك في ذهـــاب	بأجنحة تصون وفي إيـــــاب (3)

ويقول في رثاء أحمد بن علي :

حكم القضاء وفاضـــت الأرواح	وتحطمت من أجلها أشباح
وتهاطلت منا الدموع على اللحى	فاخضلت الجنبات والألواح
من هول ما مس القلوب من الأسى	بوفاة أحمد ليتهم ما باحوا
فالمسعدات من النســـــاء سوافر	يبكين أحمد ما لهن رواح (4)

سادسا : المحسنات البديعية

لقد اهتم الشيخ التليلي بالمحسنات البديعية وظهرت جلية في قصائده بأنواعها المختلفة ، خاصة الجناس الذي يتميز بتكرار حروف بعينها ، مما يولد موسيقى داخل القصيدة ، وقد عرفه النقاد بأن يورد المتكلم كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتها في تأليف حروفها ، ولكنهما مختلفان في المعـــنى (5). وقد عد الجناس أقوى وسائل الزخرفة لما يجتمع فيه من قوى التأثير على الوزن عن طريق الجرس.

1. محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث ص: 195.
2. شوقي ضيف : في النقد الأدبي ص: 97.
3. ديوان الدموع السوداء ج2. ص: 61.
4. المصدر نفسه. ج1 .ص: 32.
5. أبو هلال العسكري : الصناعتين . تحقيق د/مفيد قميحة .دار الكتب العلمية . بيروت . ط1س 1981.ص: 353.

يقول الشيخ التليلي .

وكانوا كالمعالم للمعـــــــالي وكانوا في العوالم كال العوالي (1)

ويعد الجناس بصفة خاصة ميزة الشيخ التليلي في ديوانه . يقول :

وتخوفـــوا فتخلفـــوا عن ركب من وطئ السحب (2).

ويقول :

فهمـــت من دهـر ي كل هذا فهمت في فدفـــــد دريس (3).

وقوله أيضا :

فحدث عن حصور أو هصور تمنع أو تمتـــــع ما استطاعا

وسرح من لسانك أو فســرح صريح القول أطـــيبه استماعا

ولاتكن الحديـث ولا تــكن فإن الهم فرقني شـــــعاعا (4)

ومن جناس العكس قوله :

وإن سال واديه من ســـــعده فسعد ابن واد به أميــــــز (5)

ويبرز التصريع دعامة موسيقية أساسية في شعر الشيخ التليلي بشكل واضح ،فكثيرة قصائده المصرعة عند الافتتاح ،و قد عرف القدماء التصريع بأنه (أن يكون للبيت فما فوق قافيتان مع وزنين مختلفـــين من أوزان العروض). (6)فهو جانب جمالي في الشعر، ويحسن أن يكون التصريع عفويا غير متكلف . كما عرفه ابن رشيق (بأنه ما كانت عروض البيت تابعة لضربه، وتنقص بنقصه وتزيد بزيادته) (7)وله قيمة موسيقية كبيرة بحيث أنها تحدث نغما موسيقيا تطرب لها الأذن. ويرى ابن الأثير في التصريع (وفائدته في الشعر أنه قبل كمال البيت الأول في القصيدة تعرف قافيتها).(8)

وقد صرع الشيخ جل قصائده ومقطوعاته ، وهذا ما أشاع في قصائده منذ بدايتها ألحانا مميزة في مثل قوله عن الشعر والشعور:

بالشعر أشرح صدري المغمورا أم بالشعور أوضح المستـــورا (9)

5.4.3.2.1..ديوان الدموع السوداء ج1 .ص 101- 18- 149- 142- 96.

6 .أحمد الهاشمي : ميزان الذهب . تحقيق حسني عبد الجليل يوسف . مكتبة الآداب القاهرة .ط1س1997.ص: 137.

7.ابن رشيق القيرواني: العمدة.ج1.ص: 173.

8.ضياء الدين الموصلي- ابن الأثير: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر . دون معلومات. ص: 151

9. ديوان الدموع السوداءج1. ص: 90.

أما المجمعة(غير المصرعة في أول الأبيات)في شعر الشيخ كانت في المقطوعات والقصائد الموجهة لتعليم الأطفال في أغلبها ، ونلاحظ أنه لم يحرص على تصريعها نظرا لقصرها ، وتركيزه على الفكرة أكثر من الموسيقى .

ويقول أيضا :

لست أنس الأحباب ما دمت حيا   يا صديقي ولو أساؤا إليا (1)

وقد يعمد أحيانا إلى تصريع القصيدة بأكملها ، كما فعل في قصيدة (نفثة مصدور بين السطور) :

تالله لولا الدين يا فـــــــتاتي   قد لزني لهده الزيجـــــات

لما خطبت في النسا حــــــياتي   موبوءة الطباع والصفـــات

مثل الذي رأيت في الغــــــداة   من طبعك الموسوم بالعاهات

دخلت بيتي كالعدو العاتــــــي   لتهدمي بنيانه المواتـــــــــي

وتقذفي السموم في القنـــــــاة   وتعبثي في البيـــــت بالأداة(2)

ويظهر حرص الشيخ التليلي على إغناء قصائده بمزيد من التنغيم وبث الموسيقى في عمق أبياتها بالتصريع داخل الأشطر ذاتها ،وهو ما يسمى بحسن التقسيم.

يقول الشيخ :

هدام أبنية الضـــــلال وغيره   بناء أفنية النكال وما درى (3)

نلاحظ أن الشيخ قسم حشو الشطرين (هدام أبنية الضلال) (بناء أفنية النكال)بطريقة متناغمة تعطي نغما موسيقيا .

وقوله أيضا :

إيمانه وجنانه ولســـــــــانه   لم تبق من نبت المظالم أخضرا

فتخاله في علمه أو حلــــمه   أو عزمه أو حزمه الاسكنــدرا (4)

فقد ناغم الشطر الأول من البيت الأول وإن لم يصرعه ،وكذلك فعل بالشطر الأول من البيت الثاني وامتد إلى العجز (علمه ـ حلمه ـ عزمه ـ حزمه)حيث أحدث بذلك نغما موسيقيا .

ويقول واصفا صورة له :

فالوجه جهم وعين الوجه غائرة   والخد عظم وذقني شيبة ساري(5)

2.1.ديوان الدموع السوداءج1. ص : 162- 29.

4.3. المصدر نفسه ج 1 .ص87.

5.المصدر نفسه . ج1 .ص 89.

من كل ما سبق نقول أن جزالة اللفظة ورزانتها مع فصاحة العبارة ،كل ذلك ائتلف مع حس الشيخ الموسيقي الذي هداه إلى البحور المناسبة لمضمون شعره ، فكانت هذه البحور التي اختارها لتكون مسرحا لعرض أغراضه المختلفة ، هذا إلى جانب ثقافته التي استمدها من ينابيع القرآن والشعر العربي ، مع احتفاظه بشخصيته الفنية فيما نظم مما يفصح عن أصالته الشعرية ومقدرته الأدبية .

الخـــــــاتمــة

الخـاتمـة

رحلة العطاء عند الشيخ الطاهر التليلي طويلة ، لكنها توقفت مع وفاته سنة 2003 ، فنهلنـــا من ينابيعها الشيء القليل ، وعشنا مع الشيخ في سكناته وحركاته ، في وحدته وعزلته ، في شكه ويقينه ، ثقافته ومعاناته ، و تعرفنا على أعماله وانشغالاته ، و اشتممنا رائحة احتراق آماله وفرحته بالنهــوض.

لقد أخذ الشيخ من التراث المجيد ، ووظفه في توعية الناس من أجل التصدي للاستعمار الدخيل ، واستعان بالدين الحنيف ليجلي به ظلمة المستعمر ، كما استفاد من الموروث الديني والتاريخي للأمم السابقة .

ووجدت أن إيمانه ينبع من طبيعة متأصلة ، وثقة تامة في الله عز وجل ، وأن شكه ناتج عن ظروف قاهرة ، وعداء مستمر من أهل بلدته ، فكان شعره يجمع بين الشك واليقين .

كان الشيخ الطاهر التليلي شاعرًا من الشعراء الذين أثروا الجزائر بنتاجهم الفني المتنوع والضخم ، ولكنه صدف عن خدمة شعره والاهتمام بنشره وذيوعه ، فأهمل الدارسون ذكره في ثنايا دراساتهم الأدبية ، فضلاً عن تخصيصه بدراسة فنية مستقلة تضع شعره في ميدان التقويم ، وتعرضــــه في ميزان العدل والإنصاف.

وهذه الدراسة محاولة جادة لتحقيق ذلك ، وقد انتهت إلى بعض النقاط التي لاحظتها من خلال هذا البحث ، وهذا عرض لأهمها :

1- ظهر من خلال دراستي العلاقة التي رأيتها وثيقة بين الأحداث التي عاشها الشيخ التليلي وبين موضوعات شعره التي غلبت عليها رنَّة الحزن والحرمان ، وسيطر عليها الألم والتشكي ، في الوصف و الشكوى والعتاب واللوم.

2- أن الشيخ استفاد من تجارب الشعراء السابقين من أمثال البحتري والمتنبي ، والشافعي وهذا ما ترجمته قصائده .

3- لاحظت من خلال الدراسة تقدم النصح والإرشاد ، سواء للكبار أو لطلبة المدارس ، على بقية الموضوعات التي تناولها الشيخ ولم تفرد لها قصائد إلا نادرا ، فمعظمها يستخلــــــص من ثنايا القصائد .

4- مما يلاحظ على اللغة الشعرية للشيخ التليلي ، تنوعها بين اللغة البسيطة التي تكاد تكون عامية ، وبين اللغة القوية الجزلة ، التي لها صدى وأثر في النفس ، كما ظهر تمكنه من خلال قدرته على تطويع اللغة بين مخاطبة الصغار و الكبار.

5- تنوع الصورة الشعرية عند الشيخ التليلي وتعددها بين صور بلاغية قديمة ، وأخرى حديثة معتمدة على التجسيم والخيال .

6- التزام الشيخ مجافاة أساليب التجديد التي تمس وحدة التفعيلة ، فقصائده كلها في الاتجاه التقليدي ، الذي يعتمد على قوة اللفظة و جزالتها ، والاهتمام بالبيان والبديع.

7- قدمت من خلال شعر الشيخ التليلي مقاربة تحليلية لقضية الصلة بين الوزن والموضوع ، وقمت بالتفريق بين الحالات المتعددة للوزن الواحد ، وتوضيح دور القافية في تشكيل النغم الشعري ، وتغيير اتجاهاته وإيحاءاته ، كما بينت درجات العاطفة وبواعثها وما يناسب ذلك من المعاني من حيث علاقتها بالموسيقى الخارجية.

8- مما يلاحظ في ديوان الشيخ التليلي استخدامه الكبير لبحر(الرجز) ، و هو بحر قصـــــير أكثر من البحور الأخرى .

ولما كان البحث محدودًا بشعر الشيخ التليلي فقد بقيت جوانب مهمة من أدب الشيخ لم تتعرض لها يد الدراسة ــ بعد ــ ، فثمة أدب يشكل مادة ثرية أراها خليقة بالبحث والدراسة.

وبعد هذا فإني لا أزعم أني وفيت الموضوع من كافة جوانبه ، وحسبي أني وجدت شاعرًا أغفلته العيون فأعطيته جهدي ومتابعتي ، وأني حاولت أن أقدم كل ما أستطيعه في دراسة فنه وأدبه.

وختاما أكرر خالص شكري وتقديري إلى أساتذتي الكرام الذين مدوا لي يد العون ليخرج هذا العمل بهذا الشكل ، كما أكرر شكري إلى كل من ساهم بمساعدة في إنجازه.

كما أدعو الله أن يتقبل منا صالح الأعمال ، وأصلي وأسلم على خير الأنام ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المصـــادر والمراجــــع

قائمة المصادر والمراجع

ــ القرآن الكريم.

أولا : المصادر :

1. ابن رشيق القيرواني : العمدة في صناعة الشعر. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . ط5 س1981.ج2.
2. ابن منظور : لسان العرب .
3. أبو القاسم سعد الله : الزمن الأخضر .المؤسسة الوطنية للكتاب . الجزائر ط س1985.
4. أبو بكر مراد : أوراق الهزيمة.دار الشهاب باتنة.
5. أبو هلال العسكري : الصناعتين . تحقيق د/مفيد قميحة .دار الكتب العلمية . بيروت . ط1س 1981.
6. إسماعيل بن حماد الجوهري : الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية. تحقيق أحمد عبد الغفور عطار .دار العلم للملايين
ط 4 س0 199. ج5.
7. الخليل بن أحمد الفراهيدي : كتاب العين .تحقيق مهدي المخزومي ـ إبراهيم السامرائي . ج7.
8. ديوان أبي الأسود الدؤلي.صنعة أبي سعيد الحسن العسكري .تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين. دار مكتبة الهلال . ط2 س 1998.
9. ديوان الإمام الشافعي .اعتنى به عبد الرحمن المصطفاوي .دار المعرفة بيروت ط3.س2005.
10. ديوان البحتري. مطبعة الجوائب قسطنطينية 1300.ط1.ج1.
11. ديوان الفرزدق. دار بيروت س1980. ج2.
12. ديوان المتنبي . دار بيروت . س 1983.
13. ديوان إيليا أبي ماضي .تقديم : جبران خليل جبران .دار العودة .ط1س1986.
14. ديوان حافظ إبراهيم .الهيئة المصرية للكتاب .ط3. س 1987.
15. ديوان عنترة .دار بيروت طبعة س1978.
16. الزمخشري : أساس البلاغة .تحقيق محمد باسل عيون السود .دار الكتب العلمية بيروت . ط1.س 1998.ج1.
17. عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة في علم البيان . صححها الشيخ محمد عبده. دار الكتب العلمية ـ بيروت ط1. س1988.

18. محمد الطاهر التليلي : الدرر الملكية في الدراري الفلكية.مخطوط.
19. محمد الطاهر التليلي : ديوان الدموع السوداء.
20. محمد الطاهر التليلي : هذه حياتي .مخطوط.
21. محمد العدناني : معجم الأغلاط اللغوية المعاصرة . مكتبة لبنان .ط1. س1984

ثانيا : المراجع :

1. إبراهيم العوامر : الصروف في تاريخ الصحراء وسوف.تعليق الجيلالي عوامر. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع .س1977.
2. إبراهيم أمين الزرزموني : الصورة الفنية في شعر علي الجارم.دار قباء.2000.
3. ابن أبي الأصبع المصري.: تحرير التحبير. تحقيق حفني محمد شرف .ج1.
4. ابن خلدون : المقدمة .دار الفكر . س 2004.
5. ابن طباطبا : عيار الشعر .تحقيق عباس عبد الساتر . دار الكتب العلمية بيروت .ط1س 1982.
6. أبو القاسم سعد الله : تاريخ الجزائر الثقافي .دار الغرب الإسلامي .بيروت .ط1 س1998. ج2.
7. أبو القاسم سعد الله : أفكار جامحة. المؤسسة الوطنية للكتاب
8. أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية .دار الآداب . بيروت .ط س1967.
9. أبو القاسم سعد الله : دراسات في الأدب الجزائري الحديث .ط2س 1977.
10. أبو القاسم سعد الله : مجادلة الآخر . دار الغرب الإسلامي .ط1 س2006.
11. أبو يعلي التنوخي : القوافي .تحقيق عوني عبد الرءوف ..مكتبة الخانجي .مصر. ط2 .س 1978
12. أحمد الشايب : أصول النقد الأدبي. مكتبة النهضة المصرية .ط10س1994.
13. أحمد الهاشمي : جواهر البلاغة . ضبط يوسف الصميلي . المكتبة العصرية ..بيروت.
14. أحمد الهاشمي : ميزان الذهب . تحقيق حسني عبد الجليل يوسف . مكتبة الآداب. القاهرة .ط1س1997.
15. الإمام المفر بن أبي جعفر محمد بن جرير الطبري : مختصر تفسير الطبري . تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني و د/صالح أحمد رضا . مكتبة رحاب س1991. مجلد 2 .
16. أنس يعقوب إبراهيم : أعلام من أرض النبوة.ط1.س1514هـ. ج 2
17. أنور الجندي : الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا . مطابع الدار القومية . القاهرة د ط س1975.

18. جابر عصفور : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب . المركز الثقافي العربي بيروت . ط3س 1992.
19. حسن فتح الباب : شعر الشباب في الجزائر.المؤسسة الوطنية للكتاب .الجزائر .س 1987.
20. حسني عبد الجليل يوسف : التمثيل الصوتي للمعاني. دار الثقافة للنشر . القاهرة .ط1س 1998.
21. حسني عبد الجليل يوسف : موسيقى الشعر العربي دراسة فنية وعروضية . الهيئة المصرية العامة للكتاب د ط .س : 1989 .ج1.
22. حنا الفاخوري : الفخر والحماسة .دار المعارف.ط5.س1992.
23. الخطيب التبريزي .الوافي في العروض والقوافي .تحقيق فخر الدين قباوة . دار الفكر دمشق ط4 س 1986.
24. رابح بوحوش : اللسانيات وتطبيقاتها على الخطاب الشعري .دار العلوم د ط س2006.
25. سعد بن البشير ـ أحمد بن الطاهر منصوري :أعلام من سوف في الفقه والثقافة والأدب .جمعية الجماعة السوفية .
26. شوقي ضيف :الرثاء.دار المعارف .ط4س 1987.
27. شوقي ضيف : في النقد الأدبي .دار المعارف القاهرة .ط6.
28. شيخ أمين بكري : البلاغة العربية في ثوبها الجديد ـ علم البيان ـ دار العلم للملايين . بيروت. ط 7 . س2001.
29. ضياء الدين الموصلي ـ ابن الأثير ـ : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر . دون معلومات
30. عادل محلو ـ أحمد زغب : دراسات في أدب الأطفال. .مطبعة مزوار
31. عباس محمود العقاد : اللغة الشاعرة. دار نهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة د ط .س 1995.
32. عبد الحميد هيمة : الصورة الفنية في الخطاب الشعري الجزائري.مطبعة دار هومة .ط1س2003.
33. عبد الرحمن البرقوقي : شرح ديوان المتنبي .دار الكتاب العربي د ط .س1986 .ج 4.
34. عبد الرحمن الوجي : الإيقاع في الشعر العربي .دار الحصاد للنشر والتوزيع .ط1 س 1989.
35. عبد الرزاق عبد الرحمان السعدي : تنبيه الوسنان إلى علم البيان. دار الأنبار للطباعةس1997.
36. عبد القادر حسين : فن البديع .دار الشروق .ط1س1983.
37. عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز .صححه الشيخ الإمام محمد عبده .دار الكتب العلمية بيروت ط1س1988.

38. عبد الله الركيبي : الشعر الديني الجزائري الحديث . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع . الجزائر ط1س1981.
39. عز الدين إسماعيل : الأسس الجمالية في النقد العربي. دار الفكر العربي القاهرة س 2000.
40. علي الجارم ومصطفى أمين : البلاغة الواضحة البيان والمعاني والبديع .دار المعارف بمصر.
41. قاسم برسيم : منهج النقد الصوتي في تحليل الخطاب الشعري . ط1 س 2000.
42. محمد الطاهر التليلي : رسالة المقتطفات النظومة من مؤلفاتي المعلومة.مخطوطة س 2001.
43. محمد الطاهر التليلي : . زهرات لغوية مقتطفة من كتاب الألفاظ الكتابية للهمذاني.مخطوط.
44. محمد الطاهر التليلي : مجموع مسائل تاريخية متفرقة تختص بسوف وأهلها في القديم والحديث وما يتعلق بصحراء سوف من قريب أو بعيد .مخطوط
45. محمد الطاهر التليلي : منظومات تربوية للمدارس الابتدائية ، دون ذكر الناشر ولا سنة النشر.
46. محمد بن سمينة : في الأدب الجزائري الحديث. النهضة الأدبية الحديثة في الجزائر مؤثراتها ـ بدايتها ـ مراحلها . مطبعة الكاهنة . الجزائر سنة2003.
47. محمد بن سمينة : محمد العيد آل خليفة .المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر.د ط .س1989.
48. محمد صالح الجابري : النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900. 1962الشركة الوطنية للنشر و التوزيع س1983.
49. محمد غنيمي هلال : الأدب المقارن .نهضة مصر للطباعة والنشر.ط3 .س2003.
50. محمد غنيمي هلال : النقد الأدبي الحديث.دار النهضةـ مصر. س1997.
51. محمد مندور : الأدب وفنونه . نهضة مصر للطباعة والنشر .ط 2 س2002.
52. محمد ناصر : الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925ـ 1975 .دار الغرب الإسلامي ط1س1985.
53. محمد ناصر بوحجام : أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث . المطبعة العربية.ج1.س 1992.
54. مصطفي السعدني : التصوير الفني في شعر محمود حسن إسماعيل.منشأة المعارف بالإسكندرية.
55. موسى بن محمد بن الملياني الأحمدي : المتوسط الكافي في علمي العروض والقوافي. ط2 س1969.
56. نجيب الكيلاني : أدب الأطفال في ضوء الإسلام . مؤسسة الرسالة .ط4س1998.
57. النعمان القاضي : أبو فراس الحمداني الموقف والتشكيل الجمالي .دار الثقافة س1982.
58. يوسف السكاكي : مفتاح العلوم .ضبطه نعيم زرزور. دار الكتب العلمية بيروت ط2س 1987.

المجلات والوثائق :

1. أبو القاسم سعد الله (فقيد العلم والجزائر الشيخ محمد الطاهر التليلي(1910ـ2003)جريدة(الشروق)العدد950.(2003/12/16).
2. أعلام سوف .إعداد مديرية دار الثقافة لولاية الوادي. شركة مزوار. ط1.س2006.
3. العلامة المصلح محمد الطاهر التليلي 1910ـ 2003.قراءة في سيرته وفكره وآثاره. مجموعة من المختصين.
4. عادل محلو : الحركة الأدبية بولاية الوادي . ألقي في الأسبوع الثقافي لولاية الوادي جوان 2007.
5. قبل أن تنفد الكلمات (شعر) . من إصدارات دار الثقافة لولاية الوادي . مجموعة من الشعراء .مطبعة مزوار .س 2007.
6. قانون الوئام المدني 16سبتمبر 1999م.الصادر عن وثائق مجلس الأمة.
7. مجلة العرب.ج11و12.. س 40. الجماديان . المملكة العربية السعودية . سنة2006.
8. مجلة القباب :تصدر عن دار الثقافة بالوادي .العدد 1.س2004.
9. مجلة القباب : .العدد 2.س2004.
10. مجلة القباب : .العدد 6.س2007.

الرسائل الجامعية :

1. عبد الكريم شبروا : التجربة الشعرية عند أبي القاسم سعد الله مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي الحديث.إشراف د/سعيد لراوي.جامعة باتنة سنة2006/2007.
2. علي غنابزية : مجتمع وادي سوف من خلال الوثائق المحلية في القرن 13هـ19م .رسالة ماجستير جامعة الجزائر 2001.قسم التاريخ .
3. موسى بن موسى : الحركة الإصلاحية بوادي سوف نشأتها وتطورها (1900ـ 1939)رسالة ماجستير إشراف د/أحمد صاري .جامعة قسنطينة. قسم التاريخ سنة2004ـ/2005.

الكتب الأجنبية :

1. Paul Robert Dictionnaire de langue française(Tomes), Société du nouveau lettre Paris,1975.

الكتب المترجمة :

1. اللغة الفنية .(تعريب وتقديم) محمد حسن عبد الله. دار المعارف .القاهرة.
2. رنيه ويلك :نظرية الأدب: تعريب د/عادل سلامة . دار المريح المملكة العربية السعودية.

الفهـــــــــرس